شــــــرودنجر

شرودنجر

رواية

أكمل الصاوي

اسم الكاتب: أكمل الصاوي
اسم الكتاب: شرودنجـر
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: فارس حسـن
الإخراج الفنيُّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولـى – يناير ٢٠٢٠ م
رقم الإيداع: 2019 / 27843

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

جميعُ الحقوق محفوظةٌ للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أيٍّ من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليًّا أو جزئيًّا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أم آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذنٍ خطِّي من الناشر.

مقدمة لا بد منها

لا أدرى من أين البدء، لَعْثَمَةٌ، الكلمات تهرول هاربة، يقولون إن الانطباع الأول يدوم، ومن هنا تأتى أهمية المقدمة لكن هيهات فالقدر دائمًا ما يسخر منا، كنت قد أقسمت بيني وبين نفسي ألَّا أكتب مقدمة للرواية التي بين أيديكم كنوع من الاختلاف وتفويت الفرصة عليكم أن تكوِّنوا عني انطباعًا يجعل أحدكم يطوحها من النافذة التي بجواره، وهأنذا أحنث بقسمي؛ فالقائمون على النشر طاردوني وحدَّثوني أكثر من مرة طالبين مقدمة للعمل، (أخشى أن يكتبوا أننا لم نطالبه بشيء) وللعلم فهم أصدق..

لم أكن يومًا أتوقع أن أكتب عملا روائيا طويلا، كان ردِّي دائمًا عندما كان أحدهم يحادثني عن ضرورة البدء في الكتابة أني لست بمجنون حتَّى أخوض تلك التجربة، إلا أني ولسبب ما بدأت، كنت أعلم حجم ما أنا مقبل عليه وظننت أني مهيأ له، لكني كالعادة أخطأت التقدير، عام وشهران عشت فيهم كما المندوه، مجذوب عصاه عقله ورفض أن يكمل معه المسير فقبض على عصاه أكثر كما الكسيح علَا تكن له مخرجا مما هو فيه، تحادثني شخوص روايتي في اليقظة قبل الأحلام، أراهم أمامي، أَلَمٌ فاقَ أَلَمَ المخاض عانيته يوميًّا، قرار التوقف كثيرًا ما أتاني فيأتي من يثنيني عنه إما في دائرتي وإما في شخصيات الرواية، عانيت وعانَى

كل من حولي حتَّى أصل لنهايتها، كنت دائم القول: كيف لكم أن تعطوني قلمًا وتطلبون مني أن أهدم جبلًا، أنتم لا تعرفون شيئًا، أنتم لا تشعرون بشيء، الجنون يدق أبواب عقلي فيأتيني ردهم: بدأت برغبتك وصرت مطالبًا مرغمًا أن تكمل حتَّى النهاية..

وأكملتُها وأقسمتُ بكل غالٍ وعزيز أن لا أعيد التجربة (لا داعيَ أن أذكركم أني دائم الحنث بما أقسم) فما أن وصلت لكلمة النهاية حتَّى وجدت نفسي شارعًا في عمل جديد، تجهيزات واستعدادات أخرى. لا أعلم إن كان هذا رغبة في ألم أو اعتياد عليه، كل ما أعرفه أنى وجدت نفسي أبدأ في عمل آخر رغمًا عني..

صارت الرواية بين يدي، عمل أظن أنى أنتهيت به راضيًا عنه، وجاء السؤال الأهم: وماذا بعد، ماذا أنا بفاعل، راسلتهم جميعًا، منهم من رآها دون المستوى، ومنهم من قال: إنها لا تناسب توجهات الدار وكأن روايتي تشجع فريقًا كرويًّا على غير هوى أهل الدار، ومنهم من طلب مني ألوفًا ودولارات وذهبًا وياقوتا ومرجانا حتَّى ينشر لي، وآخرون وافقوا لكن بشرط أن تكتب على هواهم وكما يتصورون. إلى أن راسلتني المكتبة العربية للنشر والتوزيع.. أستاذ فلان.. أيوه.. مبروك أنت فزت معانا في المسابقة وعملك إحنا هنطبعه بإذن الله.. طب في تعديلات انتو طالبينها؟.. مش من حقنا نطلب تعديلات، نحن لا نتدخل في العمل..

لم أصدق أن الموضوع سهل وبسيط إلى هذا الحد وانتظرت ما سيعكِّر الصفو، والذي أتى في هيئة طلب منهم أني مطالب بتجهيز العمل كغلاف وكمراجعة لغوية، بضع مئات لا تغني ولا تسمن من جوع إلا أني لم أكن أملكها في ذلك الوقت أو أني لم أكن واثقًا فيما كتبت فخفت أن أدفع فيه؛ فراسلتهم أني لن أنشر روايتي، وعندما عرفوا السبب ابتسم كبيرهم قائلًا: وهو حَدْ طلب منك فلوس؟ أنت معنا وروايتك نريدها.

مصاعب كثيرة وعوائق أكثر كانت كافية حتَّى لا يظهر ذلك العمل للنور، وعند كل عائق وعند كل مطب كنت أجد إرادتهم وإصرارهم في إزالة أي حاجز يحجب النور عما بين أيديكم الآن..

صفحة انتهت والدار خصَّصت للمقدمة صفحتين، صفحة انتهت ولم أتكلم عن الرواية كما هو متَّبع، صفحة انتهت ولم أشكر أناسًا لم يبخسوا بجهد أو أهتمام أو تشجيع حتَّى أنتهي من الرواية فتظهر للنور، لكن ما ينصفني أني لو أردت التحدث عن فضلهم فكل ورقات الرواية لن تكفي؛ لذا لن أزيد عن كلمة شكرًا..

شكرًا لكم جميعًا ويكفيكم أن ما تعبتم من أجله الآن صار بين أيدي الناس كما تمنيتم وأردتم..

الآن آترككم معه..

الآن أترككم مع شرودنجر..

إلى أناس لا أستطيع ذكر أسمائهم
حتّى لا يتوه مني اسم أحدهم.
إليهم أهدي شرودنجر..

أكمل الصاوي ،،

الفصل الأول

لا تُصَدّقهم، سيقولون أشياء كثيرة فلا تصدقهم. سَتُنْصب حلقات الذّكر، ستشتعل القنوات والبرامج واللقاءات. سيأتي معدّو البرامج بضيفين فَيُفَرّق المذيع عليهم الأدوار، هذا مع، هذا ضد، هذا أيضًا بعد أن يُمَنّيهم بالشيكات التي تتلألأ فيها الثلاثة أصفار أو حتى الأربعة فيعلو الرقم أو ينخفض كل حسب قدره وقباحته وصوته العالي...

سيأتون بأطباء ودكاترة ليطرحوا نظرياتهم ويتناقشوا ويتباحثوا، كلامهم ستجده مثل ملبسهم مُنَمّقًا أنيقًا مختارًا بعناية كما رابطة العنق التي تتدلّى على صدر كل منهم. لا تسلّمْهم عقلك، لا تأخذ كلامهم على محمل الجد. ما أسهل أن أقول لك حالًا أن كل النشرات والمجلات الطبية والأبحاث وعلى رأسها مجلة "هيومان جرين" أجمعت أن الإنسان أصله كلب بحر، مع العلم أنه لا توجد من الأصل مجلة بهذا الإسم، كما أن علاقتي بالإنجليزية فُسِخت وتوقفت عند المرحلة الثانوية. لذا أرجوك.. لا تُصَدّقْهُم...

الأحداث سِمَان، بقرات حلوب، ينسال كل دقيقة خبرًا. لا أُصَدّقُ ما أراه أمامي علي شاشة التلفاز. من يقول أن ذلك الأصلع ذا المقام الرفيع سيقف ثابتا جامدًا دون ملامح أو شعور ليتلوا علينا خطاب تنحّي رئيس الجمهورية، لا أدري لِمَ أرَه كما الروبوت، أحاول تمييز أي خلجة في صدره تَرِدُّ علي وجهه شكل

شعور فلا أجد، إنسان آلي تلوا عليه عددًا من كلمات حتَّى حفظها فوضعوه أمام ميكروفون في مواجهة الكاميرا فتلاها علينا. لا أستكثر عليه تأثير الصدمة، فمن يُصَدّق أن بضع مئات من شباب نفخوا في الصور نفخة واحدة فبثُّوا الروح في شعب لِيَهُبّ عن بكرة أبيه فيكسر الصنم ويقضي علي عبادة الأوثان فيسري في البلاد دَيْنُ جديد عقيدته الحرية ومذهبه الثورة...

حدث جلل، تمرّ أجيال تأتي وتروح دون أن تُدْركه، محظوظون من يعيشون الآن، فقد صار لديهم حكايات وأقاصيص عن بطولات زائفة سيُعيّرون بها الجيل الذي يليهم. لكن هذا لا يشغلني الآن، ما يشغلني بحق ذلك الاكتشاف الذي أتاني في أسمي لحظات التجلي والذي حُرِمَت منه البشرية وبَخَلَت به علي نفسها، فما آكله الآن من لحم لم أجد في حياتي ألذُّ منه طعمًا وأشْهى منه حلاوة. لا تُرَدّدْ كما البغبغاء وتقل لي لحم الضأن و لحم الغزال وما شابه، فأنت لم تتذوق قط قطعة من صدر زوجتك. أتاني الموضوع مصادفة وأنا أخنقها، أصابعي كانت في تلك اللحظة ميبّسة على عنقها، تستقوي علي رقبتها راغبة في قطع الهواء الواصل إلى رئتيها حتَّى خبط كوعي في ثدييها، لا أدري لماذا شعرته غضًّا رطبًا مكتنزًا وكأني أتعرف عليه لأول مرة، عافَرَتْ، حَاوَلَتْ النجاة والتملُّص من يدي، فطلَّ نهديها من قميصها فرأيت حلمتين ورديتين نافرتين تنادي القطف...

أرْخيْتُ يداي، فلانت أصابعي إلا أنها غابت عن الدنيا بإغماءة لتستيقظ بعدها فتعرف أنى كبّلْتها عاقدًا وثاقها على أحد المقاعد. صَرَخَتْ كثيرًا وتوسّلَتْ أكثر، لكني لم أُعِرْها انتباها، كان صدرها يشاغلني، يهْتَزُّ مع كل صرخة، يَرْتَجّ، يصرخ مناديًا عليّ، هدّأْتُ من رَوْعِها مُرَبّتا عليها بنظرة حانية طابعا علي جبهتها قبلة أرَدْتّها زاخمة بالحب...

مؤمن أنا بالخيال الرحب الفسيح، ذاك الخيال الذي يجعلك تنتقل من عالمك لعوالم أخري وأنت جليس مكانك، الخيال الذي يجعلك تكتشف في نفسك أبعادًا جديدة لشخصيتك، قوى لمْ تكن تتخيل أنها كانت بمقدورك، أفعال ما كنت أبدا تتصور أنك فاعلها. كل ما عليك فقط هو أن تتخيل، ولكم كنتُ ما أتخيله في تلك اللحظة بديع بحق. فكرة أن تقتل مثل الآخرين مخزية جدًّا ومهينة، لست بمجرم حتَّى تتساوي بهم، كم رجل يقتل في اليوم الواحد، جميعهم متشابهون، نمطيون يفتقرون إلى الروح، ضنّ عليهم الخيال بالإبداع، لذا بدَأْتُ القطع. لا أُنكر أن صراخها حال عني الكثير من المتعة، لكنه لم يفقدني أبدا تركيزي. لا أنصحك أن تقطع من أعلى من عند التقاء النهد بالجسد، فذلك مضيعة للوقت. أقْطِفْ من فوق الحلمة بقليل، وإن كنتَ على معدة فارغة مثلي فاقطع النصف المتدلي كاملًا...

قَطّعْ واحدة أو اثنتين من الطماطم علي هيئة شرائح مع قِطَعِ صغيرة من الفلفل الأخضر، لا تنسى أن تفعل باللحم كما فعلْتَ بالطماطم، وبقليل من

السمن على طريقة التشويح وإياك أن تغفل الملح والفلفل الأسود والتقليب الجيد...

ملحوظة: لا تُكْثِر من السمن ودعِ اللحم يَنُزّ دهنه، وإن كنت مثلي ممن يحافظون على صحتهم فلا ضير من زيت الذرة...

ملحوظة أخرى: بعد أن تنتهي من طعامك نظّفْ مكانك جيدًا، إمسح الدم الذي صار بركة تحت مقعدها فالذباب سرعان ما سيشتمّهُ فتجده يأتيك من كل فج، وإن لم تجد مكان للسكين الذي اجتزأت به اللحم فنصيحة لك ضعه في فرجها...

أراكَ سَتُصَدّقُهُم، ستردد وراءهم أن روائيًّا مشهورًا قد جُنّ وذهب عقله، قتل زوجته بطريقة بشعة وحشية. لا يا صديقي لم أُجَنّ ولم يذهب عنى عقلي ولا داعي لإعطاء الأمور أكثر من نصابها، فكما أَخْبَرْتُك أن ما حدث كان مصادفة. فلو لم يَخْبِطُ كوعي في ثدييها ما كنتُ فاعلها، هذا غير أنه لم يكن هناك ضير من التجربة. أمّا بالنسبة للسكين ومكانه فلماذا تَحْسَبُ ذلك وحشية وجنونًا، لماذا لا تعتبره رغبة مني في عدم تشتيت رجال البحث الجنائي عندما يأتون محققين، فقد وفّرْتُ عليهم عناء البحث عن سلاح الجريمة، تلك هي الجثة وذاك هو السكين في فَرْجِها، ناهيك عن أن صراخها وكما قلت لك كان يُزعجني فلم يكن أمامي إلا أن أُسْكِتها...

ألم أقل لك لا تُصَدّقُهم ولا تُعْطي الأمور أكثر من نصابها؟!

لا تنسى الفلفل الأسود.. مهم جدًّا هذا...

أستأذنك وأستمحيك عذرًا سأغلق التلفاز فرأسي لا يتحمل صراخهم واحتفالاتهم البلهاء، كما أني لابدَّ أن أفتح باب الشقة فلا يَصِحّ أنْ أتركهم أكثر

نعم، كما تَوَقّعْتَ، فلقد اتّصَلْتُ بالشرطة وها هم قد أَتَوا...

إلى لقاء...

لا تنسى الفلفل الأسود... مهم جدًّا هذا...

****

- يعني هو ساب الثورة والتنحي والآلاف اللي في الشوارع، ساب كل ده وقتل مراته..؟!

- ومش كده وبس، ده استموت عشان يبلّغ، وفين وفين لمّا حد عبّرُه. بس عارف يا حضرة الضابط، عادي يعني إنت يمكن عشان أول مرة تتحط في موقف شبه ده، أما إحنا كنيابة فمتعودين علي المواقف دي وياما شوفنا..

- أنا قصدي إن أول حاجة فكّر فيها إنه يبلّغ، مفكرش مثلًا إنه يستغل حالة التسيب اللي البلد فيها ويحاول يهرب بعمْلته..

- ما أنا لسه قايلك، إنت مستغرب بس عشان الموضوع جديد بالنسبالك لكن ده عادي، إصراره عادي، في النوع ده، وخصوصًا إن كانت جريمته مرتبطة بشرف أو بعرض..

- يعني هو قتل مراته عشان بتخونه..؟

- لسه هيبان، متسبقش الأحداث.

كانا على السلم، هذا بعد فشلهما في ركوب المصعد لتعطله مثل كل شيء في تلك الفترة. استدعوه من وحدته لتأمين وكيل نيابة سيحقق في جريمة قتل، هكذا قالوا له. لم يفهم في البداية، لكن بعد أن تأكد له ما كان يسمعه في وحدته من خلو البلاد من الشرطة وبعد أن رأى كثيرًا من الضباط والعساكر في الشوارع لتأمين المنشآت، عرف أن الجيش حاليًا يقوم بدور السلطة التنفيذية في البلاد.

لم يكن الأمر يستحق التأمين، فالبلاد كانت في طريقها للهدوء، وخصوصًا بعد خطاب التنحي لكنها التعليمات والحذر من أن يحدث شيء ليس في الحسبان.

تقابلا وعرّف كلا منهما نفسه للآخر.

- أحمد جاسر، معاون نيابة حديث الانضمام للسلك القضائي.

- أسامة رأفت ضابط جيش يحمل على كتفه ثلاث نجمات...

في الشقة مسرح الجريمة كان العمل يتم علي قدم وساق لمحو كل أثر للجريمة، عساكر شرطة وأمناء مبعثرون بأرجاء الشقة، ما من شيء إلا وطالته أيديهم للمسه والعبث به، ضابط شرطة يجلس علي أحد المقاعد يدخن كقاطرة وواضح من مطفأة السجائر التي أمامه أنه في المكان منذ فترة طويلة...

صالة واسعة ملحق بها ريسيبشن ومن شكل الأثاث ستعرف دون مجهود أن أصحابها ميسوري الحال لهم ذوق رفيع في إختيار قطع الأثاث وكذلك اللوحات المختلفة المثبتة على الجدران. صور كثيرة شخصية لمناسبات مختلفة تجْمع الزوجين أو كل علي حِدَة. وفي كل الصور لا تستطيع إلا قول أن الزوجين لا يشغلهما في الحياة غير الإستمتاع بها...

في منتصف الصالة تقريبا كانت الجثة علي أحد المقاعد مغطاة بملاءة..

عرفَهم ضابط الشرطة فقد كان علي علم بمجيئهما فقام من مكانه متقدما نحوهما مُعَرّفا نفسه إليهما قائلا

- رائد شرطة ياسر شوقي

يبدأ معاون النيابة الحديث مشيرا علي الأمناء والعساكر المتجولين في الشقة بمنتهي الأريحية قائلا

- أهلا بيك يا سيادة الرائد، إيه اللي بيحصل ده..؟!

يرتبك ضابط الشرطة ناظرا لأحد الأمناء المارين بتوعد قائلا

- الموضوع ميستحقش الحذر، القضية خلصانة، قتل مراته، ومعترف وبصماته علي السكّينة يا افندم..

يتلفت معاون النيابة حوله حتَّى يتيقن من عدم وجود القاتل فيسأل مستفسرا

- وهو فين..؟

- في أوضة المكتب بيكتب..

- مش فاهم، بيكتب إزاي يعنى..؟!

- أيوه يا افندم بيكتب، هو فتحلنا باب الشقة ومن لحظتها وهو في أوضة المكتب مش مبطّل كتابة..

- وإيه إنطباعك عنه يا حضرة الرائد..؟

يصمت ياسر شوقي رائد الشرطة برهة محدّقا في الفراغ ليجيب

- إنطباعي؟، إنطباعي إنه مجنون، مش طبيعي، جريمته بشعة، قطع صدر مراته وأكله وحط السكّينة في.. بص كده معاليك..

قالها رافعا الملاءة عن الجثة لتظهر عارية منزوع عنها الثياب مقطوع منها أجزاء من الثدي، مغروس بين فخذيها سكّين..

يشمئز ضابط الجيش فيتنحى جانبا مفرِغا كل ما في معدته..

يلتفت كل من في الصالة إليه، يبتسم كثير منهم في تهكم على ضابط الجيش الذي لا يتحمل رؤية الجثث فيتقدم نحوه معاون النيابة معطيا له منديلا ورقيا ليمسح به فمه قائلا له

- تقدر يا حضرة الضابط تخرج بره.

يضع أسامه يده علي معدته نافيا برأسه رغبته في الخروج قائلا

- أنا أصلا عندي برد في معدتي.

يعاود رائد الشرطة كلامه قائلا

- لمشكلة مش بس في بشاعة الجريمة، المشكلة في القاتل نفسه، هادي جدا، عنيه بتلمع، مقر لكل حاجة عملها ومبينكرهاش، هو غالبا حاول يخنقها وده باين أوي علي رقبتها لكنه تراجع، وده باين برده علي وش القتيلة وملامحها، نقل كرسي من كراسي السفرة لنص الصالة وكتّفها عليه وإبتدى يقطّع من جسمها وهيا صاحية، زي ما معاليك شايف كده منظر الجثة بيقول إنها ماتت من أقل من ساعة، جر ترابيزة السفرة لغاية مكان القتيلة وكأنه بيجبرها تقعد معاه علي السفرة وتشاركه الأكل، هو كان قاعد هنا، وهيا هنا في مكانها قصاده. عن نفسي

معرفش هل هيا اللي كتبت الكلام ده علي إزاز السفرة بدمّها ولاّ هو اللي مسك إيديها وخلاها كتبت السطرين دول...

ينتقل معاون النيابة من مواجهة الجثة ليصبح جوارها حتَّى يستطيع قراءة ما أشار إليه ضابط الشرطة، ينظر إلى القتيلة فيجد يديها اليسري محررة عكس الأخري وإصبعها مغموس في الدم وكأنها كانت تكتب شيئا..

" أرسم هذه العوالم وأعيش فيها كما أريد.. كل إختياراتي صحيحة لكنها مع الأسف خاطئة "

ذلك ما مكان مكتوب علي الزجاج، كلمات متقطعة، مكتوبه ببطء، تعمّد كاتبها غمس الإصبع أكثر من مرة لتظهر الكلمات واضحة...

يقطع رائد الشرطة تفكير معاون النيابة وتخيله ليكمل

- كل ده وهو هادي جدا، مبينطقش أخره يبص ويبتسم، رغم إني حاولت كتير أنطّقه. ده من شوية خرج من الأوضة، دخل المطبخ عمل لنفسه فنجان قهوة، ده بيتعامل مع الموضوع عادى جدا وكأن مفيش حاجة حصلت..!!

يتقدم ضابط الجيش ليغلق التلفاز الذي كان علي أحد القنوات الإخبارية الناقلة لأحداث الميدان والفرحة العارمة بالتنحى فيكمل رائد الشرطة حديثه مشيرا إلي التلفاز قائلا

- بالمناسبة كان مقفول وهو اللي فتحه وهو رايح علي أوضة المكتب، فتحه وعلّي الصوت علي الأخر وموقفش حتَّى قدامه دقيقة..!

يتقدم معاون النيابة إلي غرفة المكتب التي أشار إليها رائد الشرطة، فيتكلم ضابط الجيش المكلف بالتأمين قائلا بلهفة

- ممكن أدخل معاك..؟

يهز معاون النيابة كتفيه كناية عن تردده، فيحسم أمره مشيرا بيده بالموافقة والترحيب..

يدخل الإثنان غرفة المكتب، فلا يلتفت أليهما القاتل ولا يرفع عينيه عن الورق الذي يكتب فيه وكأنهما لم يدخلا من الأصل، فيتلفّت معاون النيابة في الغرفة ليتبين ما فيها..

غرفة واسعة، تضم مكتبة ضخمة، على أرففها كتب في جميع المجالات، تُعْطيك إنطباعا أن صاحبها مثقف مطلع. مكتب أنيق عليه أباجورة منارة رغم إضاءة الغرفة الكافية، كثير من الأوراق المبعثرة علي المكتب..

يأخذ معاون النيابة أحد الورقات مطلعا على ما فيها فيرى أنها مرقّمة مسلسلة تحوي بضع كلمات عرف من خلالها أن القاتل يكتب قصة ما..

ينظر معاون النيابة بتمعن إلي قاطن الغرفة الذي لا يعيرهما إنتباها فيبدأ بالكلام قائلا

- بتتكلم عن إيه القصة اللي إنت بتكتبها دي..؟

يتوقف القاتل عن الكتابة ثابتا دون أن يرفع رأسه وكأن الحياة قد فارقته، فيكمل معاون النيابة كلامه بسرعة لمّا تبيّن له أن الحديث عن القصة لفت إنتباهه

- أنا قريت صفحة، لقيتك بتتكلم عن واحد إسمه عليّ، ماشي في مسيرة رايحة الميدان، واضح إن القصة بتتكلم عن الثورة كده انا فهمت صح؟ ولا انا غلطان؟..

ببطء يضع القاتل القلم جانبا ليرفع رأسه ناظرا إلى معاون النيابة إلا أن وجود ضابط الجيش يجذب إنتباهه فيحدق في الثلاث نجمات التي على كتفه. فيكمل معاون النيابة قائلاً:

- ده النقيب أسامة، طبعا إنت عارف إن الشرطة سابت مكانها، وعشان كده هو معايا للتأمين..

يستمر المتهم في التحديق في ضابط الجيش وكأن الغرفة قد خلت من كل شيء إلا هو فيكمل معاون النيابة كلامه لما رأى الأهتمام باديا في وجه المتهم لضابط الجيش

- عن نفسي مش شايف إن الموضوع محتاج تأمين، خلاص البلد هديت والمجلس العسكري إستلمها، وكلها أيام والبلد هترجع زي ما كانت والبركة في الجيش. إنت قتلت مراتك ليه..؟

كان أحمد جاسر في تلك اللحظة يستدعي كل ما تعلّمه واكتسبه في كل الدورات التي أخذها عن كيفية التحقيق وسبر أغوار المتهم واستنطاقه. فلأول مرة يتم تكليفه بالعمل في قضية منفردا، لذلك كان مصرّا على استنطاق المتهم ومعرفة كل شيء.. مقولتليش ليه قتلت مراتك..؟ هي خانتك..؟

يحيد القاتل بنظره إلى معاون النيابة ناظرا إليه جليا على وجهه أمارات الغضب، قائلا بلهجة خفيضة بطيئة حازمة

- مراتي مش خاينة، عمرها ما كانت خاينة، ومتقولش كده تاني.

يتجاوز معاون النيابة عن لهجة المتهم الآمرة نظير عدم الرجوع لعالم صمته قائلا:

- خلاص مش هقول. أنا أسف. بس إنت برده لازم تقول ليه قتلتها؟، أي حد هيسمع إنك قتلت مراتك، أول هاتف هيجيله أنها خانتك، ولَا أيه؟.

- إنت إسمك إيه..؟

كان السؤال مباغتا موجها من المتهم إلي ضابط الجيش الذي لم ينبس بكلمة واحدة منذ لحظة دخوله..

ينظر ضابط الجيش لمعاون النيابة نظرة أن أشِرْ عليّ أأجيبه؟، فيشير إليه معاون النيابة بالرد

- إسمي أسامة، أسامة رأفت..

- التلت نجمات اللي علي كتفك بيقولوا إنك نقيب. كنت ملازم تاني، ملازم أول ودلوقتي نقيب. وطبعا إنت لا حاربت ولا قتلت، إنت دخلت الجيش زيك زي غيرك نفسك تحارب وتدافع عن بلدك، وتبقي بطل.. صح؟

- الدفاع عن البلد شرف، والموت في سبيل الوطن شهادة..

- كويس، حافظ كويس. بس إفرض إن بكره قامت الحرب ووقفت قدام عسكري من العدو، أكيد طبعا هتقتله؟، صح..؟

- طبعا هقتله، ده عدو!، ودي حرب، قاتل لمقتول.

- شعورك هيبقي إيه بقي يا حضرة الضابط وانت شايفه قدامك بيطلّع في الروح وخصوصا لمّا محفظته تقع من جيبه مفتوحة فتشوف إنت وهو صورة بنته اللي مش هيشوفها تاني عشان انت قتلته..؟

يصمت ضابط الجيش متوجها بنظره إلي معاون النيابة فيشجعه صمته على إستكمال النقاش قائلا

- هو أنا لسه متجوزتش، بس إفرض إني متجوز وقابلت نفس

العسكري اللي بتقول عليه وهو اللي قتلني، تفتكر بنتي مكنتش هتزعل عليا وهيا مش هتشوفني تاني..؟!

- أنا مسألتكش ليه قتلت، وعارف إن نفس العسكري لو قابلته بره الحرب أكيد مش هتقتله، ومش هيبقي قانوني إنك تقتله كمان. أنا بسأل عن شعورك وانت بتقتل يا حضرة الضابط..

- أكيد هبقي زعلان . في الأول والآخر دي روح..

- كداب..

يتكهرب الموقف فيحاول معاون النيابة إنهاء النقاش بالتدخل إلا أن ضابط الجيش يشير إليه بعدم التدخل مكملا الكلام قائلا

- وليه هكدب..؟!

- لأنك بتقولي انك هتبقي زعلان، إزاي هتكون زعلان؟!، إنت هتبقي فرحان، وهتدوّر علي غيره عشان تقتله، وغيره، عشان تبني حائط بطولاتك وتعلّيه وانت واقف علي جثثهم، هتحس بقوة غريبة، بنشوة وانت بتقتل، وانت بتشوف الدم خارج بقوة واندفاع هربان من عروق اللي بتقتلهم وهما بيترنحوا قدامك. ده إن مكنتش هتفرح لكل ده، فأكيد هتبقي فرحان لأنك نجيت من الموت، وده هيودينا لإحتمال تاني إنك كنت خايف تموت. خايف كنت تبقي إنت المقتول. يبقي وبإختصار شعورك ساعتها إما إنك تبقي فرحان إنك قتلت أو خايف إنك تتقتل، أما موضوع زعلان ده فمش حقيقي بالمرة. عرفت ليه قولت إنك كداب..؟

- في النهاية سواء كنت زعلان أو فرحان فاللي هقتله ده إسمه عدو، أمّا مراتك مكنتش عدو ليه قتلتها..؟!

- أنا لسه قايلك، إنت لو قابلت نفس العسكري بره الحرب أكيد مش هتقتله، ومش هيبقي قانوني إنك تقتله، يعني عدو إمبارح اللي كان واجب قتله وتاخد على قتله نيشان كمان، النهاردة بقى صديق محرّم عليك قتله، وقتْله بقي جريمة. الظروف هيا اللي بتحدد يا حضرة الضابط مش الرغبة..

- وإيه هيا الظروف اللي خلتك تقتل مراتك بالشكل ده..؟

- دول سؤالين مش سؤال واحد وأراهنك إنك حاليا ميهمكش ليه قتلت مراتي، علي أد ما يهمك تعرف ليه قتلتها بالشكل ده..

- في النهاية الإجابة علي أي سؤال منهم كافية، أصل لو عرفنا الدوافع اللي خلتك تقتل مراتك، هنعرف إيه اللي خلاك تقتلها بالشكل ده..

- غلط.. الدوافع اللي إنت عايز تعرفها واللي خلتني أقتلها ملهاش علاقة بطريقة القتل، أنا قتلتها بالسكينة عشان ده اللي كان متوفر قدامي يمكن لو كان في سم متاح كان ممكن أقتلها بيه، أما طريقة القتل فدي كلها تمت بالصدفة ومكنتش مقرر سيناريو معين أقتلها بيه، ممكن نسميه مثلا لحظة إنهيار..؟ ايه رأيك؟

- لحظة إنهيار!!، لحظة إنهيار تخليك تقطع صدر مراتك وتاكله..؟!

- هتفرق معاك بعد ما قتلتها إني أكلت من صدرها؟!

- أه طبعا تفرق، لأن بمزاجنا أو غصب عننا فجرايم القتل هتفضل موجودة، أما اللي إنت عملته ده فعلى الأقل خالص جديد على مجتمعنا

- آآه مجتمعنا!، يعني لو كنت قتلتها بطريقة مكررة كان ساعتها عادي المجتمع هيتقبّل ده..؟!

قالها ليعاود الصمت منكبا على الورق مرة أخرى ممسكا القلم ليكمل ما بدأه من كتابة فيتدخل معاون النيابة بعد صمت قائلا:

- ليه سكت..؟

لا يلتفت المتهم إلي سؤاله مستمرا في الكتابة..

يسشعر معاون النيابة بإستحالة معاودة المتهم للكلام فيقوم بجمع كل الورق الذي على المكتب ليعطيه لضابط الجيش قائلاً:

- سيبني معاه شوية، أستئذن معاليك تدي الورق ده لضابط الشرطة اللي بره عشان يحرّزه..

يخرج أسامة من الغرفة، إلا أنه ولسبب لم يدريه نادي على أحد العساكر الذين كانو قد أتوا معه من الوحدة معطيا له عشرة جنيهات قائلا له بهمس حتَّى لا يسمعه أحد

- هتنزل تحت بسرعة، في مكتبة تحت العمارة شوفتها وانا طالع، هتصوّر الورق ده وترجعلي، بس بسرعة إنت فاهم..؟

يعطيه العسكري التحية العسكرية مغادرا الشقة لتنفيذ ما أُمِرَ به.

لم يعرف أسامة لِمَا فعل ذلك، فكل ما كان يعرفه وقتها أن تلك الورقات التي أرسلها مع العسكري تحوي الكثير والكثير وأنه لا بدَّ عليه من قرائتها حتَّى يعرف لماذا قتل ذلك المأفون زوجته بتلك الطريقة...

****

لم أتوقع أني سأحصل عليها، لا لعيب في أو لانعدام ثقة، لكنها قناعة وإيمان أن الأحلام جميعها لا تُدْرك دفعة واحدة، وأنك مثلما تأخذ فلابد عليك أن تعطي، وكما قال لى أحد العساكر مرة بعدما أعطيته الأمان "الدنيا زى ما هترقصلك لازم في يوم ترقص عليك "...

منذ صغره لا يري نفسه إلا ضابطا بالقوات المسلحة. حلم كان يراوده بين الحين والحين وقد تحقق. لا يدرى كيف سيطر عليه ذلك الحلم، هل بسبب بدلة الضابط التي كانت تُلبسه أياها والدته كل عيد؟، أم بسبب خاله الذي خاض أكتوبر والذي ظل يحدثه عنها وعن بطولات جندها حتَّى تلخصت كل أمنياته في أمنية واحدة، أن يكن من الذين يخوضون الحرب فيحرروا الأرض فتؤلف لهم الأغانى ويخلد ذكرهم. سعادته البالغة وقلبه الذي كان يرقص فرحا يوم التحاقه لم يستطيعا حجب تلك الغصة التي كانت في قلبه، خوفه أن لا يناالها، قلقه من أنه قد آن الأوان لأن يدفع مقابل عطية القدر الذي جاد به عليه فلا يتحصل عليها، كان علي استعداد أن يتنازل عن حلمه الوحيد بالإلتحاق بالجيش فقط لتعرف أنه يحبها، فقط ليأت يوم تكون فيه زوجته فيحتويها بذراعيه شاكيا لها خوفه في الماضي من أن لا تكون له...

كان حلم البنات وأملهم وكانت هي حلمه ومبتغاه، يري الإعجاب جليّا في أعينهن وكانت عينه لا ترى إلاها. إلتحق بالقوات المسلحة. صارحها بحبه، نهرته لَمَا رأت فيه ذلك الشاب المتباهي ببزته العسكرية، لم ييأس، طاردها، ولّما إقتحم عليها هي ووالدها غذائهما في ذلك المطعم الشهير أعجبت بجرأته وإصراره، دق قلبها، بانت في عينيها تلك اللمعة التي لا تُخطئها عين محب. أُعجب به الأب ورأى فيه الرجل الذي يستطيع أن يودع إليه أمانته مطمئنا، فمريم لم تكن لوالدها ابنة بل كانت الدنيا بكل متاعها فهى ما تبقى له وبدونها لا تستوي الحياة ولا تستقيم. تقدّم إليها وتمت الموافقة، وها هما في انتظار يوم زواجهما...

- إتأخرت عليك يا حبيبي؟

تصنّع الغضب الذي يفشل دائمًا في صنعه أمامها قائلا

- مستنيكي بقالي نص ساعة وانتي شيفتك خلص برده من نص ساعة، ومتصل بيكي ومعّرفك إني مستنيكي، تقدري تقوليلي إتأخرتي ليه..؟

تفتح باب السيارة فتستقر جواره قائلة بابتسامة

- يابيبي بلاش المواعيد العسكرية دي، إنت هنا مش ظابط في وحدة إنت هنا حبيبي وبس..

ابتسم رغما عنه لمداعبتها قائلاً:

- بيبي! آه لو عسكري سِمْعك، إنتي أخرك هتبقي زي المجانين اللى بتعالجيهم جوه..

بدأت تحكي عن يومها وما لاقته، وأحاديث زميلاتها التي كانت لا تخلو عن الثورة والميدان والجيش الذي لاذ عنه، وكم هي فخورة بكون خطيبها فرد من ذلك الجيش الذي لا يطمح في حكم ولا يبتغي سلطة...

يحب الحماس الجلى وتلك الطفولة البادية في كلامها، يعشق ذلك الكف الرقيق الذي في راحتيه شرب شربة حب لم يظمأ بعدها أبدا، تلك الأصابع المنمقة الصغيرة التي تشير بهما في حماس، وكأنها طفلة تحكي عن لعبتها بشغف وحب. تلك العينين اللامعتين والتي فيهما لا ترى إلا الدفء والسكينة.

- إيه الورق ده..؟ قالتها ملتفتة للمقعد الخلفي جالبة إياه.

- أبدا.. رواية

- وهو أنت سيبت الجيش والبندقية وهتشتغل كاتب؟

حكي لها القصة كاملة وهي مشدوهة غير مصدقة ما يقصه لتجيبه وهي تتصفح الورق

- واضح إن أخر كام ورقة كتبهم بعد ما نفذ جريمة القتل فعلا، وواضح إنه إبتدي الرواية متزن وهاديء، لكن في النص التاني منها كان مضطرب..

- وعرفتي أزاى ده كله يا فالحة..؟

- باين أوي من شكل الخط..

قالتها وكأنها تقول شيئا عاديا إعتادت علي القيام به لتكمل

- إنت أخدت بالك من اسم الرواية..؟

- وهيا ليها إسم..؟

تنظر إلي عاتبة قائلة:

- شرودنجر.. إسم الرواية شرودنجر

- مكدبش عليكى قريته ومفهمتش حاجة، يطلع إيه شرودنجر..؟

- قصدك يطلع مين شرودنجر، ده عالم الماني زي أينشتين كده، مش عارفة ثانوية ايه اللى انت اخدتها دي؟!

يتغاضي عن تهكمها قائلا

- دي رواية علمية بقي..؟

- متستعجلش، هو أه شرودنجر عالم فيزيا وليه تجربة مشهورة إسمها تجربة "قط شرودنجر"، ورغم إن التجربة الظاهر بتاعها إنها تجربة علمية إلا إنها فلسفية أكتر منها حاجة تانية

- عليا النعمة أنا ما فاهم حاجة

أخذت تحدثه عن التجربة وعن ذلك القط الذي لا كان بحي ولا بميت قبل فتح الصندوق، ففهم من سياق حديثها أن التجربة تتحدث عن الإحتمالات وتساويها، وأن كل شيء يقبل الشئ ونقيضه ليقاطعها قائلا

- وإيه علاقة ده طيب برواية أدبية؟

ردت مستغربة:

- إزاي بس، العلاقة واضحة جدا بص على المعني الفلسفي للتجربة هتلاقي إن مفيش حاجة واضحة، واللي إنت شايفه حقيقة غيرك ممكن يكون شايفه زيف. ده حتَّى ممكن الحقيقة المطلقة هنا ممكن تكون في عالم تانى زيف، ركز يا أسامة..

- عالم تانى؟!

- أه عالم تانى موازي

قائلا في دهشة

- الروايات اللي أنتى بتقريها هتضيعلك دماغك

- المهم سيبك، أنا هاخد الورق ده، وعارفة إنك هترفض بس انا هاخده عشان بتحبني ومتحبنيش زعلانة..

يضحك بشدة قائلا

- بتعرفى تلوي دراعي، وعموما أنا مش عايزه، قبل ما أجيلك قريت منه كام ورقة مفهمتش حاجة خالص، شرودنجر أيه في الأيام السودا دي.

تغادر السيارة مسرعة قبل الرجوع في كلامه مودعة أياه قابضة على ورق الرواية في لهفة شديدة لتدخل مدخل العمارة التي تسكن بها...

كما هو حاله في مثل تلك الساعة، جالسا على كرسيه الهزاز، مستمعا للست كما يطلق على "أم كلثوم" حينما يتكلم عنها، يحتضن مذياعا توقف أنتاجه منذ

فترة طويلة، يدخن سيجارته، غير عابيء بما حوله وكأنه انفصل عن العالم بكل ما فيه..

- ضبطتك متلبس

يبتسم في حنان قائلا

- وبكده راحت عليا البوسة بتاعة كل يوم.

- لا هبوسك، بس لو شوفتك تانى بتدخن هتتحرم من البوس والأحضان لمدة أسبوع كامل.

قالتها منحنية لتطبع قبلة على خده مكملة

- يابابا السجاير، السجاير يابابا، الدكتور أخر مرة كان هيطردنا

- دكتور مبيفهمش، أنتي أصلا بتوديني لدكاترة صحابك عشان توفري حق الكشف.

تضحك بصوت مرتفع، متوجهة للمطبخ بعد أن وضعت حقيبتها وورق الرواية على طاولة الطعام قائلة

- وطبعا مأكلتش؟

- وهو الأكل يحلى إلا معاكى

- دقايق ويكون الأكل على السفرة

حاولت كثيرًا عدم التفكير فيما حكاه خطيبها إلا أنها فشلت، تسأل نفسها ألف سؤال ولا تجد أجابة لسؤال واحد منهم، كيف برجل المفروض أنه على قدر من الثقافة أن يفعل هذا بزوجته، بل كيف بأنسان أن يفعل هذا، الحيوان في أشرس صوره لا يقوم بتلك الفعلة، الحيرة تغزو عقلها بضراوة، تستبيح كل ركن فيه، الفضول يقتلها. أسرعت بالأنتهاء من تناول طعامها لتغادر مائدة الطعام إلى غرفتها.

- رايحة فين يا مريم مش هتقعدى معايا؟

- سامحنى بقى يا بابا، الورق ده لازم أخلصه، بص، أنت النهاردة تتدرب كويس، عشان مينفعش كل مره أغلبك.

- تغلبيني!، تصدقي أنا غلطان عشان بتغلبلك، أنا بس بشجعك.

يضحك الأثنان فتطبع مريم على خده قبلة قائلة

- مباخدش منك غير كلام، بس ده ميمنعش إنى برده تلميذتك في الطاولة.

تتركه مغادرة متوجهة لغرفتها مغلقة بابها عليها، بادئة القراءة لِتسْكت فضولها الذي جعل من عقلها سندان لا يكف عن الطرق عليه

****

"مقدمة ساذجة جدا"

معكم رفعت، روائي، يعمل بالصحافة. مثلي مثل غيري ومنّا كثير مِمن أجادوا الرقص وأتقنوا التطبيل وعزفوا على أوجاع المساكين، فعرفوا مِن أين تُؤكَلُ الكتف...

متزوج من أمنية، الرقيقة الحالمة. لن أكذب ولن أدّعي ما ليس في، فقد تزوّجْتها لكوْنها جارتي، كبُرَت أمامي ويفَعَت فعرفت عنها ما لم تعرفه عن نفسها، لذلك تزوجتها، لأخونها بعد ذلك...

لي من الإخوة سامح أكبرُه بعامين. ذلك العاشق المُتَعبّد في توهّمات الحياة. لم يفلح في شيء. حاول أن يكتب وكان دون المستوى، عارض لِيُسجن، خرج ليتشرنق. في النهاية تستطيعون القول وبِملء الفيه أنه فاشل...

تلك عائلتي. أما آخر أعمالي فهي التي بين أيديكم الآن. رواية بطلها روائي يشار له بالبنان واسمه عرفة الزاهد. صورة محسّنة من أخي سامح، مشهور لكنه نموذج مغاير للفشل، فبسبب طيبته الزائدة تخونه زوجته مع عليّ، ذلك الشاب الذي لا يفعل شيئا في حياته سوي التسلق على أكتاف عرفة وإشباع زوجته أماني...

لست ضد الخيانة ولا كارها لها فكما قالوا "اللي عنده معزة يربطها"، لكن هكذا الروايات، حبكة يقتات عليها الجميع هربا من عالم وواقع صنعوه برداءة،

فعليّ ستقتله أماني لمّا تعرف أنه قد قرر خِطبة سماح أخت عرفة، ليتخلص عرفة من كل الخائنين دفعة واحدة ويهنأ في النهاية

بحياته هو وأخته البريئة التي رحمها القدر وانتشلها من وحل الخيانة وقاذوراتها...

تلك روايتي،..

مُخان يُدْعى عرفة، تخونه زوجته أمانى مع تلميذه المتسلق علي، الذي سيتزوج سماح أخت عرفة. أرأيتم مثلي؟، لا أظن، ولا أعتقد أن هناك كاتب في عالم الإبداع بالكامل قصّ روايته لقرائه في سطرين ثم يأتي وبكل سذاجة ليقول.. الآن أتركم مع الرواية، لكني سأفعلها وسأقولها..

الأن أترككم مع الرواية...

****

الحب كما الجمال في جوهره
ليس اكتمالا ، بل تشوّها..
لأنه كما الخيانة
انحراف عن النمط المعياري..
كل الأشياء الجميلة تحمل في ثناياها
نوعاً من التشوه

" أماني "

من يصدق أنني الآن أخون عرفة!، لو كانوا يعلمون ما كانوا ليرقصوا في زفافنا. أتذكر الآن رقصاتهن وضحكاتهن البلهاء المصطنعة، أتذكرهن وأتذكر عين كل امرأة منهن كانت تحدق في زوج الأخرى. غمزاتهن للرجال في لحظة ظنن أن أحدا لن يراهن، أتذكر المرأة التي كانت تدفع بنتها دفعا حتَّى ترقص مرخية بيدها حمالة فستانها السواريه المستأجر فيري الشباب الطريق الغائر بين نهديها والذي وجب أن تمشيه الألسنة والشفاه فترى بقية الأمهات صدر إبنتها أنه قد طاب وأنه قد آن أوان قطفه، أتذكرها وأتذكره هو.. عرفة، ذلك المسكين ووجهه الباسم حينها ورأسه التي أراحها علي كتفي لحظة رقصتنا وكأنه يشكوني طول رحلته وعنائه حتَّى ينالني ويتحصل عليّ، أتذكر ذراعيه حينما حملني بيده كما ابنته ليلف بي في رقصتنا، أتذكر نفْسي حينما إستشعرت سخونة جسده وقوة بنيانه فرغبت فيه ووددته أن يحملني لذلك الفراش الذي يرقد عليه الآن جواري نائما على بطنه كطفل أضناه اللعب فنام مكانه كما الأموات. له كل الحق أن يرقد هكذا فما فعله بالأمس جعله الآن لا يقوى علي حمل كوب ماء بين أصابعه، كان كما المصارع في حلبة الثيران والذى لا مفر من قتله، يحارب لا لينتصر لكن ليفوز بدقائق أخرى يبقي فيها حيا، ما من أنملة من جسدي إلا وقد حاول غزوها

لتعلن أستسلامها فيستعمرها ليرفع عليها راية مجده مقيما عليها نظامه، زارعا فيها وفي نبتته. فعل ما في وسعه

ووسعه لم يرضيني...

أريد إيقاظه وإخباره أني أخونه وأنه ورغم محاولات إحتلال جسدي إلا أنه كان كمن يحرث في البحر فجسدي لا ولن يدين له بالولاء متي حيا ومتي رغب، أريده أن يعلم أن في كل مرة تخشبت فيها واصلة إلي ذروتي وصعقت جسدي رعشات النشوى كان الفضل فيه يعود إليّ لأني تخيلته حبيبي. ولما إستعصى عليّ تخيله إستحضرت آخر ليلة ختته فيها. أريد أن أوقظه فأصرخ فيه ليعلم أن ما يقذفه بين ساقي مثله مثل ماء المالح لا يروي ولا يُشبع وأن ما رآه من شبع وارتواء كان لأني أستحضرت يد حبيبي وشفتيه واعتصاره لصدري وحك أصابعه بفرجي فكان ذلك التخشب. أريد أن أوقظه فأخبره أني أخونه، لكني أعرف أنه أبدا لن يصدقني...

تململ في بطء، فتح عينيه فرآني أحدق في وجهه، سارعته بحديث يملؤه الحزم، أخبرته أني أخونه فكانت إبتسامته المستفزة التي قرنها بمدة يده ليقربني إلي صدره قائلا.. " نامي يا أماني، نامى واتغطي كويس عشان متحلميش أحلام بايخة، وبكرة نشوف موضوع الخيانة دا مع بعض"...

فلتهنأ يا من كنت حبيبي ولتقر عينك بنومة دائمة. فلا لوم ولا عتب، فقد أخبرتك، إلا أنك غبي لا تصدق أن الذين مثلي خُلقن لكي يخن...

لست بخائنة ولم أحسب نفسي يوما خائنة وعلي من يريد اتهامى بذلك مُسمعا إياي جملا من عينة كل الناس بيحسدوكي على جوزك.. إنتي بترفسي النعمة.. أن يحيا مكاني ولو ليلة واحدة ويريني هل سيصمد؟، حتَّى وإن صمد.. فأنا لم ولن أصمد فانا لست براهبة، أنا أنثى، وأريد رجلا يعاملني علي مثل هذا، يا سادة زوجي أدبه جم حتَّى في الفراش لا يكترث أبدا لأنفاسي الضعيفه الهادئة المستقرة وهو يعتليني، درعه لا يصد معاركا وسيفه صديء لا يهدر دما. خيوله عرجاء لا تصول ولا تجول، صماء لا تصهل في روحي فتتردد في ثنايا جسدي، ألم يسأل نفسه مرة أين آهاتي التي أحن إليها والتي لم تخرج يوما في فراشه، حتَّى الكلمات التي يجب أن تكون مثل الأجساد في ذلك الموقف عارية لا يُسمعْني إياها، زوجي ينكح جسدي أما روحي فما زالت كما جاءته أول مرة بكر ليست برشيد. يا سادة زوجي لو رأى وجهي يئن أنة النشوى يتأسف ويعتذر لأنه قد آلمني، أي زوج هذا وأي جنس يسبقه لو سمحت ويتخلله أسف ويليه شكرا...؟!

أعلم أن الكثيرات تحسدنني على عيشتي وزوجي الروائي المشهور الذي يتردد اسمه في المحافل والبرامج وعلى الأفيشات. وأعلم أيضًا أن الظاهر للجميع أن لا شيئا ينقصني وأن ما أبعثره في يوم يكفي عائلة في بضعة أشهر. لكن هل فكر أحدكم في أماني، هل فكر أحدكم كيف يمر الليل عليَ؟ الملل يأكل على ظهري حتَّى ترهلت أطرافه وبانت سمنته، فزوجي إما يقرأ، أو يكتب، أو هائما

شاردا في عوالم رواياته. تمر عليّه الأيام دون أن أسمع صوته. صمت مطبق كما الصحراء، وحتي لو تحدث فصوته خفيض خافت رتيب خالٍ من الروح كصوت تلك المملة التي دائمًا وأبدا ما تخبرني أن هاتفه مغلق هذا لو أردتُ أن أشعر أن لي رجلا من حقي أن أسمع صوته. تتهمونني بالخيانة؟! ومن الذي جاء بـ عليّ إلى حدود قلبي، من الذي سمح له أن يغزوني ويُغير على قلاعي الهشة ويطأ جسدي بسنابك خيله، أليس هو؟!، لِمَ لمْ يصد عن قلبي حراب عينيه وسهامها؟، أين كانت عينه وذلك الشغف ظاهرا جليا في عينيّ وأنا أنظر إلي عليّ، ألم يستشعر تلك الرغبة التي كانت بين ثنايا صوتي وأنا أنطق إسمه، أين كان عقله وهو يقدمه ليّ، ألم يفكر ولو لوهلة أن في عليّ كل ما ينقصه. أنا لا أبرر الخيانة لكني لست من الزهاد، فأنا امرأة تعرف تلك النظرة التي نظر بها إليّ عليّ جيدا، تلك النظرة التي أثبتت لي أني قد إحتللت قلبه وأنه يريدني، تلك النظرة التي لم ينظر بها إليّ زوجي أبدا...

زوجي لا يستحق هذا، لكني أيضًا مثله لا أستحقه. لا أستحق زوجي، ولا أستحق ما فعله بي، ولا أستحق ما أنا فيه الآن، ولا دِعة لي في ما أنا فيه، أنا امرأة غجرية الروح لا اؤمن إلا بجسدي، أنا لا أستحق شيئا، لا أستحق إلا عليّ، فهو مثلي وأنا مثله، فكلانا قد أكل على نفس المائدة، كلانا لا يؤمن ألا بالجسد. أنا خنت زوجي، وهو خان صاحبه، كلانا خائن، كلانا لا يستحق إلا بعضنا بعضا. فلمَ أنتم غاضبون...؟

" عرفة "

أنا أعقل من هذا بكثير . لا داعي أبدا أن يُنصّب كل منكم نفسه طبيبا ومحللا نفسيا. فأنا لا أقف في وجه الدولة ولا أعاديها وأعي تماما حجم ما أنا مقبل عليه من جحيم، هذا إن نُفِذ تهديد واحد من وعيدهم. أكاد أشم رائحة ما سيحدث غدا، سيمنع عرفة الزاهد من اللقاءات والبرامج، سيصمت هاتفه الذي كان لا ينقطع رنينه ناقلا رغبات المعدّين ورجاءاتهم لطلب اللقاءات والمداخلات، سيصبح محرم عليّ الجلوس على مقعد ضيف أمام مذيع سخيف جاهل في استوديو يديره شخص ما زالت أثار الباريه جلية واضحة علي جبهته وهذا بادئ ذي بدء، وإذْ لم أتعظ فسيزيد الخناق وسيضيق أكثر ويأتي أمر غير مكتوب لكل دور النشر والصحف بمنع التعامل معي، سأصبح كمن أصابه مرض معد يخشى الجميع الأقتراب منه والمساس، وإذا لم أتعظ ففي النهاية التهم جاهزة ومفصّلة وما أكثرها، ما زلت أذكر صديقي الذي أتهموه بخدش حياء الحياة، هكذا كانت التهمة بالله والتي علي أثرها حكم عليه بالسجن بضع سنين...

لا أريد شيئا، ولا أطلب المستحيل. العرَض ينبئ بسرطان خبيث يسري في أواصل المجتمع فكيف لي أن أصنفه علي أنه وعكة برد، ليست هكذا تورد الإبل!.

لم أعد قادرا علي الإستمرار في البحث عن مبررات للخيانة لألبسها ثوب الوطنية. الوطن يعج بالقبح وسُوس الفساد ينخر عظامه. لما لا أقولها ببساطة وبصوت عالٍ الخيانة خيانة. ودَدْتُ أن أخذ أختي سماح وأماني زوجتي فأترك تلك البلاد وأهج إلي بلاد أخري تحترم عقلي وإنسانيتي وتتيقن أن حرية الإبداع هي الملاذ الوحيد لصلاح المجتمع وتقدمه...

أنا لا أخشى على نفسي إنى أخاف عليهن...

سماح.. تلك الجميلة الرقيقة الصغيرة الحالمة، الآن كبرت وصارت تهوى وتعشق. هي لا تعلم أني أعلم، لكن تَحَمّرُ وجنتيها والحنين واللهفة البادية في عينيها كلما رأت عليّ يفضح أمرها وينبئني أنها تهواه. وعليّ هو الأخر يهواها، يحاول أن يُقنعني أن تلك صداقة لكنه لا يعرف أني أعرف أن هناك قصة حب تحت أرض هذه الصداقة سرعان ما ستنمو فتخرج للنور فروع وثمر...

عليّ يهواها يظهر هذا في سؤاله الدائم عنها وإختراع الأحاديث حتَّى يأتي ذكرها. شاب طموح لكني أخشى عليه من طموحه الجامح. أتمنى أن يكن عنفوان شبابه سبب ما هو فيه من تطلُع وتقدر الأيام على ما فشلْت فيه فتهدئ من رغبته الدائمة في تملك الدنيا بين راحتيه، صغير أهوج لا يعلم أن الدنيا كما الماء ما إن تُطبق عليها قبضتك وتظن أنك سيطرت وتملّكت ألا وتتسرب وتفرط من بين يديك. لو كانت الأيام غير الأيام ما كنت أوافق أبدا ولا أرضى به زوجا لها، لكني أخشى أن يأت يوم عليها تصبح فيه وحيدة، أخشى عليها من موتي

وانسحابي الإجباري فسماح لا تقدر أبدا علي المواجهة بمفردها وهذا ما سيجعلني أوافق على عليّ وشفيعي في ذلك أنها تحبه وهو يهواها أما لو كانت ظروفي غير تلك الظروف ما كنت أقبله زوجا لها فهو كما أماني زوجتي نسي أن للقلب وظيفة أخري غير ضخ الدم...

أماني.. فتاة الجامعة والتي تهافت عليها الكثيرين. فقد كان سعيد الحظ وأمه قد دعت له ساعة إستجابة فرَضَت عنه أماني فجالسته وحادثته. أماني "كتالوج الستات" كما أطلق عليها أحد الزملاء وقتها، كنت أراها فأخشى أن يسمع أحدهم دقات قلبي إن إقترب مني، أضع يدي علي قلبي رغما عني حتَّى لا يفارق ضلوعي مهرولا إليها، كانت كما الجنة وكنت كما العابد المتيم المرجو لها، ورغم حبي لها وتتيمي بها لم أقرب منها أبدا بل كنت دائم التجاهل لها والإبتعاد، أعرفها جيدا، لا تحب ولا تكره، متسلطة أحيانا متعالية دائما. من عائلةٍ خرجت من العهد الناصري مؤممة لتفشل أن تلحق بركْب الإنفتاح الساداتي، لا تملك من الغنى إلا المظهر والأسلوب. وأنا كنت من عائلة ميسورة الحال، باع أبى ما ورثه عن أبيه وجاء إلى القاهرة لنصبح من سكانها وزاد على هذا شهرتي التي إكتسبتها بعد تخرجى عندما قمت بنشر أول رواية لي وصرت أكثر ذيوعا بين الناس بعد الثانية، لهذا وافقت لمّا تقدمت لها. كنت أعلم أنها لا تحبني لكنها أيضًا لا تكرهني. تقدمت إليها متمنيا أن يأت اليوم الذي تحبني فيه وإن لم يأت فيكفيني أن تتركني أحبها. وللحق تركتني وللحق ما زلت في إنتظار ذلك اليوم...

" سماح "

- تفتكري عرفة هيوافق علي جوازنا؟

- وليه ميوافقش يا عليّ؟

- مش عارف، حاسس إنه ممكن يفهمني غلط، إحتمال مثلا يقول إني طمعان فيه..

- وهو أنت مش طمعان؟

- طمعان يعنى أيه؟!

ضاحكة بسخرية قائلة عبر الهاتف

- مالك قفشت ليه كده، أنا قصدي طمعان إنك تتجوز أخته اللي بتحبها، ومتخفش عرفة مش كده خالص، والحاجات دي بره تفكيره تماما، عرفة كل اللي يهمه إني أكون مبسوطة وطالما إنت بتحبني يبقي أكيد هيوافق..

- هو أنا بحبك بس! أنا بعشقك ومستني اليوم اللي تكوني فيه مراتي

تضحك أكثر فيسألها مرتبكا

- إيه اللي بيضحك في كده؟ آه مستني اليوم اللي تكوني فيه مراتي.

- بياع كلام يا علي حتَّى وانت بتحب مش عايز تنسى شغلتك، يا ويلك مني لمّا نتجوز، إوعى تكون فاكر إنك هتعرف تضحك عليا، أنا يا حبيبي فاهماك أكتر من نفسك وعارفة كل اللى أنت متعرفوش عنها واخد بالك..

- قصدك أيه؟

- لا قصدي ولا حاجة، بهزر معاك يا روحي. ومتخفش عرفة هيوافق عشان أنا موافقة..

- تفتكري؟ بس أنا برده خايف إن حد يأثّر عليه..

- حد زي مين؟ أماني تقصد؟

بأرتباك فشل أن يخفيه:

- مثلا

- وليه أماني تأثر عليه وتقنعه بالرفض؟ هو إنت مزعّلْها في حاجة؟

يزداد إرتباكه فيحاول مداراته بسعاله قائلا

- وأنا هزعّلْها ليه؟، وإيه بيني وبينها يخليها تزعل منّي أصلا؟

إستمر الحديث علي هذا النحو تضغطُ هي فيرتبك هو، ترمي شباكها فتصطاده لتُفْرِجَ عنه طالقةً سراح عقله لتعاود إصطياده لِتُظْهِرَ قلقه حتَّى ملّتْ رتابة إرتباكه فقررت إنهاء المكالمة ليغلق كل منهما في النهاية هاتفه...

جميعهم يتقربن إليّ لأني أخت عرفة الزاهد، حتَّى أنت يا عليّ. ما من أحد تقرب لأجلي، الجميع يحاول مع أخت الروائي المشهور حديث الإذاعات والقنوات علّه يفتح لأحدهم بابا مغلقا وإن لم تكن أمامهم أبوابا موصدة فيكفي ما ورثته عن أبي وما سأرثه عن أخي العقيم. وهكذا عليٌّ فهو مثلهم. الفارق

الوحيد أني أحببته، ولأصدقكم القول فأنا لا أحبه بل أحب خضوعه، أخشي أن أقول وهو يحبني فيكذِبُني قلبي، فعليّ ومن مثله لم يعرفوا الحب قط...

قبل أن يظهر كنت قد قررت أن لا أرتبط وأن لا أتزوج فما لاقيته وعايشته بقليل. فأنا ممّن يطلقون عليهم أبناء الصمت والقسوة. لا أتذكر أن أبي حادثني مرة، لا أذكر من وجهه إلا عبوسه وتجهمه، حتَّى أمي لا أذكر منها إلا أوامرها ووسائل عقابها المبتكرة دائما، ما زال وجهي للأن يئن من لسعات يدها ولطماتها، إعتدت الأماكن المغلقة المظلمة وألفتها بسبب حبسها لي، كنت أهرول علي أبي كأي طفلة تلتمس الحماية من ملاذها الوحيد فيدفعني بيده وأحيانا بقدمه هذا بعد أن يصفعني لأني لم أمتثل لأوامر أمي حينما حذرتني أن لا ألعب بصوت عال...!

كل شيء خُلِق ليجرح، ليكسر، كل شيء خُلِق ليشوه ويترك فينا ندبا لا يلتئم. أب يري فظاظته تربية وواجب مقدس، أم تعتنق مذهب كسر الضلع لينمو ضلعين غيره. مجتمع فيه رجاله لا ينظرون للأنثي إلا علي نصفها الأسفل. مجتمع جسد الأنثى فيه خطيئة لابدَّ أن تخجل منه وتواريه. مازلت أذكر ذلك الأشيب الذي مد يده في غفلة مني فمسك صدري. الغريب أن وجهه ساعتها لم يحمل أيا من تعبيرات الخجل أو حتَّى الإجرام، بل كان بشوشا طيبا وكأن ما يفعله هو الشئ العادي جدا وكأنه حقه الذي إعتاد على ممارسته وأخذه. كرهت جسدي، فعلتُ ما في وسعي لأثبت للجميع تبرؤي من أنوثتي التي لا ذنب لي فيها، ولهذا أيضًا كرهت الرجال.. كل الرجال.. حتَّى عليّ أكرهه أحيانا، رغم أني أشعر معه

بحنين الأب الذي إفتقدته، ضبطت نفسي متلبسة مرة برغبة منى أن أترك مقعدي لأجلس علي حجره فيداعب شعري ناصتا لهمومي، كانت رغبة محرجة بحق . ولهذا أحبه بعض الوقت، فقد وجدت فيه ما افتقدته في أبي إلا أني حينما أتركه أتذكر خيانته لأخي، فأعاود كرهه...

كلهم حفنة أوغاد حتَّى عليّ، وحتي وإن كنت أحبه فأنا لا أحب فيه إلا خنوعه وخضوعه ونفسه الدنيّه، سأتزوجه لأغلق عليه باب خيانته لأخي الذي لا يستحق هذا . سأتزوجه وأنا علي يقين أنه سيأتي وقت فأكرهه فيه كلية، سأتزوجه حتَّى أكرهه وأمل فيه جلسته تحت قدماي كما الكلب الأليف، ساعتها سأريه الجحيم المستعر الذي عشت فيه حياتي. ومهما حدث فأنا لن أخسر شيئا فالشاة لا يضيرها سلخ بعد ذبح...؟!

أعرف أن أماني تخون عرفة مع عليّ فأنا لست ساذجة كأخي، أنا علي علم تام بعلاقتهما المحرمة، جليٌ جدا وواضح ما بينهما فهذا لا يخفي ألا على عرفة، كانا في البداية حذريْن، يسرقان نظرة أو إبتسامة في غفلة ممن أراد أن يغفل . إلا أنه ومع الوقت وبسبب طيبة أخى وثقته المفرطة إعتادا الخيانة وألفاها وصارت لهما كما الهواء الذي يتنفسانه، فكرت وودْت كثيرًا أن أُخبر أخي، لكني أعرف أنه لن يصدقني، كيف يصدق من عاش عمره في ضلالة أنه كان يسجد لصنم، وحتي وإن صدّق فالإنتحار أو الجنون سيكون رد فعله الوحيد . هذا أخي وأنا أعرفه

جيدا. ومهما داري وتجمّل فالجرح في قلبه هو الأخر محفور . فقد عاش ما عشته فكبر هشا رَخْوا غير قادر علي صمود أمام رياح الحياة وعواصفها...

لا تقلق يا على، سأتزوجك حتَّى يرتاح أخي ويهنأ بالخائنة الأخري، سأتزوج منه لأني علي علمٍ أني إذا حدقت في هاوية فإنها سوف تحدق في وتجذبني لذلك سأتزوجه ويا ويله مني لو إستمر علي خيانته. سأعطيه فرصة واحدة وإن لم يستغلها فسأجعله من الذين ماتوا وهم أحياء يرزقون . إنتظروا كروت الدعوات فسماح بنت الحسب والنسب والمال سيقترن إسمها بإسم ذاك الخائن الذي لا أصل له ولا ذكر...

لم تشعر بنفسها وهي تبحث عن رقم أخيها في سجل مكالماتها لتستدعيه، لم تفق ألا على صوت أخيها ينادي بأسمها، هنا فقط رجعت من عالم شرودها لتجيبه قائلة

- أيوه يا أبيه كنت بتصل بيك عشان أقولك أنى موافقة على الموضوع اللى قولتلى عليه

- فكرتى كويس ياسماح؟

- أيوه يا أبيه فكرت كويس

يصمت للحظات فيعاود قائلا بصوت يملؤه الدفء

- مالك يا سماح صوتك مش عاجبنى خالص، فيكي إيه؟

- ابدا يا أبيه مفيش والله، يمكن عشان لسه صاحية؟

- ماشي يا حبيبتي، يعني خلاص أبلّغ عليّ بالموافقة؟

- اللي تشوفه يا أبيه .

- اللي أشوفه برده؟!

يضحك عرفة فتتصنع الضحك ليكمل كلامه قائلا

- اللي فيه الخير يقدمه ربنا يا حبيبتي، ألف مبروك

****

"علي"

- ها يا عليّ إيه الأخبار؟

يقف عليّ وكأن عقرب قد لدغه قائلا

- كله تمام يا أستاذ عرفة..

يشير عليه عرفة بالجلوس قائلا

- إشتركت برده في 6 إبريل زي ما قولت؟

- أه إشتركت وياريت حضرتك كمان تشترك

يضحك عرفة حتَّى تظهر نواجذه قائلا

- والله يا عليّ أنا مبقيت فاهملك نظام، شوية إسلامي، شوية ناصري، شوية حزب وطني وأديك النهاردة ٦ إبريل. يابني إثبت في حتة، إنت مين في دول، تبع مين، مع مين علي مين؟

- يا أستاذ عرفة زي ماالعمر بيتقدم برده الأفكار بتتقدم وبتتطور..

- لا ياااراجل علي مين الكلام ده؟، الكلام ده تكتبه في مقال، تقوله لحد غيري، أما أنا فانا فاهمك كويس، إنت طول عمرك حزب وطني ولما لقيت الأخوان خطفولهم شوية كراسي في المجلس مش بطالين الدورة اللي فاتت، جريت ومشيت وراهم، ولّما إتئلشوا المرادي والنظام قفّلْها لنفسه نقلت العطا علي ٦ إبريل ويا عالم مش بعيد بكرة ألقاك في المجلس القومي لحقوق المرأة..

يضحك الإثنان ليُكْمِل عرفة كلامه قائلا

- بس خد بالك المقالات اللي إنت كنت بتكتبها متتناسبش خاالص مع المرحلة الجديدة اللي إنت فيها، سياسة مسك العصاية من النص مش هتأكلك عيش أسمع منى، إنت لازم تكتب كام مقال من اللي همّا عشان ييجي اليوم اللي نباركلك فيه لما نلاقيك المنسق العام.. مش برده أسمه المنسق العام..؟

- بمناسبة المقالات، أنا مبعتش مقال حضرتك

ينظر عرفة في ساعته فيعلم أن الوقت قد أَزَف على تسليم مقاله، فيكفهر وجهه قائلا

- ليه مبعتوش؟!

يتلعثم عليّ مجيبا

- ده مقال يجيب مشاكل كتير حضرتك في غني عنها، ده غير إنه كده كده مكنش هيتنشر ولا هياخد موافقة

- برده يا عليّ كنت تبعته، وبلاش يا عليّ ممارسة دور الرقيب ده عليا، مش هتبقي إنت ومدير التحرير

- يا أستاذ عرفة أصل..

- لا أصل ولا فصل إنت سمعتني كويس؟

- أيوه سمعت حضرتك

- يبقي خلاص بعد إذنك الموقف ده ميتكررش تاني

- اللي تشوفه حضرتك

يغادر عرفة مكتب عليّ تاركا إياه في بحر أفكاره فدائما وأبدا ما كان يخجل من ذكر إسمه كاملا خشية أن يعرفه أحد. فهو إبن أحد المتشيعيين الذي ذاع صيتهم في الأونة الأخيرة وإرتبط إسمه بحادثة شنيعة تردد صداها في الصحف والقنوات حين قام أهل القرية بسحله في كل طرقها وحواريها هذا قبل أن يضرموا النار في جسده...

يتذكر أباه الذي سافر إلي أحدي دول الخليج ليأتيه من هناك شيعي المذهب والهوي. لم يزد عليه شيء سوي أنه إقتني بضعاً من كتب لم يفتحها يوما ليقرأ ما فيها كما أن بيته صار ملتقي لمن هم مثله...

في البداية كان الأمر يتم سرا، ورويدا رويدا جهر أبي بما كان يسره ويخفيه بل صار يدعو للمذهب الذي يعتنقه. وفي يوم جمعه إعتلي أحدهم المنبر وهو يعلم أن أربح تجارة هي الإتجار بالدين وأنه إذا أراد التحكم بجاهل فليس عليه سوي أن يغلّف كلامه بغلاف ديني ويربطه بربطةً عقائديه. أفتي بأن أبي ومن مثله صاروا من المفسدين في الأرض وأن دمه أصبح مهدرا. فانتقلت الجحافل تزوُدًا بكل ما لديهم من إيمان زائف إلي الغزوة المباركة، اقتحموا علينا بيتنا، أخذوا أبي الذي تصادف وجود شخصين معه. أخذوهم ليوسعوهم ضربا ساحلين إياهم بكل شوارع القرية وأزقتها مكبرين مهللين وكأن القدس قد فُتِحت علي أيديهم...

رأيت الفلاتي والمدمن والذي لم أره يوما يرتاد مسجدا، رأيت نباش القبور والمتهم بأغتصاب طفلة، رأيت الذي طرد أمه من بيته بحجة أن زوجته لا تريدها. رأيت كل هؤلاء وغيرهم يوسعون أبي ضربا متهمين إياه بالكفر. فجأة صار أبي أشد خطرا علي الإسلام من اليهود والنصاري علي حسب كلام خطيب المسجد وقد وجب قطع يديه وأرجله من خلاف حتَّى ينال جزاء المُفسد ويصير عبرة لمن أراد العبث بالدين...

أبي الذي كان لا يحسن الوضوء صار خطرا علي الدين!. لم يفعل شيئا سوى أنه إعتقد أن بتشيعه يكفر عن ذنبه، يغتسل غسولا طهورا من جنابة خطيئته، وهم لم يفعلوا شيئا سوى أنهم رؤوا فيه أنه سبيل للإيمان، سهل لا خسارة فيه ولا نقصان، أنتصروا لدينهم الذي لا يعرفون عنه شيئا وهم أبعد ما يكونوا عنه فقتلوه...

أنا عليّ. الذي رأي أباه أمامه يُضرب، يُسحل ويُحرق. أنا إبن الكافر الذي صار خطرا علي الدين ولزامٌ علي القطيع قتله. أنا الذي صار إسم أبوه سبَة لا يمحوها الزمن ولا يداريها. أنا من ضيعت القدس، أنا من جلبت لهم الجهل والمرض والفقر في قرطاس، أنا من وجب عليه الثورة حتَّى ينصلح حال البلاد...

نشأت في بيت خالي وكذب من قال أن الخال والد فكل شيء فجأة أصبح بنظام وبتدابير إحترازيه. كل شيء بإذن وبموافقه حتَّى دخول الحمام، ليس من حقي شيء وليس لي في أمري شيء. إن أردت، فعلي أبناء خالي أن تكن لهم نفس

الإرادة حتَّى أستطيع أن أنال بقايا الفتات. فرحت لمّا تزوجت أمي، فقد وجدتها فرصة سانحة لأغادر بيت خالي فأقصي الأمال لا تولد إلا من رحم الشقاء، إلا أني إكتشفت أن زوج أمي قد إشترط أن تأته خالية وبهذا خسرت بصيص الرحمة الذي كان يأتيني في أحلك الأيام

ظلمة وأشدها شقاء...

كبرت لأدخل كلية الإعلام حاملا معي كل ترديات الحياة وبؤسها الممزوج بالفقر والذي حاولت كثيرًا مدارته إلا أن رائحته كانت تعصانى عمدا...

كبُرت وكبُرت معي سوأتي التي لا ذنب لي فيها، والتى صارت علي ظهري كما القتب، يراها الجميع دون تمحيص أو جهد. إعتزلتُ الجميع وارتدت المساجد بل أقمت فيها واعتكفت حتَّى يروني أكفّر عن ذنب لست مرتكبه. إنضممت للجماعات الإسلاميه وصرت من الذين يُكفِّرون أينما يسيرون. صرت من الذين يملكون صكوك الغفران والجنة. وتبعني البعض في جهل ناسين أن من يعدهم الجنه ويمنحهم صكها ما هو إلا وغد فتح لهم باب طريق النار...

نسي الجميع أبي وأصبحت العالم الذي خلق من ظهر الفاسد ليتم إعتقالي بعد ذلك سريعا. لم أمكث في السجن طويلًا بل لم أدخله من الأصل فالأمر لم يكن ليستحق ذلك. فمن أول ضربة عصا ولسعة كهرباء أعلنت ولائي مقدما وخدماتي أيضًا...

أنضممت لزمرة من يكتبون التقارير في زملائهم وكما أمتلكت صكوك الجنة إمتلكت صكوك النار. كم من مرة تسببت في إعتقال أحدهم . كنت أشعر بنشوة وغبطة لم تأتينى مسبقا وأنا أري الإنكسار في عين زميل أُعتقل بسبب تقريري فيه فخرج بعدها باهتا باحثا عن جدار يسير فيه لا جانبه. رأيت نفسي إلها يمنح المغفرة والعذاب المتمثل في الإعتقال، تغاضيت كثيراً عن أعمال بعضهم والتي كانت فعلا تستحق الإبلاغ لأمنح نفسي شعورا بأني قد عفوت عن أحدهم . عرفت حينها أن من يرضي عنه النظام ترضي عنه الحياة، أشاروا لي علي الكتف وأفهموني من أين يؤكل، ففهمت ووعيت الدرس جيدا وأكلت علي كل موائدهم. وكمكافأة أخر الخدمه عينوني بعد تخرجي بأحد الجرائد القومية لأصبح لهم عينا تري وأذنا تسمع وأنف تشم كما الكلب إن أرادوا. ترقّيت سريعا ليس بفضل منهم بل بسبب مجهودي المضني ومهاراتي في التملق والتسلق ومسح الجوخ . تعلمت أن ذلك المجتمع وإن أردت العيش فيه فيجب عليك أن تنسي كل القيم والمبادئ وإن لم تستطع نسيانهم فعليك إستغلالهم لصالحك. عليك أن تعي أن كل من حولك هم فقط حولك لتتسلق عليهم. وكان أول من تسلقت عليه هو عرفه الزاهد الذي إحتواني وعرفني قبل حتَّى أن أحدثه عن نفسي. تبنّاني وقربني منه رغم أن فارق السن ليس بكثير . حاول معي كثيرًا إلا أن محاولاته كلها كانت كغثاء سيل لا تغني ولا تسمن من جوع فالنفس كانت قد ماتت والعفن كان قد تملك منها. طاوعْته وسايرته وصرت له كالجرو، لا أسير مطلقا

بمحاذاته، دائمًا خلفه أتحسس خطاه رغم سعيه الدؤوب لأن أكن غير هذا، ساذج لم يكن يعلم أني فقط أنتظر الفرصة والتي أتتنى مهيأة في زوجته أمانى . أماني التي قابلتها أول مرة فعرفتها في حينها، إمرأة متسلطة، متكبرة لعوب تأكل ولا تشبع، تشرب ولا يُروي عطشها، تطلب ولا تحمد، إن أرادت شيئا ونالته تهمٌ بطلب الأخر مستنكرة أنه لم يأتي. كل هذا عرفته وعرفت معه أنها تريدني حينما رأيت في عينيها ذلك الشغف وتلك الرغبة في تملكي. كانت تريد رجلا يكبح جماحها، يأخذ زمامها ويلجمها. كانت تريد رجلا تكن له أنثي وكنت لها ذلك الرجل...

أنا هذا وهذا أنا ولا شيء يأتي من العدم إلا العدم، تستنكرون علي عليّ أنه قد عض اليد التي حنت عليه وخان؟، تحمّلوني كل الوزر وكأني طوع نفسي، نسيتم أن أماني مثلي بل هي أكثر، فهى كما الإخطبوط لا فكاك منها ولا مهرب . تشقون عليّ وكأن الأمر بيدي، وكأني أملك ناصيتي.

أعرف أني مهما صغت لكم من مبررات وحجج فلن يكون لها تأثيرعليكم فأنتم لم تعيشوا حياة مثل حياتي ولم تري أعينكم بؤسا مثل ما رأت عيني. ماذا كنتم تنتظرون من فتي يافع رأي أباه يسحل ويحرق، ماذا كنتم تنتظرون مني بعد أن تركتني أمي لكل مار يشفق مرة ويقسو ألفا. ماذا كنتم تنتظرون من شاب أدخلو العصا في دبره...؟

لا تشمئزوا ولا تتصنعوا الفضيلة فالقاع يعج بالفسدة، ومن كان منكم بلا خطيئة فليرمني بحجر، ودائما طريق الصلاح ملئ بالمشقة وطريق الشر ميسور

ممهد مفروش بكل سهل وأنا إخترت السهل إلي أن ظهرت سماح أخت أستاذى. رأيتها فعرفتها كما عرفت أماني. في عينيها رأيت كره الدنيا ومقتها، تكره كل شيئ حتَّى نفسها. بركان من مقت يغلي. لا أنكر أني فوجئت معها بأشياء ظننتها ماتت، شعرت بقلبي ينبض في خفوت خجِلا مني. كنت أظن أن الحب لمن مثلي محالا وتبيّنت وهمي لَما رأيتها فتمنيتها حرَما أشد إليه الرحال لأرتمي في حضنها باكيا ملتمسا الرحمة والغفران. تمنيتها الجنة التي تجعلني متحفزا راغبا لأكون إنسانا اخر أملا في دخولها. أحببتها ورأيت فيها مأساتي، تيقنت أني علاجها وهي شفائي، رأيتها ورأيت فيها حلم أستعادة نفسي ورجولتي وكرامتي المهدرة علي أعتاب من أتملقهم. فاتحت أخيها في خطبتها ووافق ووافقت وأنا الآن أنتظر...

****

أنت لا تري الحقيقة..
أنت تري ما استطاع عقلك استيعابه
فالعين لا تستطيع أن تري ضوء الشمس
كاملا

- الموضوع واضح، ده مريض نفسي

يكف أسامة عن تناول طعامه ناظرا إليها بغضب متصنع قائلاً:

- يعني أنا واخد يوم مبيت، يوم واحد عشان أشوفك واعزمك في مطعم فخيم زي ده، وأكع آآد كده عشان تيجي إنتي في الأخر وتكلميني عن اللي قتل مراته، وإنه مريض نفسي، إن شاء الله قريب في الجرايد هيكتبو عن واحد إتجنن وقتل خطيبته وابقي ساعتها خلّي الطب النفسي ينفعك..

تضحك مريم بصوت عال رغما عنها محاولة كتم ضحكتها بوضع يدها علي فمها فيتلفّت أسامة حوله قائلا

- ده مش هو لوحده اللي مجنون، واضح كمان إنك قريبته

- إفهم بس. إنت لو كنت قريت الورق اللي إدتهولي، كنت هتفهم الكلام اللي بقوله. الأول بس إنت تعرف إني دوّرْت علي روايات تانية ليه لقيت كام حاجة كده لا ترقي لمستوي الرواية؟، أقل ما يقال عنها إنها تافهة..

- طب والله ما في أتفه منك، ولّا هيا تافهة مصدعانا ليه من بدري..

ترفع مريم إصبعها قائلة بتحذير

- أنا قولت علي اللي لقيته علي النت، أما الرواية اللي بقرأها دلوقتي واللي إنت إدتهالي فحاجة تانية خالص، تحس إن مش هو اللي كاتبها، أصلا مينفعش اللي كتب الروايات اللي لقيتها يكون هو اللي كاتب الورق اللي انا أخدته منك.. مستحيل...

- حيرتيني.. هوّ ولا مش هوّ؟

- إنت عارف الرواية بتتكلم عن إيه؟

بحيرة ظاهرة علي وجهه يجيبها

- لا.. قولتلك مقريتهاش وكان يوم إسود يوم مصوّرْتها

- بيتكلم فيها عن نَفْسه اللي نِفْسه يكونها، واللي خايف يكونها

ينظر إلي وجهها متمعّنا ليرد بعد لحظات صمت

- مريم بقولك إيه، أنا مش عايز أعرف حاجة، بلا نِفْسه بلا نَفْسه

- بالراحة بس.. بص هو روائي بس مش كويس، خاين بطبعه، لغة الأنا عنده عالية أوي، نرجسي يعني، منافق وعارف إنه منافق، كتاباته ساذجة وعارف برده إن كتاباته ساذجة، لكنه تعب..

- تِعِب!، تعب من إيه بسلامته؟، من الكتابة ولّا من إيه بالظبط..؟

- تِعِب من نَفْسه، من خيانته لنفسه، وإنه بيكتب اللي علي هوي الحاكم، تعب بس بيحاول يقنع نفسه إنه لو مبقاش كده مش هيعرف يعيش . وعشان كده خَلَق لنفسه خط دفاع، كتب رواية عن روائي محترم جدا اللي بالرغم من شهرته متواضع جدا، معارض للدولة، وخلي مراته تخونه . رسالة بيبعتها لنفسه قبل ما يبعتهلنا، عايزني أكون خايب زي ده، متخان زي ده..؟!

بإندهاش محاولا البحث عن الكلمات في فمه يجيبها

- أنا مش فاهم حاجة خالص

- وانا كمان لسه مش فاهمة ومش هقدر أفهّمك دلوقتي، لأن فعليا أنا مقريتش إلا كام صفحة لكن وباختصار صاحبك ده..

يقاطعها قائلا

- كمان خلتيه صاحبي؟!

- بلاش صاحبك، الرواية اللي بين إيديا المريض ده كاتبها كأنه بيبص في مراية معكوسة.. هو خاين خلّي البطل مخلص، مراته محترمة خلّي مرات البطل خاينة.. بيوجد مبرر لنفسه وبيعاقب مراته علي إحترامها

بتعجب يرد أسامة

- يعني زعلان إن مراته محترمة عجيبة والله؟!

- ده مش زعلان بس.. بص كده

قالتها لتمد يدها في حقيبتها باحثة عن شيء ما لتخرج من ثنايا الحقيبة مفكرة في حجم كف اليد فتقول وهي تقلّبُ في ورقاتها

- شوف الأسامي كده.. هو رفعت خاين ومراته إسمها أمنية محترمة.. بطل روايته عرفة محترم ومراته أماني خاينة، مش ملاحظ حاجة؟

يمد يده أخذا المفكرة قائلا

- تقريبا الأسامي حروفها واحدة، والأدوار متبدلة

- بالظبط.. الأسامي واحدة والأدوار متبدّلة.. بقولك إيه إنت قولتلي إمبارح لما إتكلمنا إنه كان كاتب جملة علي ترابيزة السفرة، وقولتلي إنك صورتها وهتبعتهالي فين الصورة بقى..؟

يمسك أسامة هاتفه باحثا عن الصورة قائلا

- أهي كنت خايف اكون مسحتها

تنظر إليه باستنكار أخذة منه الهاتف قائلة

- ودي صورة تتمسح برده

" أرسم هذه العوالم وأعيش فيها كما أريد.. كل إختياراتي صحيحة لكنها مع الأسف خاطئة "..

تعيد قراءة الجملة أكثر من مرة لتسأله

- مش فاهمة حاجة، لكن أكيد هو اللي كاتبها؟

مستنكرا يجيبها في تهكم

- أكيد مش القتيلة يعنى

- الجملة دي لو فهمنا يقصد بيها إيه كل حاجة هتظهر واللغز هيتحل، أنا عايزة أقابله

- تقابلي مين يا حبيبتي؟!

تشير بإصبعها علي شاشة الهاتف

- أقابل الراجل ده

يرجع بظهره ألي مسند كرسيه مشيرا إلي السماء قائلا بسخرية متستعجليش هو قريب هيتعدم وانا قريب هوديكي ليه

بإصرار تجيبه

- أنا بتكلم جد يا أسامه عشان خاطري عايزة أقابله

- يابنتي إزاي هو في حد قالك إني مأمور السجن، إزاي بس؟!

بعد تفكير تنتفض من مكانها قائلة بفرح شديد

- لقيتها، إنت مش بتقول إنك إتعرّفت علي وكيل النيابة وبقيتو صحاب، إنت إعزمه علي الغدا وسيب الباقي عليا

بنفور يقوم من علي كرسيه ماسكا يدها قائلا

- قومي يا مريم، قومى عشان أروحك، إنتي خلاص إتجننتي

تطاوعه متوسلة

- عشان خاطري إعزم وكيل النيابة

ينهي أسامة الحديث قائلا

- حاااضر المرة الجايه هعزمه وهخليه يجيب معاه الراجل كمان

****

نسعى للفراق مستميتين

وما أن يأتى إلا وننهار من ألمه

" رفعت "

من يصدق أني الآن أخونها!. أمنية زوجتي ذلك الملاك الذي طلّ علي الأرض بوجهه فملأها حبا . لو كانو يعلمون ما كانوا أبدا ليرقصوا في زفافنا . أتذكر رقصاتهم الممحونة، وضحكاتهم البلهاء المصطنعة، أتذكر تلك الأجسام المترهلة المحشورة في تلك الفساتين الضيقة التي يشاهدها رجالا لا تقوم لهم قومة إلا بالحبة الزرقاء أو الحمراء كل من حسب ضعفه، أتذكر هؤلاء الشباب الهائمين في القاعة كما الكلاب الضالة التي تبحث عن أنثي في موسم التزاوج متبُوَلة في كل ركن من أركانها معلنة سيطرتها عن ذلك الركن وتلك النتاية. أتذكر كل هذا وأتذكر معه إبتسامتها ووجهها المتلئلئ وفرحتها كمن نالت الدنيا بين راحتيها...

أستصدق أمنية أني الآن وبعد كل تلك الحرب الضروس التي خضتها حتَّى أنالها أني أخونها؟. لا أظن. أريد أزاحة رأسها من علي صدري فأوقظها لأخبرها بأنني الآن أخونها، أريد أن أخبرها بأنها كانت بين ذراعي أمس إمرأة أخري، وأن تلك الليلة العاصفه لم تكن عاصفة إلا لأني تخيلتها إمرأة أخري . أريد أن أخبرها أن يديّ وشفتيّ لم تطأ كل بقاع جسدها في مهارة يحسدنى عليها صناع أفلام البورنو إلا لأني تخيلتها غانية من اللواتى أعاشرهن محاولا أن أكون كما ينبغي حتَّى لا يؤنبني ضميري بأني قد دفعت بضع جنيهات ولم آخذ بهم حقي من متعة . أريد جلب الملاءة من تحت قدمينا فأغطي جسدها المسجى العاري ولمّا

تستيقظ أخبرها أني صرت من الذين محرم عليهم رؤية ذلك الجسد المفعم بالنشوي والجنس فأنا الأن أخونك لكني أعرف أنها أبدا لن تصدقني..

أيقظتها برفق وبلهجة تعمدتها مليئة بالحزم أخبرتها أني أخونها فكانت إجابتها.. " بس بقي يا رفعت بطل هزار بايخ.. سيبني أنام "..

نامى يا أمنية.. ولتهنئي يا من كنت لكِ وحدك.. ولتقرّي عينا بنومكِ وغفوتكِ الدائمة فقد أخبرتكِ إلا أنكِ بلهاء لا تصدقين أن من مثلي خُلقوا لكي يخونوا..

الإسم رفعت وكفى، ولا أرى لبقية إسمي أهمية، ولا أظن أيضًا أن هناك داعيا حتَّى أضُيّع وقتي ووقتكم في سرد قصة طويلة عريضة يجب أن يلحقها كلمة تافهة عن سبب تسمية عائلتي بلقب الموس، لذلك سأكتفي بأن إسمي فقط رفعت، هذا غير أني أكره ذلك اللقب فعلا، وأحمّله مسئولية سوء توزيع رواياتي، فمن سيقرأ لشخص لقبه الموس، لقب مناسب لأن يلحق بإسم بلطجي أو آفة من آفات المجتمع التي خلقت لتداس بالأرجل، أما أن يناسب إسم روائي فهذا غير مجدي تماما...

الندم لا يفارقنى لأني طاوعت صاحب دار النشر الذي استبسل في إقناعى أن لقبي مميزاً وأنه سيكون سبب إنتشاري. يهددني الآن إبن القحبة بأن تلك الرواية التي أكتبها ستكون أخر تعامل بيننا، الأن يعايرني بفشلي وأنه لولا نُسخ هيئات الثقافة ما كان قد طُبع من رواياتي عشرين نسخة على أكثر تقدير...

أعلم مثل غيري من الكتّاب أن الكتابة لا هي بوحي ولا بإبداع فتلك كلمات إعتدنا قولها في برامج لا يراها أحد. فالكتابة ليست بأكثر من طبخة لها أصول ومقادير إن أحسنتها تضمن التوزيع والإسم المردد الرنان، بل ستضمن أحيانا جائزة الدولة التقديرية ونوط الشجاعة إن كان لهم رغبة في ذلك وإن كان هناك منهم ممن قدّمْتَ له فروض الولاء والطاعة فرضَي عنك ورشّحك وزكاك. فالرواية لا بدَّ أن تحتوي علي بعض مشاهد الفراش العنيفة، فاسق يصلي بين نهدي عاهرة، وعاهرة تُولي وجهها رجلا فتوهمه الإرتواء من بعد عطش من بئره الذي نضب قبل أن تأتيه ويأتيها، ولا ضير من بعض الكلمات التي تصف جسد المرأة وصحرائها الرطبة وعشبها النديّ والتي يجب أن تأتي بها من قاع مستنقع الوساخة، هذا غير قصة لا منطقية بنهاية مأساوية تجعل من يريد أن يبكي يبكي ويفرط في البكاء، وأهم من هذا كله دور الدولة الذي يجب أن يُذكر في دعمها للشباب وأن تدخّلها هو الذي أصلح الأمور وأحيا قصص الحب التي كانت قد قاربت الموت والتفسخ حتَّى تضمن نسخ دور الثقافة وقصورها. مقادير كافية وافية أن تصنع رواية ناجحة التوزيع وهذا ما أفعله في كل رواية ورغم هذا ما من رواية نجحت وتخطت حاجز التوزيع. من أجل هذا أكره لقبي المسئول الأول عن ما أنا فيه...

تخرّجت لأعمل بالصحافة وما زلت إلي الآن أعمل وعند انقضاء فترة تدريبي تقدمت إلي أمنية فتزوجتها لأخونها مع علية أو لي لي كما تحب أن تُنادى، زوجة صديقي الوحيد. سيتهمني الكثير بالقذارة ونكران الجميل إلا أني أري أنه لا ضير من ليلة واحدة كل أسبوع تستطيع بها "لي لي" أن تستمر مع صديقي محسن الذي طالما حاولت معه أن يتغير ويستغني عن طيبته الزائدة. أراكم تجاملوه وتريدون أن تُلبسو الذئب ثوب الحمل. هو المخطئ ولست أنا. لكن لا بأس فأنتم ومحسن لو تعلمون عظيم، فلو عرفتم أن سبب توقف " لي لي" عن طلب الطلاق هو ظهوري في فراشها لعرفتم قدري وحُسن ما أفعله. لكن أنتم كما أنتم وستظلون دائمًا وأبدا تحكمون علي الأمور من منظور سطحي ضيق. دعكم من علاقاتي وقناعاتي ومحسن صديقي وزوجته الشبقة دائمًا فلا الذئب يلام علي نهشه ولا الحمل يعاتب علي برائته. دعكم فالوقت قد أزف وابن الحائكة لا يتوقف أبدا عن طلب الرواية للطبع ممنياً نفسه أن تعوضه عن كل الخسارات التي خسرها في طبع رواياتي. لا أعلم من أين أتى بتفاؤله هذا. أين ذلك المجنون الذي سيدفع من جيبه ليشتري رواية يضيّع بها وقته ليقرأ فيها عن الروائي ذائع الصيت عرفة الزاهد الذي تخونه زوجته الشرموطة التي تدعى أماني. فالكل يعلم مثلما أعلم أن كل زوجات المشاهير والمسئولين ذائعي الصيت شراميط...

دعكم منى فأنا أعقل من هذا بكثير. لا داعي أبدا أن ينصب كل منكم نفسه طبيبا ومحللا نفسيا حتَّى لا أضعكم في خانة الدجاجلة المرضى. فالطبيب النفسي

عندي ليس بأكثر من دجال مريض يحتاج لعلاج. جاهل من ظن أنه قد امتلك مفاتح نفوس البشر وأصبح قادرا علي سبر أغوارها، جاهل من نعت هذا بمريض وذاك بصحيح. أنا لست بمريض، فاختيار أسماء شخوص روايتى جاء مصادفة كما اختيار الوظائف. أنا رفعت الموس ولست بعرفة الزاهد، ولا وجود لعرفة الزاهد إلا في مخيلتي، أنا من صنعته، وأنا من جعلته بطلا لروايتي لكنه في النهاية بطل من ورق...

شعور سخيف أن تصير إلها، ولا يأت عبدك بأي جديد يبهرك به، فكل جهره وسره تعلمه، كل تصرفاته وعظاته وشطحاته ونوبات غضبه أنا ما دفعته إليها، فأنا أعرفه أكثر من نفسه، أنا إله عرفة، أنا من صنعته وخلقته، أنا الذي أحييه وأنا الذي أميته إن أردت. ومن تبوّء مقعد الألوهية لا يقبل أبداً ولا يتمني أن يكن في يوم عبداً. أنا رفعت الموس ولست عرفة الزاهد...

لا تهينوا ذكائكم ولا تبخسوا قدري فمن منكم يرضى أو يحب أن يكون مثله مثل ذاك الخائب الذي تخونه زوجته حتَّى أرضى أنا، ولو فرضنا أنّي رضيت فلم جعلته خائبا مملاً مرتعداً لاهثاً جاثياً تحت قدمي زوجته؟!، كما أن زوجته أماني ليست كما زوجتي، فزوجتى أمنية أشرف أهل الأرض وأطهرها، وأيضا أين الداعي الذي يجعلها تخونني، فأماني في الرواية التي أكتبها تشتكي صمت عرفة وصمت مشاعره وأدبه المفرط، وأنا أتحدث قدر عشرة أشخاص وأفعل ما لا يفعله عشرة أخرين والأدب عندي سلعة لا وجود لها علي أرفف شخصيتي

فالأدب بالنسبة لي بضاعة أتلفها الهوى وأفسدتها الأيام. لهذا جهل منكم أن تعتبروا ما أكتبه إسقاطاً نفسياً عن حياتي ورغبة مني في عقاب نفسي. لا أظن أبدا أن هناك رجلا حتَّى وإن كان مريضا لا حرج عليه يتمنى ولو إسقاطاً أن تخونه زوجته. هذا غير أني لا أري نفسي خائنا كما أخبرتكم سلفا. ولا أعرف لماذا تحسبوني هكذا؟!، لما لا تعدُّوني مصلحاً إجتماعياً يؤلف بين القلوب ويروضها. أنسيتم أن "لي لي" تراجعت أخيراً عن ضغطها المستمر على محسن، أغفلتم عن قول محسن أن "لي لي" قد تغيرت وأنه الآن يعيش أزهي أيام حياته الزوجية، ألم يشفع لكم أن زوجتي أمنية صارت لا تشتكي من شيء بل أنها تجزم في كل مناسبة أن رفعت قد انمحت نوبات غضبه وأنه قد تغير تماما، ألم تقل هي ذلك...؟!

كل هذا تجاوزتموه وصارت الخيانة التي ترموني بها لفظا تلوكه أفواهكم دون وعي منكم أو إدراك. كل هذا تغافلتموه ولم يبق لديكم سوى رفعت الخائن ولحمه الذي يجب أن تقطّعوه فتتقاسموه بينكم لتفرقوا دمه على الكئوس فتشربوا نخب أخلاقكم الحميدة ومدينتكم الفاضلة، هو رفعت وليس بأخر الذي صار سبباً لأزمة الإنسانية جمعاء والذي يجب أن يضحي به حتَّى يعيش العالم في سلام. لذلك كله.. أستمحيكم عذرا وأطلب منكم وبملء الفيه أن تتعاملوا مع ما أكتب علي أنه عمل أدبي، رواية، مجرد رواية، تعاملوا معها علي هذا القدر، وخصوصا أني قد قاربْت علي الإنتهاء منها وإسدال ستارة خاتمتها وأظنكم لستم بحاجة لأن تنتظروا حتَّى أفرغ من نهايتها وأنتهي. فتلك التيمة دائمًا وأبدا ما تم هرسها مئات

المرات في روايات وأفلام، سيحب عليّ أخت عرفة الزاهد الروائي ذائع الصيت. سيحبها فعلا، لكن القدر ليس بأحمقٍ حتَّى يمر كل هذا دون عقاب. كيف بمن مثل عليّ أن ينجو بكل ما فعل، كيف بمن مثله بعد أن خان ودنس وفرط أن يحب فتاة تبادله الحب فيتزوج ليعيش هانئا وكأن شيئا لم يكن!، وبرغم أن هذا ما يحدث فعلا ألا أنه لا يُكْتب. ستقتله أماني، هذا بعد أن تدعوه لمقابلةٍ في تلك الشقة التي كانا يتواعدان فيها سراً من أجل تسوية وإنهاء كل أمورهم المعلّقة...

وفي مشهد درامي مأساوي مصحوب بموسيقي تصويرية يتخللها طبل وقرع تجسيدا لضربات القلب المتسارعة، ستسحب أماني السكين الموجود جوار ذلك الطبق الذي يحتوي علي بقايا من تفاح عطن، فتطعن عليّ طعنة نافذة بالقلب فترتسم علي وجهه كل أيات الذهول غير مصدق أن أماني قد فعلت ذلك، وأن نهايته باتت على يديها...

وبذلك ينجي الله عرفة الزاهد من براثن خيانة اماني لتكمل بقية حياتها خلف أسوار السجن نادمةً مستغفرة على ما أقترفته، وينجي الله الفتاة البريئة الحالمة سماح التي لا ذنب لها سوي أنها أحبت عليّ الخائن . تلك هي الروايات وهذا ما يُكتب فيها، وليست الروايات فقط بل كل ما يأتي إلى عقلك متسللاً منّا إليك في غفوة منك. فالكاتب منا يكتب ما يطلبه القارئون هذا بعد أن يلبي مطلب النظام وأرادته...

دعكم من كل الخطابات والجمل الرنانة والأكلشيهات الفارغة التي لا تُغني، فالجميع يأكل من بقايا فتات موائد السادة المسئولين وكل ما تراه وتسمعه وتقرؤه هو متفق عليه في أروقة ومكاتب حماة الوطن العالمين

ببواطن الأمور أكثر من أي أحد، فما من شيء يحدث في تلك البلاد بقدر...

****

" أمنية "

بين المهارة والأبداع فارق كبير، بين الصنعة والإحساس فارق أكبر. بين التحفة التي تصنع في أكثر المصانع جودة والأخرى الهاند ميد التي يصنعها طفل لم تمن عليه الدنيا إلا بالأنيميا والهزال الشديد مسافات من الاختلافات. فالأولى جميلة مبهرة خالية من أي عيب لكنها بلا روح عكس الثانية. وهكذا زوجي رفعت، ماهر في كل شيء غير مبدع في شيء. متأنق متسق في ألوانه مصفف شعره، ملمعُ حتَّى حزامه وكأنه يعيش أمام كاميرا ذاتية التشغيل والكادرات. ما يضحكنا لا يفرحه وما يُتْعسنا لا يُحْزنه، يعيش وفق سيناريو هو كاتبه وممثله ومخرجْه أيضًا، يشاركنا كل أمورنا ولا نشاركه أمره، يعرف كل ما يدور في خلدنا ولا نعرف ما يدور في عقله، لا أعتقده بشرير ولا حتَّى بطيب، ولا أعتقده شيطانا ولا هو بملاك. فهو بين هذا وذاك. كل شيء عنده بمقدار متساو . كمن يملك خزانة يخبئ فيها شخوصه وانفعالاته يُخرج منها ما يشاء وقت ما شاء. فرفعت الذي يعطف على المسكين هو نفسه رفعت الذي يستغل حاجته. رفعت على مسافة متساوية من كل شيء وأي شيء. كافر ومؤمن بكل شيء. قابل ورافض لكل شيء. فقبول الشئ عند رفعت لا يعني عدم رفضه، وإيمان رفعت لا يعني عدم كفره. هكذا رفعت وحيد في تلك المنطقة من اللاشئ...

الأن أُهمله، لم أجد لإهتمامي فائدة تُرجى. فأنا عند رفعت مثل أي شئ موجودة في حياته لأني موجودة، كثيرًا حاولت وفي كل مرة يصد بابه في وجهي، قلاعه حصينة، أسواره ضيّع عمره فيها يشيدها. كنت علي إستعداد أن أُضيع عمري في تسلقها لكنه يعاملني معاملة المحتل، يقذفني براجمات عقله يسكب على روحي غليان بروده...

مريرٌ على المرأة أن تعي أنها غير مطلوبة. الرجل يتحمل إن رفضته امرأة، يعتاد الأمر ويتداركه، أما المرأة فما من شيء يحطّمها قدر معرفتها أن رجلاً أباها لمّا عرضت عليه نفسها، لا يريدها زوجها ولا يشتهيها. يعاشرها لدرء الشبهات وسد حاجتها لئلا تذهب لغيره، يسد جوعها حتَّى لا تأكل علي مائدة أخر. تتحول مع الوقت لعاهرة، فالزواج ليس ميثاق ورقي، والجسد لا يُحَلّ بورقة...

تجلس أمامى كطفل برئ، حمل وديع، لم تعرف الخيانة له باباً، في غرفة مكتبه علي كرسيه كما أعتاد الكتابة، طقوس لا يغيّرها، مناسك للكتابة يؤديها ليؤتي فرضها، أباجورة منارة رغم إضاءة الغرفة الكافية، سيجارة علي المطفأة ما وإن تنتهي حتَّى يُرسِل إليها أُخري تشاركها المصير . منهمكا في روايته، يتصنع الأنفصال عن العالم لكنى أعرف أن عقله بارجة فيها حمم تغلى . يتعمد تصدير شعور أنه لم يأخذ باله من دخولى عليه، هكذا هم المبدعون ينفصلون عن أبعاد المكان والزمان يسبحون في بحر إبداعهم وهو يرى أنه منهم. جلست على المقعد المقابل أتأمله، أهو رفعت الذي أحببته وطاردنى بحبه..

- رفعت إنت بتحبني؟، هكذا سألته..

ينظر إليها راغبا في معرفة ما وراء سؤالها وحينما يفشل يجيبها

- ليه بتسألي السؤال ده؟، بعد سبع سنين جواز جاية تسأليني إن كنت بحبك ولا لأ!

- عادي إني أسألك، مش يمكن مبقتش تحبني؟

دون أن يلتفت إليها، ودون أن يرفع عينيه عما يكتبه أجابها

- أه بحبك يا أمنية..

- يعني مبتخونيش؟

كان سؤالها مباغتا في غير موضعه إلا أنه ظل متماسكا، صامدا أمام هجمتها حتَّى وجهه لم يظهر عليه بغتة السؤال وبهدوء وضع قلمه كافاً عن ما كان يكتبه قائلا

- وليه أخونك؟ اللي بيحب مبيخونش، وانا بحبك، بس ليه بتسألي السؤال ده، إنتي حد قالك حاجة؟

- أبدا.. بطمن يا رفعت، بطمن على حبيبي..

ورغبة منها في تغيير مجري الحديث والانتقال إلي موضوع أخر قالت

- أكيد بتكتب في الرواية، هيا فاضلها أد إيه يا رفعت وتخلص

- خلاص قربت أنتهِي منها..

– مش عارفة ليه مش قادرة أصدق فكرة إن أماني اللي في روايتك ممكن تكون خاينة، ليه تخون؟!، المفروض إن عرفة حد مشهور، محترم، يعرف ربنا، غني، حنين، فيه كل المقومات، ليه يتخان..؟! . ده غير أن علىّ تربية عرفة، داق الظلم والخيانة من الكل ومِن هو صغير، مظنش أن حد زيه ممكن يخون

– عرفة لازم يتخان، الدنيا متحبش الضعيف الهش والمقومات اللي في عرفة اللي أنتي بتقولي عليها دي وشايفاها أسباب كافية متخليش أماني تخونه هي نفسها برده تنفع تكون أسباب كافية عشان أماني تخونه، هو البني آدم كده، طبيعته كده، لو كترت النعمة في أيده مبتحلاش في عنيه إلا اللى في أيدين غيره، فيجري وراها ولما ينولها يبدأ من تانى يدور على غيرها..

– البنى ادم طبيعته إنه يخون..؟!

– مش كده بالظبط لكن الإنسان بطبعه مبيبقاش مثالي إلا وهو مش لاقي، ولما بيلقي اول حاجة بيعملها بيصاحب شيطانُه.. وعشان كده أماني خانت. بيفضل الإنسان شريف طالما متحطش في إختبار، وعند ما تيجي رجليه ويقف قدام نفسه، هنا بس بتبان عورته، بيبان الشيطان اللى كان محبوس جواه، بيخرج من الضلمة للنور...

تسود لحظات من صمت فيجدها رفعت فرصة سانحة للرجوع لروايته مُمْسِكًا قلمه مكملاً ما كان يكتبه غير عابئٌ لأمنية في إشارة ضمنيه لغلق باب النقاش...

حزت كل الحق يا رفعت فأنت خير مثال لما تقول، نعم أنت تخونني ويا لك من كذاب أشر، إحتجت سبع سنين كاملة حتَّى أفك طلاسمك، ويوم أن نجحت وعرفت وتيقنت أنك تخونني لم أُمسك عليك يوماً خطأً واحداً، تكذب ورغم هذا فكذبك لا يحزنني بل ما يحزنني هو أني صرت الآن لا أصدق كذبك، كان جائزا أن أغفر لك القسوة والظلم وقت أن كنت بلهاء ساذجة تصدق منك أي شيء لكني الآن أبصر ولا أستطيع أبداً أن أغفر لك الخيانة. دائمًا وأبداً ما تمتلك الأكاذيب منطق الإقناع. سهل جداً أن تُقنعني أنك لا تخونني. أما الحقيقة فهي وحدها الشئ الذي يصعب إثباته، كيف برفعت أن يُقنع قلبي أن لا أحد في قلبه غيري. أشعر به وهو عائد من عندها أشم عطرها بين كلماته، لم يخطئ في إسمي مرة لكنه أبداً لم ينادي عليّ مرة بقلبه. يُسمعني كلام الغزل المعسول ويملأ أذني به لكنه ليس لي أو كأنه مر على قلب غيري فسُلِبت منه روحه قبل أن يأتيني فصار خاويا معدنياً يتردد في ألية وسرعان ما يزول مثل صداه...

ليس هناك مبررٌ للخيانة. فالخيانة هي الشئ الغير منطقي في ذلك العالم. تقف وحيدة في عالم القبح والدناءة وبعدها بأميال يأتي أي قبيح آخر...

إبليس حينما عصى ورفض السجود لم يُطرد من العالم الإلهي بل ظل يرتع وينتقم حتَّى إمتيازاته لم تسلب منه بل زادت عليه، أمّا آدم عندما خان الأمانة والثقة طُرد منها ونزل لعالم القبح ليرى الأخ يقتل أخاه. الخيانة أوقع من دناءة أي فعل. ورغم هذا لا أستطيع إلا أن أحبك. حبك هو الجنون بعينه...

لقد أحببتك فأسرفت، الآن أدرك أنه ما كان علي أن أستمر، كان لابدَّ أن ابتعد منذ أول مرة شعرت فيها وتيقن قلبي أنك تخونني. كان لا بدَّ أن أبتعد حفاظا علي ما تبقي من كرامتي. أعلم أن في إبتعادى جرح ما بعده جرح لكنه يقينا سيصبح أقل وطأة مما أنا فيه الأن...

سئمت تحولاتك النفسية وتخبطك، سئمت خياناتك، صرت غير

قادرة على تحملها. لكني في النهاية أعرف نفسي، أعرف أني غير قادرة علي قرار الرحيل، وسأظل هكذا، أحب بإسراف رغم سأمي لكل أفاعيلك التي لم يكن لها غرضا سوى دهس كرامتي وجرحي. أريد الرحيل وأخشى أن يأتي يوم فأستطيع فيه ذلك. أكتب يا رفعت روايتك، برر خيانتك، إصنع عالمك الوهمى، جَدّفْ في وحل شرورك. أماني تخون عرفة الطيب ولولا طيبته ما كانت لتخونه، أليس هذا ما تريد إثباته؟ . لا يا زوجى العزيز ليست كل النساء أمانى، وأنا لو كرهتك ومللت خيانتك فابداً لن أكون مثلك، أنا لا أخون، أنا لست أمانى...

****

" علية "

- أنا خارج يا " لي لي "، مش عايزة حاجة أجيبها وانا راجع؟

- برده مش هتروح الكنيسة النهاردة؟

- لا أنا خارج أقابل رفعت

- خلاص يا محسن قاطعت الكنيسة؟، خلاص لا بقت الكنيسة ولا اللي فيها عاجبينك؟، يا محسن إنت عدّى عليك شهور لا صليت ولا إعترفت، أخوك جوزيف شِبْه مقاطعك، كل اللي حوالينا زعلانين منك، حتَّى أختك أيفون زعلانة

- وهو جوزيف ليه يقاطعني؟، عشان مبروحش الكنيسة؟!

- إنت عارف إن جو متدين وميقبلش إن أخوه يبقي مُقاطع للكنيسه..

- وهو أنا قاطعت الكنيسة ليه؟، مش عشان اللي بيحصل فيها؟، تنكري إن أبونا أكتر من مره يخرّجْني من القدّاس وحصص الوعْظ

- ما هو يا رفعت بسبب كلامك

- مش عشان كلامي يا "لي لي" ده عشان بقول لأ

- يا محسن دي كنيسة مش مجلس شعب عشان تتكلم في السياسة

- قولة لأ مش سياسة يا "لي لي"، وعمر ما كان السكوت خطيّة

- وليه إنت اللي تتكلم؟!، ليه متكونش زي الكل؟ مـ الكل ساكت، وواثق في رؤية الكنيسة..

ينظر إليها محسن صامتا، وكأنه لا يجد ما يرد به إليها، وحينما يطول صمته يجيبها

- أنا خارج يا علية هقابل رفعت، وبعدها هروح لأيفون خلاص جوزها حجز، وعلى أخر الأسبوع هيبقو مهاجرين وروحي إنتي الكنيسة وادعيلي إن الرب يهديني ويغفرلي ويعَلّمْني السكوت

- هيا خلاص أيفون هتهاجر؟

- آه.. مش مضطهدة دينيا!

- بتتريق؟

- ياستى لا بتريق ولا حاجة، أيفون معملتش اللى محدش عمله، بكرة تهاجر وتبقى كل علاقتها بالبلد أمنية أنها تندفن فيها، أحنا مبنفتكرش البلد دى ألا واحنا بنموت.. سلام يا علية...

عليّة أو " لي لي " كما أحب أن أنادى. وللعلم فقط إذا ناداني أحدكم بعليّة فأبدا لن أجيبه هذا ليس لأني أكره ذلك الإسم فقط، بل لأني قررت أن أنسى تلك الفترة التي كنت فيها عليّة. تلك الفترة التي كنت فيها إبنة لمدرس التاريخ الذي كان أجَلُّ ما يفعله في حياته أن يأتي من بعد المدرسة فيجلس علي كرسيه لبقية اليوم لا يتحرك إلا إذا جاء ميعاد نومه فيتوجه للفراش كمن نازعته الحياة

فقررت أخيراً أن تفارق جسده ولو لساعات نومه المعدودة. تأتى عليه الأيام وتغادر وهو على كرسيه في مكانه لا يفارقه الا لقضاء حاجة أو التوجه للكنيسه أيام الأحاد...

لم يكن يفعل شيئاً في حياته سوي أنه كان ينظر إليّ بعطف وأسى

لوضربتني أمي أو نال خدي صفعة من صفعات أخي التي كانت في حياتي كما الهواء الذي أتنفسه رغماً عني. لم أجرؤ يوماً على الانتحار خشيت أن أفشل فتذيقني أمي من العذاب ألوانه . لكني كثيرًا ما حاولت كتم أنفاسي لأكتشف حينها أن من المستحيل أن يموت المرء بقرار منع الهواء عن رئتيه. إكتشفت حينها أن الصدر يتنفس دون إرادة صاحبة مثلما اكتشفت أن الأذن تسمع أيضًا دون رغبة صاحبها فلطالما حاولت أن لا أسمع أمي وهي تسب أبي وتهينه وفشلت، ولطالما حاولت أن لا أسمعها وهي تحادث الرجال بطريقة تخلوا من أي أدب أو وقار وفشلت أيضًا. فقد كانت كما يطلقون علي من مثلها أمرأة لعوب، تشتهي النظرة المغلفة بالرغبة في أعين الرجال، ورغم أنها تجاوزت الثلاثين بعقد إلا أن جسدها كان غضا ينبئ أن تحت الملابس ما يجب أن تطلع عليه. ما من رجل إلا وأوقعته في شراكها. كانت لا تحيا إلا بانكسار الرجال، تتغذي علي ذلهم واستجدائهم لها وكان في المقابل أبي الذي لم يكن يملك من أمره شيئا، مثله مثل الفراخ والأوز الذي كانت تربيه أمي فوق سطح عمارتنا والذي كنت أراعيه أيضًا مثل ما كنت أراعي أبي...

لم تكن عمارة بالمعني المفهوم بل كان بيتا من ثلاث أدوار يسكنه من هم مثلنا وفوق سطوح البيت كانت هناك غرفة غير غرف التربية يسكنها شاب بأحدي الكليات، لم أستلطفه يوماً، فعينيه كان فيها ما لا يريح أبداً. وصدق حدسي عندما رأيته هو وأمي من شراع النافذة المكسور بغرفته. رأيتها عارية مسجاة علي فراشه مستسلمة ليديه وشفتيه، ورأتني. ظللتُ ليومين لا أحادث أحدا. كل ما كان يهمني وقتها هو المسكين أبى، كل ما كان يهمني أن تلك العاهرة المسماة بأمي تؤذي أبي، تطعنه في كرامته، أبي الذي كان يشفق عليّ ويحنو. ما زلت أذكر عينيه، أستشعر لمسة يده وهو يساوي خصلات شعري ويهندم فستاني ويربت علي ظهري. في البداية تحاشت أمي نظراتي، إلا أني لم أكن أعلم أن تحاشيها هذا لم يكن لخوف أو لحرج بل كان تدبيرا لما ستفعله بي. أخبرت أخي وأبي ومن بعدهم عمي أنها رأتني في غرفة ذلك الشاب وفي حضنه، وحتي تُحْبك فعلتها جاءت بالشاب ليقر ما قالتْه نادماً واضعا أمره تحت تصرفهم، هل رأيتم في حياتكم إمرأة أقذر من هذا...؟!

ضربني أخي ومن بعده عمي ضرب موت ألا أنه لم يؤذنى قدر نظرة أبي، عيناه كانت تعاتبني تسائلني لما فعلت هذا؟، عيناه كانت تقول أنه برغم إيذائهم لي إلا أن فعلتك أذتني أكثر، أدمتني أكثر. لم يحادثني بكلمة لكن نظراته قالت الكثير والكثير. حاولت أن أخبره إلا أني سألت نفسي وماذا بعد إخباره، هل

ستزول صدمته؟، هل سيندمل جرح كرامته، هل سيعود إليه شرفه المهدر على العتبات والذي باعته تلك العاهرة بإرادة آثمة...؟

كان ينظر إلي وفي عينيه كل عذابات الدنيا وعتاباتها لم أصدق يوما أنه سيأتي يوم أقف فيه أمامه لأدافع فيه عن نفسي، وعن شرفي. كيف بالعذراء البتول أن يرموها بالزنا والعهر؟. حاولت محادثته لكن هل كان إخباره بأن أمي ما كانت أكثر من عاهرة رفضت عرض المسيح بالغفران والقبول في ملكوته ستجعل عينيه ترتاح وتهدأ وتجد إجابات لكل ما فيها من أسئلة...

من أجل هذا صمت، تحمّلت جلد نظراته وسياطها. إلا أني لم أكن أعرف أنه قد قرر عقابي عقابه الأعظم، تركني ورحل، مات، رحل صامتا كما غضبه مني، كما عيْشه الصامت أيضًا، رحل وتركني لأمي وأخي الذي لا يرحم، رحل ظاناً بي أني من خنته، أني التي دنّست شرفه، رحل وتركني أواجه مأساتي التي كان كل ما حدث مجرد أول سطر فيها...

لم يشفع لأمي كل ما فعلتْه، لم يشفع لها قتْلها لأبي بل حتَّى لم تنتظر مرور أيام الحداد. أصبح الصعود لذلك الشاب روتينيا حسب الهوي والطلب، رغم خطوبتي المعلنة له درأً للعار الذي سببته، وكما تمت خطوبتي رغما عني تم فسخها دون إرادة مني بعد أن ذهبوا بي للطبيب وتبين بما لا يدع مجالا للشك أني ما زلت أحتفظ بغشاء بكارتي الملعون الذي تسبب لي في كل هذا...

عرفت بعد ذلك أن أمي إختصت الشاب لنفسها، شاب أصغر من أخي سيحل محل أبي وكأن شيئا لم يحدث، وكأن أبي لم يمت، وكأن عليةِ لم تظلم وبظلمها مات أبيها ملاذها وملجأها من هذا العالم الموحش. نست أمى المسيح لّما غفر للعاهرة وقبل توبتها وتقبلها في ملكوته معنفاً من يجافيها التوبة. نست قول المسيح في وصاياه أن لا تزني فقررت أن تنهل من الحرام في كأس الحلال. في نفس اليوم الذي عرفت فيه أن أمي تخطط للزواج من ذاك الفتى، إخترت الميعاد الذي إعتادت أن تصعد فيه إليه وصعدت، ولم تمر دقيقتان حتَّى تحولت من خانة العذاري لخانة السيدات، رأتنا أمي وفي تلك المرة تحديداً واجهت عيناي عينيها، في تلك المرة هي من صمتت ولم تستطع البوح بشئ..

إستيقظنا صباحاً فلم نجد الشاب في غرفته، علمنا أنه قد تركها متوجهاً لبلده. مرت الأيام إلى الجامعة وفي أخر عام دراسي رأيت محسن، كان معيداً، رأيته وهو ينظر لي تلك النظرة التي لا تخطئها فتاة، فاتحني بحبه وسرعان ما كان إكليلنا لنتزوج بعدها، ليأت ذلك اليوم الذي تنتظره كل أنثي لأعرف فيه أن محسن غير قادر جنسياً، بالأحرى وكما قالوا "مالوش في الستات" . وكالعادة صمَتُّ الصمت الذي اعتدته والذي صار ركيزة أساسية في حياتي...

في المقابل لم يبخل عليّ محسن بشئ، فياض حتَّى في مشاعره، عطاء في كل شيء إلا الفراش. إلا أني ومع مرور الأيام جانبني الصمت، صرختْ في أشياء لم

أكن أعهدها ولم أكن في يوم أتصور أني سأطلبها. فكرت في الطلاق كثيرًا لكن ماذا كنت سأقول للكنيسة؟، تركت البيت كثيرًا وفي كل مرة كنت أَترك فيها البيت، كان أَخي يُرجعني مرغمة، وصرت من اللاتي يتبطرن علي النعمة، صرت من اللاتي لا يعرفن قيمة أزواجهن. الكل يحاكم ولا أحد يضع نفسه مكان المذنب، فكرت كثيرًا أن أحادث أخي لكني لم أستطع ففي النهاية لم يكن محسن يستحق مني الخوض في رجولته وإفشاء سره، هذا غير أن أخي بل كل المحيطين بي كانو سيقولون "وإيه

يعني بطلي قلة أدب ومسخرة"، هكذا هم، أعرفهم وأعرف ردهم...

وظهر رفعت، لا أدري لم لنت له، هل لأني أحن للمسة رجل، أم لأني بطبعي خائنة، أم لأن أبي ما زال يأتيني في رؤياي باكياً ولا يريد أن يساوي خصلة شعري ويهندم من ملبسي مربتا على كتفي، لا أدري لم إنصعت لرفعت ووقعت في شباكه وبراثنه. رغم أني أراه لا يقل عن فتى السطح شيئاً، نفس نظرة العين التي لم أستلطفها يوماً، رفعت يذكرني بذلك الفتى الذي كان هو أيضًا سببا في قتل أبي مشاركة مع العاهرة أمي، أنا لا أعرف لماذا، كل ما أعرفه أني وجدت نفسي في أحضانه، كل ما أعرفه أن رفعت حين يتركني أظل أبكي كارهة جسدي، وبعدها أنتظر، يجافيني النوم، أرفض تماما أخذ أي أقراص منومة تجبر النوم أن يأتي، أخشى أن يأتِ الموت ولا أراه، فأنا أريده. أريده أن يعرف كم أحبه ولكم إنتظرته، أريد أن أرتمي في حضنه باكية معاتبة إياه التأخير، أظل هكذا حتَّى يأتي

الصباح فأكتشف أني ما زلت حية وأن الموت محب قد خان وعْده ولم يأت فأنتظر رفعت ليأتيني مرة أخري . فرفعت كما الموت سواء...

أنا لا أعرف شيئا.. كل ما أعرفه أني خائنة...

****

" محسن "

- خلاص يا ايفون هتسافري

- أيوه يا محسن خلاص هسافر

- تفتكرى ده صح؟

- هو أيه اللي صح؟

- أنك تهاجرى أنتى وولادك وتسيبي البلد ومترجعيش تانى

- وأيه في البلد يخلينى أقعد فيها؟

- أنا..

تسود لحظات من صمت تتلاقى فيها الأعين لا يكسرها ألا دمعة أيفون وصمتها المتهدج قائلة

- أنت أخويا يا محسن، سواء أنا سافرت ولا مسافرتش هتفضل برده أخويا اللى مليش غيره

- ليه بتقولى كده، ليه دايما ناسية جوزيف، جوزيف أخونا يا أيفون

- محسن أحنا اتكلمنا في الموضوع ده كتير، عمر جوزيف ما كان أخويا، أنت نسيت أمه كانت بتعمل فينا ايه؟!

- وهو ماله بس؟!، جوزيف أخويا وأخوكي ومش بمزاجنا، ولو بابا ليه معزَة في قلبك يبقى مينفعش تقولى كده

- بابا! بابا اللى كان بيشوفنى وانا بتضرب من مراته ويقف يتفرج عليا، بابا اللى كان يشوف الحرق على أيدك منها ويقول معلش؟! بس يا

محسن بلاش نتكلم في الموضوع ده

- هتمشى إمتى؟

- الخميس

- حاسس إنى مش هشوفك تانى

- ليه بس بتقول كده؟ وحياتى عندك يا محسن متوجع قلبى أكتر ما هو موجوع

بطرف كم قميصه يمسح دمعته قائلا

- عموما أنا جاى أودعك عشان مش هكون معاكي في المطار، مش هقدر، مش ناوية تيجي في حضني؟

ترتمى أيفون في حضن أخيها باكية فيداعبها محسن مقبلا جبهتها قائلا

- أوعي تكونى فاكرة أنى بحبك ولا حاجة، ده بس عشان الكل قال أنك شبه ماما أوي فعشان كده تلاقيني كل شوية عايز ابوس أيدك وأخدك في حضني، يعنى الموضوع حرمان مش أكتر..

أبتسمت أيفون التي تكبر محسن بعامين كاملين والتى رغم ذلك كانت له الأم التي حرم منها، فالدفء الذي كان يراه في عينها جعل منها السكن والملاذ. ما زال يذكرها وهى صغيرة عندما كانت تدخر مصروفها فتأتيه به ليشتري

قميصا كانت قد رأته ينظر إليه برغبة أثناء تسكعها بالشوارع ومشاهدة ما حرموا منه معروضاً في المحلات والفاترينات...

يغادرها محسن، تأخذه قدماه لنفس الشوارع التي كانا يسيران فيها فيتذكرها وهى تهمس في أذنه بجوعها فيشترى لها كعكعة فتقسمها بينه وبينها، يتذكرها لَمَا تزوج من لي ليي واكتشف سره الذي يطعن رجولته فأتاها باكياً مرتمياً في أحضانها لتخفف عنه فكانت له السكينة التي جفت قلبه...

ماتت أمه قبل أن يعمَد بيوم فعاش يتيما لتأتى أيفون وتقرر أن تصبح له الأم التي لم ينالها والتى ماتت قبل تعميده. ففي الكنيسة لا تتناول الأم من جسد الرب ودمه إلى أن يأتي يوم تعميد وليدها، فالتعميد يجُبُّ على صاحبه الطُهْر فينال حياة المسيح وألمه. وهل هناك غير الألم ليُطّهّر الإنسان من نجسه؟! . يتعمد الوليد فيتطهر فتتطهر أمه فتتناول. ذلك في كنيستنا، وذلك لم يحدث حين تعميدي فلقد تَنيّحَتْ أمي حاملة صليبها ملبيةً نداء الرب لتستقر في الملكوت. فصرت الخَطّية التي أنجبت موتاً وصرت الموت الذي طَهّر خَطّيّةً حين حملتْها أمي عني رحمة وغفراناً. رحلت أمي، رحلت المؤمنة التقية كما خَبّروني ورغم قول يسوع أنه عَزِيزٌ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ مَوْتُ أَتْقِيَائِهِ، كان عزيز عليه أيضًا أن يتركها دون أن تسير طريقه فاصطفاها لِيُلْبسها الجسد المُمَجّد الأبدي مُفْسِحا لها الجلوس جواره والتَونُّس بقربه في الفردوس الرحب...

كبرت في كنف الكراهية ومرّ سُقياها، يمارسون عليهم الإستبداد فيمارسونه على بعضهم بعضاً، إستبداد في كل ركن وزاوية، قمع في كل شبر، محظور عليّ اللعب مع أطفال الحارة ومحظور عليهم أيضًا. أنا الكافر الذي ينادي عليه معلمه ليأخذه من حصص الدين واضعا إيّاه في حوش المدرسه حتَّى ينتهو، أنا الذي لا أستحم صاحب الرائحة التي لا تطاق، قهر تحت كل حجر، في الحياة، في المدرسة، في الشارع حتَّى في البيت. أب لا يكاد يرفع رأسه إلا ليعاود الإنكفاء مرة أخري لتوفير لقيمات تكفينا حد الكفاف. زوجة أب دائمة التردد علي الكنيسة، لا تفوتها صلاة واحدة، ولا تفارق الترانيم فمها ورغم هذا لا تتورع عن تعذيبي وحرق جسدي إذا فكّرْتُ في الدفاع عن أختي. كنيسة تتحكم في كل شئ، تتدخل في كل شئ، لا يتبقى لها إلا أن تنظم مواقيت دخولك الحمام. حتَّى علاقتك بربك تقف بينك وبينه حائلا...

وكما سيق المسيح إلي الذبح كَحَمَلُ لا عيب فيه أمام الذي يجزه ولم يفتح فاهه، صمتُ أنا الأخر. فالألم مسيرة يجب أن نتقبّلها بصمت تام علي غرار مسيرة يسوع المسيح حتَّى نسمع صوت الله العظيم وهو يقول لنا قد مجّدْت وسأمجّد. من أجل ذلك ومن أجل حاجتي للألم الصامت حاولتُ الصمت. إلا أن الصمت ليس بقرار. فالموت ربما يأتي بقرار عكس الصمت . لأنك مهما حاولت أن تصمت فستجد أنينك رغما عنك يعصاك يخرج من قلبك قبل شفتيك معلناً عدم تحملك المزيد فيسوع إستطاع أن يصمت لأنه إبن الرب وأنا فشلت لأني عبد

مسكين إبن مسكين مغموس في وحل الخطايا لذا كانت الكنيسة والأديرة ملاذي وملجأي علّي أستعين بهما علي التحمل...

ولم تكن الكنيسة فقط هي ما إستعنت بها علي قضاء حاجتي. فرفعت كان الآخر حصني من غارات الحياة وكرّها. كبرنا سوياً، تآخيْنا في غفلة من الجميع، ورغم إختلافنا التام قررنا دون إقرار منا تنحيته. أنا هنا لا أتكلم عن اختلاف ديني فقط، فما بيننا من إختلاف أكثر من هذا بكثير، فهو مغامر تناديه الحياة لِتُلْهيه، لا يؤمن بشيء ولا يكفر بشئ، يُصلّي إن كانت له حاجة، يتعبد إن كان له طلب، الحياة عنده تستحق أن يلهث ورائها والحياة عندي طريق للخلاص. ورغم إختلافنا هذا صرنا أصدقاء. إكتفيت به من زخم الدنيا واكتفى بي لأكون له الصديق الوحيد...

تعينت في الجامعة وهناك قابلت لي لي. تُشْبهني وكأني أنظر في مرآة نفسي، عيناها لا تقول إلا ألما، شفتاها لا تتحدث إلا حزنا. تزوجتها ظانا أن الدنيا أخيرا ستبتسم. وكما كانت حياة المسيح سجلاً للألم والحزن كانت حياتي، تعثّرَتْ قبل أن تبدأ. إكتشفت مع لي لي عجزي الذي لم تعترض عليه، فهي مثلي لا تُعْنيها ملذات الحياة وترفها ومن غيرها يؤمن بقول يسوع أن من أراد منكم أن يتبعني فلينكر نفسه وليحمل صليبه ويتبعني. وجّهْنا وجهنا للرب ندعوه ونبتهل، لبينا ندائه بأن تعالوا الي يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال، وأنا اريحكم. إلا أني عكس لي لي لم أجد ضالتي في الكنيسة...

لا يريدنا الرب إلا أنقياء من الداخل كي يُسَرّ بصلواتنا فتكن مقبولة عنده فيرضى بها ويستجيبها بحسب مشيئته. أصلّي وليس علي لساني إلا إبتهال واحد.. ورجاء واحد.. عَرِّفْنِي يَا رَبُّ نِهَايَتِي وَمِقْدَارَ أَيَّامِي كَمْ هِيَ، فَأَعْلَمَ كَيْفَ أَنَا..

أمام شقته يجد نفسه، يفتح بابها فتقابله صورة المسيح مصلوبا معلقة على جدار. ينظرها متأملا وكأنه يراها لأول مرة فتخرج من بين شفتيه الكلمات دون وعي أو إرادة.. تحملت خطايانا عنا وفاتك الألم الذي في الصدور..؟

تنساب دموعه على وجنتيه، لا يوقفها شئ، تتشربها لحيته التي نبتت على استحياء..

يقترب من الصورة مسلوباً، يخر على ركبتيه كجبل أندك فتهاوى على نفسه. يتقابل كفاه فيحتضن بعضهما بعضا، تتشابك أصابعه بقوة خوفاً من تيه الطريق.. تخرج الكلمات من فمه متهدجة لا تكاد تميز من فرط بكائه ونهنهته..

أحبك يارب، فاملأ بالحب قلبي، أحبك يارب فكن ثباتى وملجأي وسراج دربي.

****

" جوزيف"

الجو كئيب خانق. وكأنه خلى من الهواء. الأصوات ساكتة ساكنة حتَّى حفيف ورق الشجر. كل شيء ثابت لا يتحرك وكأن الزمن قد توقف، حتَّى هم تحسبهم أمواتا وهم رقود. مرصوصون بأنتظام كما شجر الزيتون الذي حولى...

كل شيء غريب. غارق في الدهشة والقتامة. لباسهم وملبسي. ذلك الشعر الطويل المموج المنسدل علي كتفي، أتحسس وجههي وكأني أتعرف عليه لأول مرة. تلك الجبهة المسطحة، وتلك اللحية، جسدي ليس كجسدي وكأن روحي قد فارقته لتحل في جسد أخر يسقيني الطمأنينة في كأس رغم أن ما من شيء يدعو لها...

أنظر إلي النائمين وأنتظر لعل أحدهم يتقلب ذات اليمين أو ذات الشمال فأري فيهم ما يدل عن الحياة. أكاد أتبين شبح أحدهم يأتى متحسسا خطاه، يقترب فيهتز خياله مع تراقص جذو النار، يتقدم صوبى، يحتضننى، يلثم خدى. يتلفت حوله، هو يعرفنى لكني لا أعرفه ولا أتمنى معرفته، فعيناه لم تكن مثل أعيننا، كانتا مشقوقتان بالطول لا بياض فيهما ولا حياة، حالكة كسواد الليل. تراجعت مبتعدا خطوتين عن جسده رغما عني فلفيح جسده لا يطاق. يحّدثنى عقلى أن أهرب فتأبى قدماى الإنصات...

أعلم أنهم حولى، يتسترون بالشجر، أشعر بهم في ظلمة الليل، يتحينون الفرصة لصيدى. الجو يزداد كئابة واختناقا. أرمى نظرة على النائمين، بدأت الآن الحركة تدب في أوصالهم، أنفتحت أعينهم فجأة بلا مقدمات وكأن الحياة أنبعثت فيهم بعد موات، وكأنما طردت الأرض ظهورهم فجأة فجلسوا جميعا على مقاعدهم. التفاتاتهم حادة، نظراتهم مرتعبة، ملتاعة، أنظر ألى ما ينظرون فأري من كانوا يسترون بالشجر يصنعون دائرة حولى متحفزين تحفز الخوف. تضيق دائرتهم علىّ فيزداد أختناقى أختناقا، تبدأ الأصوات في الظهور، تئن أوراق الشجر من دهس أقدامهم، ينعيها نعيق غربان...

أخذونى ألى دار سحيقة جداراته عاليات كما الجبال، أحجاره ضخمة، بئره عميق لا ترى ماؤه، بهوه واسع يتسع لبيت واثنين أخرين، أرضه ممهدة بأحجار رصت فاستوت مصقولة من وقع الأقدام عليها . نوافذ عالية اعلاها نجمات متداخلات نقشت في تؤدة وأتقان . المشاعل علي الحوائط مثبتة تتراقص نيرانها في قسوة...

جمع غفير، وكأنه يوم زينة، رجال ونساء كهول وصبية. المشهد أشبه بمحاكمة انا المتهم فيها وبقيتهم قضاة . الجميع ينادى بقتلى . الشغف يملء الأعين، كل الأعين، قتلى صار مطلبا جماهيريا واجب النفاذ...

لطمنى أحدهم فتجرأ البقية صفعا وبصقا، تنهال اللطمات، تدوسنى الأرجل، تطعنني الركابي، توقعت أن أستيقظ من أول صفعة . فليس هناك تفسير

أخر غير أنى في أبشع كابوس قد عرفه خيال بشري، يزداد سيل اللطمات والركل فيخيب رجائى في الإستيقاظ والفرار من جحيم الألم، توقفوا عني بعدما تيقنوا أن لا وجع يضاف إلى وجعى . أقف على قدمى عندما أري الأعين تكب شماتة وحقدا...

أحاول أن أنطق، أتحسس فمي فلا أجد فتحته، إختفت شفتاي فلا وجود لهما ولا أثر . لست رجلكم المنشود، لست المخلّص، بل أني من الذين تألم من أجلهم، أنا جوزيف. ستنكرني قبل أن يصيح الديك مرتين، تنكرني ثلاث. هو سلّمني بعد أن أكل معي مقتسما خبزي، راشفا من كأسي، وأنا أُنكر نفسي منه هربا من العذاب. الكلمات تصرخ داخلي، تسعي لخلع أسوار سجنها دون أمل في الخلاص...

خلعوا عني ثوبى كاملا، إلا من دثرة قرمزية تستر نصفى السفلى، على ركبتى أجلسونى قسرا، ربطوا يدي في حلقة مثبّتة في حجر أجبرت على أحتضانه. أحاول السؤال عن ما أقترفته فيخرج من حلقى الصوت بلا صوت، أحاول أن أصرخ فتضيع الصرخة قبل أن تصل إلى أذناى...

أنظر إلي وجوههم، تتحدث عيناي لأعينهم، تترجاهم وتتوسلهم فلا يجيبها غير الحقد المسيطر. أراه وسطهم يتنقل حولهم وبينهم يتمتم في أذنهم كثعبان يبخ سمه، ينظر إليّ بشماتة فاتحا فاهه فيظهر لسانه المشقوق متدليا...

رأيت أحدهم يمينى، بان من قدمه. حاولت الصعود بعينى ألى أعلى حتَّى أري مايشده بين يديه، فشلت. هناك أخر في الجهة المقابلة يفعل مثله، نزلو على جسدى بسياطهم في تناوب، سياط غريبة قطعة خشب قصيرة مربوط فيها سيور جلدية كما السكين في أخرها كرات معدنية

مدببة . من أول جلدة تمنيت الموت وناديته لكن دون أجابة...

يصرخ داخلى فيتشقق متداعيا، ينصهر فيذوب كما جلدى. تنغرس الكرات المثبّتة في أخر السيور، ينزعها كلاهما نزعا، يتفتت لحمى متناثرا حولى لتتمزق العضلات تحته...

حلوا وثاقى، لا أملك سوي النظر أليهم، الأهات تسعى للخروج فيقابلها سد منيع في حلقى، كل أنملة في جسدى تصرخ عوضا عن فمى الممتعض لمذاق الدم. لم أشعر بهم ألا وأكليلهم على رأسى. لا ضرر من بعض الألم الناتج من شوك تاجهم المغروز في جبهتى...

يسجدون أمامى مستهزئين، لم ينسوا في غمرة تعذيب سياطهم البصق والركل. حملونى ليوقفونى رغما عني. في الخارج كان الجميع في انتظارى مصطفين على جانبى الطريق، كل شيء يموج بالألم، كل لمسة من يد هي العذاب الأليم أجاهد حتَّى أستطيع النظر فيهم، أليس منكم رجل رشيد؟، ماذا فعلت لتفعلوا بى ما تفعلون. ما هو الوزر الذي جنيته وجعلكم تعلنون الحرب علىّ ومعكم كل أوزارها، أنتم تعذبون الرجل الخطأ، لا طاقة لي في حمل كل ذنوبكم

والتكفير عنها، لست مثله، فأنا لا أستطيع. ذاكرة الكلمات فقدت كل خزينها حتَّى الأنين لم يعد متاحا...

لم يستطع جسدى المنهك الصمود تحت صليبهم الذي ربطونى فيه. وقعت أكثر من مرة. أنسلّت أحداهن فمسحت وجههى بمنديلها. لم أتبين ملامحها، خصلات شعرها الثائرة الهاربة من رأسها إلى وجهها والتى أخفته تنبئ بجمالها، وأمرأة أخري عيناها منبع لكل أنهار الطيبة الممتزجة بالدفء، لو جمعوا كل كتّاب الدنيا ليتباروا في وصف الحزن البادى على وجهها ما استطاعوا...

جاؤوا بحبشى، أجبروه أن يحمل معى خشبتى فارتضى الحمل...

أنتهى الطريق بواد فسيح غير ذى زرع بربوة عالية. على الأرض أسقطوا الصليب من علي منكبي، وعليه أرقدونى. ضموا قدماى لكن لم يفردوها عن أخرها، جعلوها مثنية. وبدأ الطرق، مساميرهم أعرض تمر بين عظام مشط القدم هارسة كل ما يقابلها. الالام حادة رهيبة لا يتحملها بشر...

فعلوا مع ذراعاي مثلما فعلو مع قدماي، ثنوا كوعي مقربين كتفاي إلي عنقي، أصابع كفي أخذت شكل المخلب رغما عني، تشنّجت عضلات يدي، تقلصت، الألم رهيب، تحترق أعصابي فترسل نيرانها إلي عقلي . الصرخة داخلي تكاد أن تمزق جسدي لتشق السماوات...

حفروا لصليبهم فأوقفوه وأنا عليه. الآن أعرف لما لم يفردوا ركبتاي عن أخرهما، ولما جعلوها مثنية بتلك الزاوية النصف قائمة فوزن جسدي بالكامل

محمل على قدماي المخترقتان بمساميرهم، مجبر جسدي أن يحيل وزنه علي عضلات فخذيه، تلك العضلات والتي بسبب ثنيها فهي لن تستطيع أبدا أن تحمله فتتمزق لينتقل الثقل إلي ذراعي مثلما يحدث الأن...

جسدي تحمله ذراعاي المنهكة من الجلد والجراح وحمل الصليب، يرتكز الوزن على المعصمين و الذراعين والأكتاف، ينخلع كتفي من مكانه ويتابعه خلع في مفصلي الكوع و المعصم. أشعر أن ذراعاي صارتا أكثر طولا...

ضلوعي تئن، تكاد أن تخرج من مكانها منفرطة من ثنايا اللحم . مع كل نفس تأخذه رئتاي يزداد ألمي، أطرد الهواء من صدري بصعوبة بالغة، فمع كل زفرة يتحرك جسدي فيحتك لحمي بالصليب، إما أن أسكت عن التنفس أو أن يتحرك جسدي لأعلي ولأسفل حتَّى أستطيع أن ألبّي نداء رئتاي التي تحن للهواء فتمتلئ فلا تستطيع طرده. ضلوعي تتمزق، رئتاي تبحثان عن الهواء فلا تجده، دقات قلبي تخبو رويدا رويدا . أصرخ فأستيقظ...

عشر دقائق كاملة، ممدد كما أنا علي فراشي، لا تفارقني النهجة ولا الرعشة، جسدي صار محرابا لكل الام الدنيا ووجعها، أهذا ما مر به يسوع ولقِيَه؟، أهذا ما تحمّله من أجلنا؟، أي ذنوب أتيناها واي مثلها سنؤتيها جعلته يخوض مثل ذلك العذاب؟. لما حاولت التملص والإنكار؟، لما حاولت إنكار الجسد المقدس؟، لما كانت رغبتي أن أحادثهم فأنبئهم بأني لست المسيح، عشت عمري

أدعوه وأتقرب إليه وفي لحظة إندماجي فيه نكرته، أنادي بالنظر إلي تجربته حتَّى نتعلم التضحية وعندما أخوضها أسعي محاولا البعد عنها...

تعصف بي الأفكار، تتقذافني كما يتقاذف الموج مركب فقد شراعه . ينتشلني من غرقي جرس الباب، أتحامل علي نفسي، لا أقوي علي الحركة، واضح أن صاحب الطرق لن يستسلم . أفتح الباب لأجد محسن بابتسامته المعهوده ووجهه الصافي عنوان الطيبة والرضا.. يبدأ كلامه كلامه قائلا

- إيه مدخلش؟

أتنحي بجسدي جانبا مشيرا له بيدي بالدخول إلا أنه يتسمر مكانه قائلا

- مالك يا جو ،، إنت عيان؟

- لا لا مش عيان ولا حاجة

- إزاي بس إنت وشك أصفر أوي، وعرقان جدا، وريني كده.. يقرن كلماته بوضع يده علي جبهتي مكملا أنت كمان سخن، درجة حرارتك عاليه، إنت روحت لدكتور؟

- متكبرش المواضيع أي خافض للحرارة وهبقي كويس، وكمان متنساش تقلبات الجو ممكن هيا اللي تكون عملت كده..

علي أول مقعد يقابله يجلس محسن متأملا وجههي قائلا

- إنت زعلان مني؟

كعادته لا يجيد المقدمات، تفضحه عيونه قبل لسانه..

- ليه بتقول كده؟، وهزعل منك ليه بس؟

- عشان مبروحش الكنيسة

ظل لأكثر من ربع ساعة يتكلم ويبرّرعدم إنتظامه في الذهاب للكنيسة وأنا ناظر إليه متأملا وجهه، أود أن أقولها له، لا تبرر يا أخي، فأنت مسيحي مخلص عني، أنت أكثر مسيحية مني، أنت لم تنكره مثلى، أصحاب الأيمان الهش دائمًا وأبدا ما يظنون في قوة أيمانهم، يحملقون في أيمان الأخرين باحثين فيه عن ضعف، جاهلين أن عوراتهم ستظهر في أول أختبار يوضعون فيه...

ظل يتكلم وأنا أنظر إليه وفي عقلي سؤال واحد ينبح كما الكلاب في الساحة لم نكرت نفسي؟ لم تبرأت؟...

****

" سامح"

أستطيع رد الصفعة إليك صفعات، لكنى لن أفعل، ليس لأنك أخي الأكبر أو لأني أتشبث بخصال العفو والتسامح، بل لأني أعذرك، فأنا أخوك، مرأتك التي تنظر فيها فتري كل قبحك فتقف عاجزا ولا تستطيع فعل شيء سوي كسرها . أنا أعذرك...

- إنت جاي النهاردة تحاسبني؟!، نسيت اللي عملته معاك، نسيت إن لولايَ كان زمانك مرمي في معتقل زيك زي الكلب

يجز سامح على أسنانه مكورا رسغه في محاولة منه للسيطرة علي غضبه قائلا

- اللي في المعتقلات مش كلاب يا رفعت، دول ناس قالت لأ . الكلاب اللي بجد هيا اللي ركعت وباست الأيادي عشان تقعد تحت رجلين الحاكم تستني بواقي اللقمة والجنيه. الكلب اللي بجد هو اللي باع ضميره وإنسانيته وناسه وبلده، اللي جوه مش كلاب يا رفعت.

بعد صمت ونظرة عميقة في وجه سامح كمن يبحث عن كلمات تاهت في حلقه فيتأمل محدثه علّه يجدها في وجهه قائلا

- مباخدش منك إلا الفلسفة

ليست بفلسفة، تعرف كل شئ، تعي كل شيء وتدركه، كلماتك لا تخدعني ولا تخدع غيري، الجميع يفطن الحقيقة، أنت لا تخدع إلا نفسك، تصير بها لحد

الموت، فالنفس التي تفقد الحرية والارادة تموت قبل أن تفني. نعم لك كل الفضل في حريتي المزعومة وياليتك ما فعلت، حررتني من جدران السجن فكبّلتْني روحي بكل قيد، تُعايرني أني فشلتُ أن أكتب وأنت خير من يعلم أن الكتابة كما العملية الجراحية لا تتم بيد مرتعشة، لا تتم بروح ترسّبَ الخوف عليها عاما بعد عام حتَّى أخفاها تماما وحل محلها فصار صاحبها بقلب خائف، أنت تكتب لأنك تخبئ روحك خلف دفاترك وأنا أكتب بحثا عن روحي علّي أجدها بين أوراقي. أنت أَلْهَتَك الحياة عن الحياة، تُوهِم نفسك أنك تحيا لكن أكُلّ الأموات هم من واراهم التراب؟، هناك مثلك مِمَن يحيوا أمواتا، مثلك من باعوا ضمائرهم مفترشين قارعة الطريق بإنسانيتهم يبيعون لِمَن يدفع أكثر...

ليست بفلسفة، تعرف كل شئ، تعي كل شيء وتُدْركه . تسألني لمَ لمْ أتزوج، ألا تريد أن تعرف لمِ فشلت، حتَّى وإن لمْ ترد سأخبرك . سأخبرك وأنت تعلم أن الفتاة الوحيدة التي دقّ لها قلبي تزوجتها أنت. لا تقل لي أنك لم تكن تعرف. كنت تعرف، كنت تعرف أني أُحبها، كنت تعرف، إلا أنك إستثمرت ضعفي لتنشئ مدينتك علي أنقاض قلبي وسكوتي، أنا لا أُحمّلك الوزر، فأنا الملام لأني صمت، لكن كنت أنتظر منك أن لا تفعل فأنت أخي، كيف استطعت النظر في وجهي وقد أخذت مني حبيبتي، كيف تواتيك الشجاعة الآن لتقف أمامي تعايرني بأني لم أتزوج بعد، كيف يابن أم أخذت بقلبي في فمك تقطّع منه وتلوك دون رحمة أو وازع . كيف...؟

- إنت هتفضل باصصلي كتير كده، هو أنا مش بكلمك؟

يعود سامح من ثنايا عقله ليجيبه

- أيوه فعلا، إحنا لا مدركين ولا فاهمين فعلا، إنتو بس اللي بتفهموا، واستني، إنت ليه نسيت تكمل بقية الإسطوانة بتاعة هتخربو البلد، والمؤامرة والأجندة الخارجية.. إزاي ياراجل نسيتها

- بقولك إيه أنا مش فايقلك ومش هجري وراك تاني، إنت لو إتاخدت تاني عن نفسي مش هعبّرك، هتبرّي منك، هقول إنك لا أخويا ولا أعرفه. إنت فاهم؟

- أنا لا طلبت منك تجري أولاني ولا طلبت منك تجري تاني، أنا طلبي محدد، عايز حقي في ميراث بابا

يقوم رفعت من علي كرسيه رافعا صوته مدّعيا الغضب قائلا

- حق إيه وميراث إيه، إنت حقك أخدته خلاص، الشقة اللي إنت فيها شوف تسوي كام النهاردة؟.

- بقي الأرض اللي في البلد والعمارة وحتة الأرض اللي هنا، كل دول، نصيبي منهم الشقة دي، هو إنت فاكر نفسك بتكلم عيل صغير؟!

- لا مش عيل، إنت راجل وبتفهم كمان في القانون قبل الحساب وعشان كده عايزك لما تفضي تاخد نفسك وتوصل لحد المحامي عشان تبقي تشوف العقود اللي بإمضة بابا واللي بيها باع ليا كل حاجة بيع وشرا

- بابا مبعلكش حاجة، إنت اللي إستغليت عياه ومضّيته، وأنا مش هسكت

يلتفت رفعت إلي سامح راسما إبتسامة مستفزة مصفّقا بيديه بإستهانة واستهتار قائلا في تهكّم

- برافو متسكتش، المحاكم كلها قدامك، ليه تسكت؟، روح واجري ودوّر علي حقك بس خد بالك وده بس عشان متقولش أخويا مقاليش ولا نبّه عليا، حتَّى الشقة اللي إنت قاعد فيها دي ساعتها هاخدها منك

ينصرف رفعت صافعا وراءه باب الشقة تاركا سامح تتخبطه أمواج عقله فيرجوها الوصول إلي شاطئ. أنت كما أنت لن تتغير، تأخذ مني كل حق وتُغلق في وجهي كل باب أمل، تعرف أني لن أقف أمامك في قاعة محكمه مسوغا دفاعاتي أن أبي لم يكن في وعيه وأن إبنه إستغل هذيانه فأخذ توقيعه ليحرم أخاه من إرثه. لن أُدنّس ذكري والدي، كَتب الصمت عليّ أياما وسنينا، صمتُ مرة، وقفت عاجزا مستسلما وأنا أراك تدوس علي قلبي وسأصمت الآن وأنت تأخذ مني ما تركه لي والدي، لكن لا بدَّ وأن تعرف أن صمتي وزهدي في حقي تلك المرة ليس لضعف أو مذلّة لكنه لقيمة لا يعرفها من هم مثلك. إهنأ بحبيبة لم تكن أبدا لك واغنم بمال لم يكن أبدا مالك، وتذكّر أنك مهما سلبت وأخذت فهذا لن يعيد لك الحياة، فروحك قد ماتت، وقلبك قد أصابه العفن...

****

ألد عدو للحياة..

الموت..

معركة أزلية أبدية

لا منتصر فيها ولا مغلوب سوى الأنسان

يعيش فيعتاد الحياة

وما أن يعتادها حتّى يجد الموت يفاجئه

- خدي بالك بس، ده روائي، يعني باختصار راجل صاحب خيال فمش صعب عليه أبدا يقنعك بإنه مريض نفسي

- كلامك صح، بس أحب أقولك إن الخيال لوحده مش كفاية عشان حد يقدر يدّي إنطباع إنه مريض، ده علم. ده غير إنه من الأصل محاولش يقنع حد إنه مريض، بل بالعكس علي حسب كلام أسامة ده إعترف إنه قتل مراته، وإن هو اللي إتصل بالشرطة، ده غير إن فى كلامه عن نفسه بيجزم إنه مش مريض

ينظر إليها أحمد جاسر معاون النيابة محاولا إستيعاب كلماتها فيتدخل أسامة قائلا

- يا مريم إحنا عازمين أحمد بيه علي الغدا مش عشان نتكلم عن واحد قتل مراته، وهل هو مريض نفسي أو لا

تُخرج مريم كشكولا من حقيبة يدها باحثة في أوراقه حتَّى تقف عند ورقة معينة قائلة

- بص كده يا أستاذ أحمد، شوف هو كتب إيه وشطب عليه بعد ما خلّصه

تبدأ مريم قراءة ما أشارت إليه بصوت عال

" يعيش الإنسان عمره كله ينتقل بجسده بين الليالي والأيام والسنين. لا يشغله شيء سوي أن يملأ ذاكرته المثقّبة كما الغربال . يعيش ليموت، ويموت لأنه قد عاش . فلولا الحياة ما كان الموت، ولولا الموت ما كانت الحياة. يعيش مبرما معاهدة مع نفسه مصالحا إياها، تلك المعاهدة التي تنفضّ وتتفسّخ بنودها

إذا ما قابل في رحلة العمر نقيضه . وقتها سيعرف نفسه التي لم يكن يعرفها، سيكتشفها علي حقيقتها، ويتيقن من دناءة نفسه وحقارة روحه، وأنه كان أهون وأسلم أن يضع يده في يد الشيطان فيأتمنه ويأمن جانبه ولا يأتمن أبدا روحه أو يعاهدها "

يأخذ معاون النيابة أحمد جاسر الكشكول منها مقلّبا في أوراقه قائلا

- الأول بس إنتي جيبتي الكلام ده منين؟!

تجيبه مريم في تردد ناظرة إلي أسامة

- من أسامة

ينظر أحمد إلي أسامة معاتبا إياه علي فعلته قائلا

- دي أوراق المفروض إنها ضمن أحراز قضية، يعني اللي حصل ده غلط وغلط كبير كمان

يتلعثم أسامة قائلا

- والله هو الفضول يا أحمد بيه

تحاول مريم نجدة أسامة من موقفه الذي لا يحسد عليه قائلة

- السؤال اللي بيفرض نفسه هنا، هو ليه شطب علي المقطع ده وكتب عليه لاغي

تنجح مريم في جذب إنتباه أحمد حينما تجده قد إلتفت إليها فتكمل بحماس محاولة طرح فكرتها وتثبيت أركانها أكثر قائلة

- لأن ببساطة المقطع ده كافي أوي إنه يدي إشارة بإننا قدام حالة أنفصام . هو هنا رغم مرضه إلا إنه ذكي جدا، لدرجة إني تخيلت إنه كان سامعني أنا وأسامة لّما كنا بنتكلم عنه

يتدخل أسامة قائلا

- بمعني؟

- المفروض إنه بيكتب رواية عن روائي مشهور، مراته بتخونه، إلا إنه ومن غير مقدمات وقف فجأة عن السرد وإبتدي يتكلم عن نفسه وعن مراته وعن أخوه، كأنه بيكتب روايتين، رواية عن نفسه كسيرة ذاتية، ورواية عن حد تاني. ده غير إنه رافض تماما فكرة إنه مريض نفسي، ومش رافض وبس ده كل مأخذ وكل نقطة خلتني أقول عليه إنه مريض هو بيفندها وبيضعفها..

تنظر مريم في وجوههم فتجد أن حديثها قد سيطر عليهم وجذب إنتباههم كاملا فتكمل

- أنا لما إتكلمت عن تطابق الأسامي، لقيته هو نفسه بيقول إنه مصادفة مش مقصودة، ولّما أسامة سأل إن كان هو زعلان إن مراته مش خاينة، لقيته بيجاوب أسامة وكأن السؤال كان موجه ليه مش ليا، لقيته بيقول مفيش حد في الدنيا يتمني إن مراته تكون خاينة..

يتدخل أسامة مقاطعا

- يعني إيه بيجاوبني؟

تأخذ مريم الكشكول من أمام معاون النيابة قائلة

- أه بيجاوبك، وكأنه كان قاعد معانا في المطعم بص كده

يأخذ أسامة الكشكول لينظر الي ما كتبته فتكمل مريم حديثها

- الموضوع مش مجرد تطابق أسامي وبس، هو أه الأسامي متطابقة بشكل غريب، ده حتَّى أخوه سامح قصاده شخصية إسمها سماح اللي هيا أخت عرفة

يقاطعها معاون النيابة قائلا

- تقصدي إيه بتطابق الأسامي

- أه نسيت، أنا قولت لأسامة ومقولتش لحضرتك، لو بصيت علي الرواية، هتلاقي إن إسم رفعت قصاده إسم عرفة، وإن إسم أماني قصاده إسم أمنية، وإن إسم سامح قصاده إسم سماح . ده حتَّى علية اللي هيا مرات صاحب عمره هتلاقي قصادها إسم علي تلميذ عرفة . في البداية قولت رغبة ساذجة من كاتب إنه يضيف لغز أهبل لروايته، لقيت إن الموضوع مش مجرد رغبة . ده كل الشخصيات اللي صنعها خياله فيها منّه. لّما إبتديت أقرا وبناء علي تطابق الأسامي قولت إن رفعت هو عرفة، أو تحديدا وزي ما قولت عرفة هو نقيض رفعت. الكاتب المنافق المداهن للنظام اللي بياكل علي كل الموائد واللي محدش بيقراله قصاده عرفة المشهور المعارض للحكومة، ده حتَّى لقب العيلة ده رفعت الموس وده عرفة الزاهد. هنا قلت إنه ساخط علي نفسه وعشان كده صنع عرفة من مخيلته. إلا إن كان دايما في حاجة بتخليني مش متقبلة الفكرة، لأن رفعت وزي ما

هو واضح وبرغم فساده إلا إنه كان متصالح مع الفساد ده، عارف إنه خاين وفاسد وعاجبه حاله كده..

يقاطعها معاون النيابة

- إنتي قولتي إن عرفة في الرواية مراته بتخونه، مش يمكن هو كرفعت بيبرر لنفسه، بيقول فيها معناه إنه لو كان محترم كان بقي مصيره إنه يتخان؟

- قصدك خط دفاع، إسقاط نفسي، محاولة منه لتجميل فساده والتصالح مع ذاته أكتر. ممكن ده وخصوصا لو بصينا علي أماني وكلامها عن الخيانة هنلاقيه هو نفس كلام رفعت ونفس مبرراته عن الخيانة . رفعت مكتفاش إنه صنع نقيضه اللي علي هيئة عرفة، ده كمان صنع شخصيته هو كمان واللي علي هيئة أماني . وبكده كسب نقطتين، إنه وجد في روايته اللي يدافع عن الخيانة وده برده خط دفاع ليه والنقطة التانية إنه إنتقم من نفسه، محاولة منه إنه يريّح ضميره من ناحية زوجته أمنية وعشان كده خلي أماني خاينة..

يقاطعها أسامة قائلا

- يعني كده وعلي حسب كلامك. مرات رفعت هيا اللي بيقابلها أماني مرات عرفة. وانتي قولتي قبل كده إن كل الشخصيات فيها منِه

- أمنية هيا أماني لكن فعلها هو رفعت، ومش أماني بس ده كمان علي تلميذ عرفة . رفعت هو أماني، هو عرفة، هو علي

يقاطعها معاون النيابة

- أنا مبقتش فاهم حاجة

بحركة من يدها كإشارة علي التمهل تجيبه

- بالراحة بس. إحنا قدام مريض يكاد يكون عبقري. بيساوي الخيانة بالحب وبيوجد ليها المبرر بمنتهي السلاسة واليسر، بيوجد مبررات قوية للصفات الوحشة اللي في حياتنا. هتفهم كلامي أكتر لمّا أقرالك المقطع ده كمان، وخد بالك هو برده لاغيه

تأخذ الكشكول من علي المنضدة، تقلب في أوراقه حتَّى تصل للمقطع المنشود قائلة

- أهو..

الكلمات تتعثر علي لساني، تأبي التكوّن والميلاد، تظل في العقل نطفة وكأن حبلها السري قد إنقطع عنها. الحب إذا وُجد كانت الخيانة، فكلاهما وجه لعملة واحدة وعلي قدر الحب تكون الخيانة. تعيبون علي الخائن أن قلبه سليم معافي لا يعلق بجدرانه شيء يترسب فيسد شرايين عاطفته، أم تعيبون عليه التحرر من قيد الحب وأغلاله. لم تحسبون الخيانة فعل قمئ وتصفون صاحبها بأبشع ما فيكم. تعدّوها الطعنة الأكثر إيلاما التي تصل إلي حد القتل بينما هي فعل واجب من أساسيات الحب . فالحب يولد كنسمة هواء، تلك النسمة التي تصيبك في القيظ الشديد فيرتجف لها جسدك الذي سرعان ما يعتادها مع مرور الوقت، يألفها حتَّى يملّها أما الخيانة فهي الإعصار الذي يقتلع الشئ من جذوره. فإذا كان الحب

قويا تمتد جذوره إلي أسفل وأسفل سيصمد وتصبح الخيانة هنا ليست أكثر من عملية إختبار لذلك الحب، فعل حركة له رد فعل مساو له في القوة ومضاد له في الإتجاه . فالخيانة في تلك الحالة لن تفعل شيء سوي تقوية ذاك الحب، أما إذا نجح إعصار الخيانة في خلع الحب وجذوره من القلب فهو لم يكن حبا بل كان شيء اخر، أو أنه حب ضعيف هش لا بكاء عليه ولا ندم. تعدون الخيانة دناءة؟، لم لا تحسبوها أمرا واجباً لتجنب الخسارة، لم لا تعدوني أني لم أكن أريد الخسارة، لم أكن أريد أن أخسر كل شيء. كيف لي أن أشحذ كل عواطفي وما أملكه من مشاعر وأشحن كل هذا علي عربة واحدة تسير فتفرغ كل حمولتها علي ميناء قلب واحد. أوَ ليس هناك إحتمال ان تحترق تلك العربة قبل وصولها. أو حتَّى يغزوا الغزاة ذلك الميناء فيصير حبي مغنما ومكسبا لهم. كل ما فعلته أني إستأثرت لنفسي ببضع من مشاعر، لا تضر ولا تنفع أحدا غيري. أنا لم أكفر بالحب، لم أغيّر عقيدتي ولم أبدّلها انا فقط غيرت قبلتي..

يصمت ثلاثتهم، يساعدهم علي ذلك النادل الذي جاء ليرفع صحون الغذاء واضعا بدلا منها ما طلبوه من مشروبات

تقطع مريم الصمت قائلة بعد إنصراف النادل

- كلامه صح، صح؟

يستمر الصمت لحظات أخري، وعندما يتبين لها أن خطيبها ومعاون النيابة لن يجيبوا سؤالها، تتبرع بالإجابة بدلا عنهما قائلة

- صح.. كلامه صح شكليا، وانتو إتكسفتوا تقولو إنكم إقتنعتم بوجهة نظره

يخرج أسامه عن صمته قائلا

- مش موضوع إتكسفنا، بس هل هو منطق إن عشان نقيس قوة الحب يبقي لازم نعرّضه للخيانة

يتشجع معاون النيابة فيكسر هو الأخر صمته قائلا

- أصلا القياس بتاعه باطل، الحب مش حاجة مادية عشان نحطه في قوانين وحسابات

- وعشان كده قولت شكليا كلامه صح، الغريب في الموضوع إنه كتب علي لسان أمنية مراته إنها عارفة إنه بيخونها، وإنها ساكتة عشان بتحبه، وده بيأكد وجهة نظره

يستفهم معاون النيابة سائلا

- وهل فعلا مراته كانت عارفة إنه بيخونها؟

- هو كتب كده، وأنا معرفش إمتي هيا عرفت، هل واجهته، بس مظنش. لأن معرفتها مكنتش قايمة علي دليل، ده كان مجرد إحساس ست بزوجها

يقاطعها معاون النيابة

- أو يمكن هو قالها

- معرفش، أنا لسه مكملتش الرواية، بس اللي أعرفه إن الأنا عنده عالية أوي، ده فاكر نفسه إله

يعلو صوت أسامة قائلا

- أستغفر الله العلي العظيم

تقاطعه مريم

- إستني بس هو شايف نفسه إله بس مش بالطريقة اللي إنت فهمتها، هو إله بطريقته

- وهيا دي فيها فهمتها ومفهمتهاش وطريقته

- أه فيها وليه فيها وجهة نظر نُحترم كمان

يحملق أسامة في وجهها فتكمل مريم

- هو عرفة ده شخصية موجودة فعلا؟

يجيبها معاون النيابة

- لا

- يعني هو اللي صنعها، هو اللي خلقها من خياله، هو اللي بيسيرها وبيكتب مشاعرها. بيخليها تفرح وقت ما يحب، وتحزن وقت ما هو يحب . وعشان كده هو شايف نفسه إله عرفة، إله مش في معناه المطلق يعني يا أسامة

تسود حالة من الصمت يقطعها معاون النيابة

- يعني إنتي عايزة تقولي إنه مش مسئول عقليا عن قتل مراته

- مقدرش أقول كده، لأني زي ما قولت، لسه مكملتش الرواية، ده غير إني لازم أقابله وأقعد معاه مرة وإتنين

بإندهاش ودون تحكم يجيبها أسامة

- تقابلي مين يا ماما؟!

- أقابل القاتل

يزداد إنفعال أسامة فيعلوا صوته

- ومين هيسمحلك بكده؟!

يتدخل أحمد حتَّى لا يحتدم الأمر أكثر قائلا

- إهدي يا أسامة بيه، أنا معرفش إن كان ده ينفع أو لا

- يعني يا أحمد بيه إنت شايف إنها عادي إنها تقابله، المشكلة بس إنك مش عارف هل ده ممكن ينفع أو لا؟

تقطع مريم حديثهما قائلة

- الموضوع أبسط من كده يا أسامة، ودي مش أول مرة أقابل النوع ده، متنساش إني دكتورة والحالات دي كتير عدّت عليا

برغبة من معاون النيابة بغلق الحديث في هذا الأمر يجيب

- عموما الموضوع ده سابق لأوانه، أنا لازم أقوم دلوقتي لأني نيابة مسائية النهارده

يتبعه أسامة قائلاً: ومريم كمان أتأخرت.. يللا يا مريم عشان أوصلك..

" أمانى "

ينظر إليها خلسة. يتأمل جسدها الوضّاء العاري المستلقي على فراشه. يجوب بعينيه منحنياته فيناديه نهدها المكتنز الفائر الذي كان يصرخ بين يديه من دقائق. تصعد عيناه فيرى عنقها الأبنوسى الذي كان يجوبه بلسانه أيابا وذهابا زارعا فيه رغبته الحميمة وشهوته التي كانت تأتيها عضات بأسنانه . يري عينيها المغمضتين من بين خصلات شعرها التي حرمته تأمل وجهها، لا يدري أن كانت نائمة أم أنها تغمض عينيها لاستجماع ما تبقى من متعة ترغب في التسرب من جسدها المستلقى . تهبط عيناه فيراها ثانية أحدى قدميها على الأخري ليظهر فخذها برّاقا يؤجج هوى المتعة منحوتا في دقة راسما خطا بين الفخذين ناداه كثيرًا واستفزه فشقه بسكين شهوته. يؤلمه صدره فيتحسسه ناظرا ما ألمّ به فيجد خربشات أظافرها ظاهرة جلية على صدره وكأنه خرج توا من حرب طحون...

يعيد النظر الى جسدها العاري وقدميها التي رفست الغطاء في كل مرة حاول أن يدثرها به. كل شيء فيها يدعوه لها، شفتيها أبار فتنة أذيب فيها سر الفراش الأعظم، عينيها واحة وارفة تحوي كل أسحار الدنيا تنادي فتسلب وكأنها منبع ومنبت كل أمرأة خلقت لتكون جميلة، جسد غض جُسّدَ فيه كل شيء علي حدة بعناية ورفق فكان كما تمثال صنعه أبرع نحاتين الأرض والذي مهما نظرت أليه وملأت عينيك بجسمه ورسمه وتفاصيله فستجد يدك رغما عنك تمتد للمسه

وتحسسه. كان ما زال على جسدها بقايا من علامات محمرة رسمت بصمات أصابعه وكأنها صحيفته الجنائية التي أثبت فيها أنه كان أهلا لها. عرفها وفك طلاسم جسدها عندما وطئها أول مرة، جامحة، وحش ضاري لا يقبل الأستئناس، نار تزهوا ويعلوا جذوها في كل مرة كان يحاول فيها أخمادها. يتسلق بها هرم الشهوة فتصرخ وتئن وتتلوى جاحظة متخشبة كمن تلبّسه جان فتهدأ لتعاود من جديد وكأن شيئا لم يحدث وكأن النار لم تنطفئ. عرف على يديها الجنس وأدمنه. لا ينكر أنها في كل مرة أتته لينكحها كان تأتيه وفى جعبتها ما يدهشه. الجنس عندها حياة، عالم مختلف عما رأه وفُطر عليه، بئر مالح ماؤه في قلب صحراء قاحلة يمر عليه تائهاً فيغب منه لسد عطشه فيشرب دون أن يرتوى..

يناديها

- مانو

تتململ في فراشها فتتقلب معطية أياه ظهرها فيظهر أسفلها ناعما مضيئا تغشاه الأعين

يعاود النداء فتجيبه دون أن تلتفت بجسدها أليه

- نعم.. عايز أيه، سيبنى أنام

- تنامى أيه قومى مفيش وقت

يغادر كرسيه مقتربا من الفراش واضعا يده على منكبها قائلا

- قومي يا مانو، أنتى أتأخرتى كده لازم تمشي.

تلتفت إليه نائمة على بطنها قائلة له بنصف عين:

- أتأخرت عن أيه؟. أنا مش قايلالك ان عرفة في اسكندرية؟

- طب قومى أقعدي عشان عايزك

تطاوعه جالسة ساندة ظهرها على مسند الفراش ساحبة سيجارة من جوارها قائلة

- نعم يا على، عايز أيه

يلقى أليها شيئا من ملابسها:

- البسي

تجمع ما ألقاه لتلقيه هي الأخري على الأرض قائلة:

- أنا هبات معاك النهاردة

- أسمعينى بس أنا عايزك في موضوع مهم

تغادر فراشها كما هي عارية كيوم ولادتها، تجلس على مقعد أمام مرأة ساحبة أحد الأمشاط لتبدء فى تصفيف شعرها قائلة دون اهتمام

- موضوع أيه؟

- طبعا أنتى عارفة أنى أتقدمت لسماح وأكيد عارفة أن عرفة وافق

- أه عرفت، في الأول كنت هولع فيك، بس حسبتها لقيت أن كده أحسن لينا. هو بس المشكلة أننا مش هينفع نتقابل هنا، أحنا كده لازم نأجر شقة

- ونأجر شقة ليه؟

تلتفت إليه:

- أيه أنت ناوى تتجوزها في شقتها؟، تصدق فكرة، وتفضل الشقة دى فاضية نتقابل فيها براحتنا

ببطء متحاشيا النظر لها:

- لا ما هو أحنا مش هنتقابل تانى.

تحدق أليه قائلة بنبرة عالية:

- يعنى أيه مش هنتقابل تانى؟، قصدك أيه؟

- قصدى أن دى هتكون أخر مرة نشوف بعض فيها

- برده مش فاهمة

يعلو صوته فجأة قائلا في حدة

- هو أيه اللى مش فاهماه بقولك مش هنتقابل تانى، مش هنشوف بعض تانى، مش هقدر أكمل معاكى، من الأخر قرفت من نفسي

تغادر كرسيها منحنية تجمع ملابسها المبعثرة بادئة في ارتدائها قائلة

- أنا همشى، هكلمك بكرة تكون أحسن

يقبض على يديها ناظرا في عينيها بتحد قائلا

- لا بكرة ولا بعده ولا أي يوم خلاص أنسي اللى كان

دون مقدمات تصرخ قائلة

- أنسى؟!، ببساطة كده؟، أزاى..؟

- أه ببساطة أنا مبقتش قادر، تعبت، كل مرة بقابل فيها عرفة وعينى تيجى في عنيه بتقطع، بحس أد أيه أنا وضيع، خسيس عضيت الأيد اللى أتمدتلى بالخير

- وهو انت مكنتش بتبص في عنين عرفة ألا النهاردة؟!، مفتكرتش أنه له فضل عليك ألا النهاردة؟!، كان فين ضميرك أول مرة وأنت بتضحك عليا، كان فين وانت بتسحبنى لحد هنا أول مرة

بلهجة عنيفة

- أنا مضحكتش عليكى، مش أنا اللى سحبتك لحد هنا وأنتى عارفة

- حمل وديع يعنى وانا ضحكت عليك

- لا ضحكت عليكى ولا ضحكتى عليا بس كفاية بقى، كفاية خيانة، كفاية قرف. أفرضى عرفة عرف وضعنا هيكون ايه؟

- سهلة، أطلب الطلاق ونتجوز

يقترب منها، يهزها من كتفيها قائلا بحدة

- أنتى ايه؟!، شيطان. عرفة ميستاهلش كل ده

تصرخ في وجهه صرخة تشق أذنه قائلة

- ولا أنا.. ولا أنا أستاهل كل ده، بتتكلم عن القرف وكأنك لوحدك، بتتكلم عن الخيانة وكأنك أنت بس الخاين، ناسي أنى زيك، معذور أصلك مجربتش أحساس أن واحدة تكون لأكتر من راجل، مجربتش يعنى أيه أكون في حضن راجل المفروض أنه جوزى وعقلي وخيالى مع راجل تانى، مجربتش تكون

في حضنه وتبقى مرعوب أحسن لسانك يخونك وينطق بأسم حبيبك، عايز تعرف القرف اللى بجد القرف اللى بجد أن العاهرة بقت أنضف منى وأحسن، أهو على الأقل مبتدّعيش حاجة مش فيها

- وأيه اللى جابرك يا أمانى، يبقى خلاص منتقابلش تانى

- مينفعش، خلاص يا على مينفعش، روحنا ماتت يا على، أتمكنت

مننا الخيانة، بقت عايشة جوانا، بقينا عايشين بنتنفسها

- ندى نفسنا فرصة نبدا فيها من جديد. ابدأي مع عرفة من أول وجديد، وانا أبدأ مع سماح

- أه قول كده.. سماح

- أه سماح

- بص يا على أنت مش نضيف ولا حاجة، ولا قرفت ولا حاجة، وعرفة وضميرك ميفرقوش معاك، أنت بس كل القضية أنك نقلت العطا، لقيت حد تانى تتسلق عليه، تبنى عليه أحلامك، تمص دمه وتاكل لحمه

ينفعل على بشدة قائلا

- سماح ملهاش علاقة أنا فعلا تعبت وقرفت منك ومن روحى

تصفعه على وجهه فيردها الصفعة فتسقط أرضا نازفة من فمها . تتكور على نفسها باكية في شده فينحنى إليها ليوقفها ماسحا بيده خط الدم السائل من شفتيها قائلا

- كفاية يا أمانى، أحنا كده بنصعبها على بعض، أعتبري أن اللى كنا فيه حلم وصحينا منه، أعتبريه محصلش، فوقى يا أمانى

تنظر مليا في وجهه قائلة

- أعتبره محصلش! تمام، وانت تروح تتجوز سماح، وانا أعيش زيي زى أي عاهرة، بلاش عاهرة، خليها زوجة خاينة فرطّت في شرفها. لا يا على أنسي الكلام ده، أنت ليا وانا ليك..

- لا يا أمانى أحنا مش لبعض ودى أخر مرة هتشوفينى فيها

تزمجر

- أنت حر لكن أعمل حسابك أنا مش هسكت ومش هسيبك

للوسخة دى تتهنى بيك، أنا هقتلها، والله هقتلها، وأن حكم الأمر هقتلك أنت كمان

يصفعها بقوة قائلا

- متشتمهاش دى جزمتها أنضف منك

تنقض عليه محاولة ضربه فيكبل يدها بيده قائلا

- ملكيش دعوة بيها، أبعدى عنها

- هقتلها وهقتلك أنت كمان

يتركها جالسا على طرف الفراش لتجلس أرضا معاودة البكاء والنحيب

يستمر الوضع لدقائق لتقف قائلة

- بعد أذنك عايزة البس هدومى

ينظر أليها متعجبا قولها مغادرا الغرفة فتشرع في أرتداء ما تبقى من ملبسها غير عابئة بالدموع المنهمرة من عينيها لا يشغلها غير الأنتقام من سماح ومن على الذي يريد مفارقتها...

****

من دفتر مذكرات دكتورة مريم فاروق

لا أدري من أين يكون البدء. الكلمات تتوه، تتضائل من هول ما قرأت. في عقلى الكثير والكثير لكن جعبة لغتى تضن علي قلمى أن ينهل منها فيعبر. ظننته في البداية روائي أوحي له خياله بقصة ما فشرع بسطرها على الورق. لكنى فوجئت به يقتطع سرده ليكتب عن نفسه وعن من حوله وكأن عقله صار حافلة ركاب يكب أناس مغايرون مختلفون عند كل محطة وصول، أناس لا يجمعهم شيء سوى أنهم كانو شركاء حافلة واحدة منذ دقائق، كلماته مكتوبة بمداد العتمة، باهتة، تائهة تهاجم نفسها قبل أن تهاجمك. رفاعى أخرج ثعابينه من جواله دفعة واحدة ليلقيها امام الناس ليغشي أعينهم ويلهب عقولهم ويسلبها ففقد السيطرة على أفاعيه فزاد فحيحها ليسود الهرج والمرج والتخبط. لا أعلم إن كان ما يكتبه عن عالمه حقيقي أم أنه من وحى خياله. شخوص وأحداث متداخلة تتعقد دون نظام أو ترتيب وكأنه ضل السرد فبانت عورة ما كتب. أجهل أن كان تشابك الأحداث وأمتزاج العالم الذي يكتب عنه بعالمه مقصودا منه أم أن الأمر جاء مصادفة منه دون أن يشعر، لا أعرف إن كان حديثه عن نفسه وعن من حوله قد حدث أم أنه إستكمال لما بدأ من خيال...

ليست الرواية فقط وتداخل أحداثها وتشابكها هو ما يدعو للغرابة والدهشة بل قسوة طريقة قتله لزوجته هي الأغرب والأعجب، طريقة يحسده

عليها صانعو أفلام الرعب والموتى الأحياء ورغم ذلك وجدناه يكتب عنها وعن ما فعل بمنتهى السلاسة والهدوء والظرف أحيانا. المشهد العام يوحى بطريقة قتل أيروتيكية فعلها صاحبها لهوس جنسي في نفسه أو أن زوجته قد خانته فأراد أن يحرمها من أدواتها ومما يميزها كأنثي . ذلك هو التفسير الأقرب والصورة الأوضح لما فعل. لكننا لا بد أن لا نغفل أنه في القديم كانت هناك أديان يقدس فيها فرج المرأة وثديها أعتقادا منهم بأن الفرج هو أصل الحياة والثدى هو ما يجعلها تستمر، فلو كان صاحبنا يقصد هذا من قطعه لنهدى زوجته وغرس سكينه بين فخذيها فالأمر هنا يختلف والأحتمالات هي الأخري تتغير...

رفعت لم يقتل زوجته فقط بل قتل فيها الحياة بأسرها، أعلن رفضه بتشويه ما يدل على الأستمرارية فيها. كان يستطيع خنقها مثلما قال أو حتَّى ذبحها لكنه أراد فلسفة عملية القتل، أراد قتل كل شيء فيها، أراد أن يعلن مقته للعالم الذي يحيا فيه فقتل زوجته وفعل بها ما فعل...

هذا تخمينى والذي أراه الأقرب للصواب، هذا إن لم تأت صفحات الرواية المقبلة بما يغير قناعتى تلك. تلك القناعة التي يعززها أختياره لأسم الرواية وعنونته بها، فتجربة "شرودنجر" وكما نعلم هي تجربة ذلك القط الذي وضعوه في صندوق مغلق ليتساوى لديه أحتمال العيش والموت ويصبح هناك أحتمال ثالث مضاف بأنه لا حي ولا ميت . فاختيار رفعت لهذا العنوان مثال جلى أن حتَّى الموت عنده أمر نسبي يقبل الأحتمال كما الحياة نفسها، كل شيء عنده غير

حقيقى يقبل الأحتمال حتَّى الحقائق المطلقة، حتَّى العالم الذي يعيشه وهذا ظهر واضحا في جملته التي كتبها بأصبع القتيلة.." أرسم هذه العوالم وأعيش فيها كما أريد.. كل إختياراتي صحيحة لكنها مع الأسف خاطئة " . فلو أمعنا النظر فيما كتبه لوجدناه يقولها صراحة أن ما من شيء حقيقى حتَّى العالم الذى يحيا فيه وأن كل شيء عنده يقبل الممكن، والصواب هنا خطأ في موقف هناك حتَّى النفس البشرية...

فالنفس البشرية يراها رفعت دنية قبيحة لا تستحق الحياة، شخوص روايته أو حتَّى من يعيشون حوله والذين ذكرهم في سرده تتملكهم علة نفسية ما تجعل أفعالهم معوجة غير مستقيمة حتَّى من كان ظاهره أنه معافىً نفسيا. كل شخوصه شائخة لا تطرح ووجب جزها حتَّى نفسه. فهو لا يري نفسه بزوج ولا أخ ولا بكاتب غير أنه متصالح مع كل ذلك مستقيم مع دنائته معللا أن ذلك من بديهيات الحياة، وهذا ما يفرقه عن البقية، فأمنية زوجته مثلا ورغم يقينها من خيانته ألا أنها لا تستطيع أخذ موقف واحد يحيى كرامتها المذبوحة على عتبات غطرسته وخيانته، ترى أنها تحبه رغم تبلد مشاعر وقسوته، وذله لها، وكأنها تتلذذ بتعذيبه وخيانته، نوع من السادية والتمتع بالعنف. تحيا بعذابه وتستمر بخيانته...

علية عشيقته، زوجة صاحب عمره ورفيق دربه والتى دفعت ثمن خطيئتها مقدما. لا أستطيع أن أصفها بالخائنة ولا يصح نعتها بالشريفة فكل ما أستطيع قوله أن ما مرت به يجعل ما هي فيه الآن محصلة طبيعية النتاج. فالعنف الأسري

الذي حيته جعلها تتعلق بشدة بوالدها الطيب الذي لا حول له ولا قوة، وجعلها أيضًا تكره كل زوجة وكل أم تذكرها بوالدتها الخائنة والتى لم تكتفى بخيانتها بل ووصمتها بما فيها لتدمر فجأة كل شيء حولها وتهيل عليه الردم، فيموت الأب منسحبا في هدوء كما عاش في موت فيتركها بين يديهم لقمة سائغة يلوكونها متى جاعوا وكيفما شاؤوا...

فى رأيي أن علية عندما خانت لم تكن خيانتها لعجز زوجها الجنسي ولا لرغبتها في رفعت ولا غير ذلك من الأمور . بل كانت خيانتها أنتقاما من كل ظالميها، أنتقاما من الأم والأخ، أنتقاما من أبيها الذي صدق بهتانهم عنها، أنتقاما حتَّى من نفسها التي كانت سببا في وفاة أبيها فكانت خيانتها لزوجها الذي لم يشفع له حنوه عليها وحبه لها. أما زوجها، محسن صديق دربه، دكتور الجامعة المتصالح مع علة جسده والذي تربي يتيما هو وأخته ليواجه القهر داخل البيت وخارجه، فكبر ساخطا على كل شيء حتَّى على كنيسته، يعيش معزولا في جزيرة وحدته عن من حوله رغم قربه منهم مكتفيا برمى حجر في المياه الراكدة ليعاود بعدها العزلة، يعطف على الجميع وهو في أشد الحاجة للعطف، يؤمن بالأخر الذي يرفضه فيزداد شعوره بالعزلة والعجز. متدين لدرجة أنه رغب في الرهبنة ألا أن زواجه وقف حائلا أمام ذلك، وهذا ما أجج غضبه من كنيسته...

أما سامح أخو رفعت العاشق المتخاذل المستسلم لشر رفعت وقهره والذي يرى في تخاذله تضحية. يعارض وينقد ولا يجد مانعا في أن يتوسط أخيه له ليفرج

عنه لينكر تلك الوساطة ويرفضها. يجهر بحبه لزوجة أخيه ثم يرجع ليؤكد تضحيته ويؤكد صمته واستسلامه. ومثل سامح يكون جوزيف ذلك الشاب الساخط الكاره لكل شيء والذي يري في نفسه ضحية لأفكار مجتمع عنصري ورغم ذلك تجده يتبنى مثل تلك الأفكار وأكثر منها...

هذا الواقع الذي يعيشه رفعت والأفراد الذين حوله أما أشخاص روايته فحدث ولا حرج فهناك عرفة نقيضه في كل شئ، شخصية مائعة السرد لم يظهر تكوينها ألى الآن حتَّى أستطيع الحكم عليها وكأنه ارادها كذلك حتَّى يثبت لنفسه وللبقية أنه على صواب وأن نقيضه المحترم المعارض المحافظ على كلمته وحق قرائه مائع غير واضح تخونه زوجته أمانى وتلميذه "على " الذي قتلوا أباه أمامه وفارقته أمه وجاء الأمن لقتل ما تبقى فيه فخرج للحياة مخوخا فارغا متسلقا يعرف من اين يؤكل الكتف...

ومثل على تأتى "سماح" أخت عرفة والتى تعرف بخيانة زوجة أخيها ورغم ذلك تتغاضى عن الأمر بل وتوافق على الزواج ممن يخونه...

فى النهاية ما كتبته هو نتاج ما قرأته من صفحات ولربما تأتى صفحات أخري بالجديد الذي يجعلنى أعيد النظر فتتملكنى قناعات جديدة غير التي كانت...

مريم فاروق

****

أيها الموت، كعادتك، غادر مخادع،
نزالك لا شرف فيه ولا مروءة،
تأتينى وقت ضعفي،
فإن كان لا شئ ينقذني منك..
فعاملني ولو مرة كما ينبغي،
وواجهني إن استطعت.

" رفعت "

أنا رفعت الموس أردت كل شيء وفرطت في كل شيء. أردت الصديق فأهدرت كرامته، أردت الحبيبة فخنتها، أردت الحياة فعشتها بقلب ميت لا ينبض، أردت أن أعطي فصرت لا أعيش إلا لأن أُخذ، وسأظل أريد وسأظل أفرط إلي أن تأتي النهاية التي سأكتشف فيها أني كنت أركض في الطريق الخطأ، سأكتشف أن كل ما بنيته من قلاع ومن حصون كنت قد بنيتها علي أرض هشة يموج تحتها بركان غاضب يوشك أن ينفجر. سأموت مندهشا متعجبا لأنه لو واتتني الفرصة ورجعت مرة أخري وعدت فسأعاود الركض في نفس الطريق معاودا البناء في نفس البقعة منتظرا إنفجار البركان وسلام الموت...

تلك هي الحياة التي ليست أكثر من منافسة غير شريفة يريد فيها كل منا أن يكون المجرم لا الضحية وكنت أنا المجرم لأني كنت أقل من تمسك بمبادئه بل كنت أول من إفترش بها علي قارعة الطريق ليبيعُها لأول من أراد شرائها. تتعجبون من شري!. خذوا بنادقكم وكذلك باقي أدوات صيدكم واستعدوا لرحلة صيد طويلة عميقة بأدغال أنفسكم، اقتلوا فيها كل ما يقابلكم من شر . ستفاجأون أنكم لم يعد لديكم شيئا ليحيا . فأنتم بلا شر محمية متحجرة خاليه من أي حياه فلا شر مطلق ولا خير مطلق كل شر فيه شيء من خير وكل خير فيه شيء من شر لذا لا تحاولوا أن تنزعوا من قلبكم شركم، حتَّى لا يُمحي الخير دون أن تدروا . أما أنا فأنا لست كغيري، لست مثلكم، ففي نفسي قد حسمت الحرب

رغم عدم إعلان المنتصر، فالمعارك تبدأ وتنتهي لتصنف من هو الباقي ليس إلا، ولقد بقي في نفسي الشر وسيطر. ذلك الشر الذي لن يستسلم أبدا، ولن يُلقي سلاحه ويغادر إلا بلفظ أخر أنفاسي، شر لا يعرف الصلح أو المهادنة ولا الوقت المستقطع...

أنا رفعت الموس أكثركم بطولة ومجدا.. أنا الذي يحتضن ذنبه بقلبه، أنا الذي يكتب شره بيده، أنا الذي يعلم أنه عاري الشرف.. من منكم مثلي يري سوئته فلا يقطف من أوراق الشجر فيداريها. زينتكم باهتة وورق شجركم رقيق شفاف يفضح أكثر مما يستر، لذا لا تطلبو مني الفضيلة يا سكان مدينتها، فالفضيلة التي أراها فيكم نوعان، نوع تنصحون به دون أن تمارسوه أو تطيقوه ونوع أخر تمارسوه لكن بتأفف منتظرين أول فرصة للإستغناء عنه.. أنا لا أطيق فضيلتكم ولا أريدها...

أعلم أن روايتي لا تعجبكم، أعلم أنكم تستنكرون الكلمات القبيحة والخيانات الفجة عندما تقرأوها علي الورق لكنكم في الخفاء أهل لها، فما كتبته هو غرسكم، وما سطره قلمي وصنعه خيالي هو زرعكم. ما فعلت سوي أني عرضت عليكم بعضا من حصادكم، فإن رأيتموه غير لائق منافيا الذوق العام فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمحرضكم ولا أنتم كنتم تنتظرون تحريضي...

ايها الخائنون تلك هي دنياكم، إخسئوا فيها ولا تكلمون . تلك هي أقاصيصكم أنا فقط وضعتها بين أيديكم. لذا سأكتب، سأعريكم، سأضع

أرواحكم الخربة المحملة بقباحات الدنيا على طاولة أوراقي، سأشرّحها بمبضع قلمي، سأكتب وسأكمل روايتي إلي أخرها وسأبوح بكل شيء رغم أني أعرف أني أتكلم وأكتب خشية أن يأتي دوري لأستمع إلي حق فأتعلم منه فأصير إنسانا فاضلا، أنا لا أريد أن أكون إنسان فاضلا...

سيموت عرفة الزاهد، سأجعل الموت يأتيه ليزحف علي جسده شبرا شبرا فترتعد فرائضه، سأجعله يتعذب في مشهد درامي يلفظ فيه أنفاسه بصعوبة. سأجعل الموت يأتيه فجأة دون سابق إنذار هذا بعد أن يري أماني تخونه مع عليّ دون أن يروه...

سيراهم وهو علي فراش الموت ممدا مهيا له، واقفين جنب بعضهم البعض، سيبصر المشهد كاملا، سيدرك الحقيقة دون زيف أو رتوش. سيحاول أن ينطق إلا أن الكلمات سترفض، سيحاول أن يصرخ فيهما مخبرا إياهم أنه قد كشفهم وبانت له خبيئتهم إلا أن الصرخة ستعصاه، حتَّى عينيه ستحتبس فيها الكلمات حبسة أخيرة خلف أسوار الموت وجدرانه . ستصرخ روحه الغاضبة بأن الكل خانه الصديق قبل الحبيبة، الحياة قبل الموت. سيري الموت مقبلا في موكبه القدسي، يعبر الجسر في مهابة من شط إلي أخر، يراه باهتا مقفرا خاليا من كل الألوان. رايات سوداء ودخان يعم المشهد بالكامل. وبرغم أنه كان يخاف الموت ولا يريده، صار الآن يستحسنه، يعاتبه الموت علي تأخره، يواسيه لمعرفته الحقيقة التي كان لا يريده أن يراها حتَّى يموت مغفلا مرتاحا كما عاش، فيعاتبه عرفة علي

إتيانه دون موعد مسبق وأنه كان يريد أن يُمهل ليوم أخر يخبرهم فيه بأنه قد عرف خيانتهم...

ستزوغ عيناه لتتوه منها الحياة رويدا رويدا حتَّى تأفل شمسه وتغرب. فتنطفئ الحياة التي كانت له كما الشعلة التي إحترق عمره كله بنارها ولما إنطفئت غاب نورها عنه فمات تائها في ظلمة حالكة. الحياة لا تعرف الضعفاء وعرفة كان ضعيفا هشا دخل أتونها فانصهر وداب...

وسيجد عليّ نفسه واقف في أصعب قضاياه فقضية الموت ليست علي الإطلاق قضية الميت إنها قضية الباقين. سيجد نفسه واقفا بمسافة متساوية بين إمرأة يريدها وإمرأة تريده، إلا أن سماح ستحسم أمره، ستنسحب من المشهد حزنا علي أخيها واعتراضا علي ميتته البائسة، فلا يجد عليّ أمامه إلا أماني فيتزوجها ليصبح لها رجلا شهما قويا يحميها من كل رجل إلا من نفسه، لينعما سويا بحياةٍ صنعها عرفة فتنامت وكبرت حتَّى صارت وحشا فأكلته...

تلك هي الرواية وتلك هي الخاتمة التي سأنهيها بها. أعلم أن تلك النهاية ليست علي هواكم، لكن وكما تعرفون فبعض النهايات مرة كما القهوة لكنها تجعلك مستيقظا نبها. وأظن أن هذا أفضل مما كنت أريده لعرفة الزاهد وأحْتفظ له به في أخر الأمر، ففي الخاتمة الأساسية كنت قد نويت واستقر بي الأمر أن أجعله يقابل أحد الدراويش إثناء توجهه للجريدة وبطريقة ما سيتصطدما مما

سيجعل الدرويش يقع علي الأرض مصابا فيدعو عليه أن يرزقه الله التيه وتضيع نفسه منه...

وبسبب غرابة الدعوه تسيطر علي عرفة فيظل يفكر فيها كثيرًا إلي أن يأتي الليل فتأتيه قوة أمنية من الأمن الوطني لتعتقله. وفي الإعتقال يذهب عقل عرفة وتصيبه جِنّة فتطلب أماني الطلاق لتتزوج من على بعدها مستحوذة على كل ما لدى عرفة من مال...

كانت تلك هي الخاتمة التي قد خططت لها بادئ ذي بدء لقناعتي أن عرفه ومن مثله مِن مَن يسيرون في دنياهم حاملين علي أكتافهم قيمهم ومبادئهم لابدَّ أن يصابو بالجنون حتما. فالمجنون هو من رفض أن يتخلي عن قناعاته فاصطدم بأرض الواقع. هل رأيتم أحدا مرة إستطاع أن يُقنع مجنون؟! . إلا أني قررت أن أكون رحيما بعرفة فاكتفيت بموقف الدرويش وموته وانسحابه من حياة غير قادر بمسايرتها...

سيموت عرفة وتتزوج أماني من علي وستُكتب كلمة النهاية وسأسلم الرواية إلي دار النشر...

دعوني الآن أغفو وفي الصباح أُكمل ما تبقي من الرواية . فلتفسحي لي يا زوجتي الحبيبة حتَّى أهنأ بوصلة نوم ولو لساعة...

تصبحين علي خير...

****

الفصل الثاني

لا تجهد نفسك في الترحال باحثا عنها
مهما رحلت لن تجد شيئافى الجانب الأخر
لا أرض جديدة
ولا حياة غير الحياة ،،
لن تجد هناك سوي نفسك
التي رحلتْ معك لحظةً هروبك منها

(١)

أين أنا.. ما الذي جاء بي إلي هنا.. تلك الغرفة أعرفها، لا أدري سببا لمعرفتى تلك، لكنى أعرفها. ذلك البورتريه المعلق علي الحائط، تلك التسريحة وما عليها من أدوات تجميل، خزانة الملابس، كل تلك الأشياء أعرفها، كأني الذي إخترتها، واخترت ما فيها، ورغم ذلك هي ليست غرفة نومي . أخر ما أذكره أني كنت أُكمل تلك الرواية النجسة بعدما أخذت ذلك القرار المصيري بموت عرفة الزاهد في أحداثها ليصبح الجو خاليا لزوجته أماني وعشيقها عليّ، وبعد أن جف القلم من الكلمات توجهت إلي فراشي لأنام . ومن هنا أتاني النوم العميق.. فعلي مذبح القرار دائمًا ينام الناس نوما عميقا، لكن مهلا.. هذه ليست أمنية...!!

نعم ليست أمنيه رغم الشبه الواضح بينهما إلا أنها ليست زوجتي. تشبهها نعم وإلي حد كبير، لكنها ليست هي . وبغض النظر عن هذا كله كيف لها أن تنام جواري علي هذا النحو . مالذي يحدث ومن جاء بي وبها إلي هنا...

الأسئلة تنهش عقلي في تلذذ، تنبح كما الكلاب المسعورة، تنازعني باحثة معي عن إجابة، شيء غريب قد حدث، هذا ليس طبيعيا . لا يوجد تفسير سوي أني في حلم وقريبا ما سأستيقظ منه لأجد نفسي في غرفتي علي فراشي مستلقية جواري أمنية...

لا أدري سبب خوفي وهلعي علي هذا النحو، فالأولي بالهلع هى،..

تتململ الآن في بطء متقلبة علي الجنبين وكأن لا شئ يشغلها، فتحت عينيها إلا أنها كما هي لم يصدر عنها أي رد فعل ينبئ أن هناك شيئا غير طبيعي يحدث، وكأنما أعتادت النوم جواري . وبكلمات إستدعيتها مقاومة من بئر سحيق يأبي أن يملاء فمي سألتها: إنتي مين..؟

كان صوتي رغما عني مضطربا حين لفظْتُ هذه الكلمات، ولهذا أطالت النّظر إليّ، من عينيها عرفت مدي إضطرابي، رأيت صفار وجهي فيهما وعرقي المتصبب على جبيني والذي مسحته بيديّ لا إراديا ودون قصد، جوابها في البداية كان صمت وتحديق مستمر وكأنها تستشف ما وراء سؤالي لتجيب بعدها: مين يعني إيه؟ أنا أماني مراتك!. مالك يا عرفه إنت حاسس بحاجه؟، في أيه...؟

عزمت التظاهر بالتجاهل حتَّى لا يفطن حلمي أني خائف فيزيد من جرعات هلعه ويطول فلا أستطيع الإفلات من براثنه. تركتها لِتُكمل نومها خارجا من تلك الغرفة متحسسا خطواتي التي لم أكن في حاجة لتحسسها، أعرف تفاصيل ذلك البيت كما أعرف خطوط كف يدي، فأنا من وصفته بكل ما فيه وهذا يفسر شعوري وارتباطي بقطع الأثاث المتناثرة هنا وهناك وعدم إستغرابي لها...

الأن أيقنت أنه حلم سخيف سرعان ما سأستيقظ منه وأن التي

كانت جواري هي بلا شك أماني، تلك الخائنه زوجة عرفة الزاهد بطل

روايتي المأفون. الآن عرفت أني أحلم وأني الآن في عالَم عرفة أحل محله. يحدث هذا كثيرًا عندما تسيطر الرواية علي كاتبها، تسيطر عليه لدرجة أن أحداثها تطارده في الأحلام قبل اليقظة. ألم تقرؤا عن كاتب توحد مع بطل عمله؟. أحيانا يتوحد القارئ أو المشاهد مع ما يقرؤه أو يشاهده فما بالكم بالكاتب الذي يكتب...؟!

طويل وسخيف ذلك الحلم فعلا، وإن كان هناك فائدة منه تُرجيَ فهى التأكيد والإقرار بعبقريتي التي جعلته حيٌ ملئ بكل تلك التفاصيل التي تجبرك أن ترفع القبعة تبجيلا وتنحني إحتراما للعقل الذي كتب وأعد وأخرج. كل شيء حقيقي وواقعي حتَّى الألم الذي شعرت به حين خطئي ووقوعي متعثرا من علي درجات السلم فخطأ العثرة آلمني، ذلك الألم الذي يهز، ويحرك ويجرّد، ويوقظ من تلك الأحلام السخيفة إلا أني لم أستيقظ...

رجعت أليها، أيقظتها برفق لأسألها: هو أنا بشتغل صحفى صح؟

نظرت ألى في أستغراب وتمعن قائلة: لا رئيس جمهورية، بتهزر صح؟، واضح يا عرفة أن ليك مزاج تتأخر عن الجورنال.

تركتنى مغادرة فراشها لَمَا أيقنت أن النوم جفاها، يقولون أن أول ثلاث ثواني بعد الإستيقاظ يصير المرء فيهم فاقدا للذاكرة هذا غير نسيانه لكثير من

الأحلام التي رافقته إثناء نومه، أتمني أن أستيقظ ناسيا ذلك الحلم بكل ما فيه من واقع مرعب، فكل شيء كما وصفته حتَّى حجرة مكتبه التي أنا فيها الأن، نفس الكتب علي الأرفف، نفس الأسماء ونفس المؤلفين، حتَّى المكتب وما عليه من كاسة للأقلام وفتّاحة أظرف وأباجورة كلاسيكية أقرب لعصر النهضة الأوروبية والتي تُشبه صاحبها في قِدَمِهِ كما كتبت. كل شيء كتبته علي الورق صار ملموسا وواقعيا، حتَّى الورق الذي بين يديّ، أذكر أني قد كتبت أن عرفة الزاهد سيموت قبل أن ينهي روايته التي يكتبها والمفروض أن ذلك الورق الذي بين يديّ الآن هو تلك الرواية التي لن تكتمل...

أمعقول هذا؟!، أهناك حلم يحوي كل تلك التفاصيل والواقعية، حتَّى الرواية التي يكتبها موجودة!. نعم أعرف لأني من كتب هذا، كتبت أن عرفة الزاهد روائي مرموق يسطر رواية لن يُكْملها، لكن ليس لدرجة أن يكتب فعلا رواية. الغريب أن عنوان الروايه هو نفسه عنوان روايتي، والأغرب أنه يكتب رواية عن روائي خبيث يدعي رفعت الموس...!!

الخوف يقتحم قلبي متسللا في خفوت دون إرادة مني في صده. الأفكار تتشابك في رأسي تقيدني تكبّل وتشل حركتي، تجعلني سجين الحيرة التي تنهش عقلي هي الأخري كما الأسئلة التي تسقط من ذاكرتي المنهكة لتزدحم في مخيّلتي. عدت لا أرى ولا أعي شيئا. صمدْتُ، تحاملتُ على نفسي علّي أستطيع فك قيودي، هدّأتُ من روعي. تصفّحت الورق مرة أخري. هو فعلا يكتب رواية

عن روائي إسمه رفعت الموس متزوج من أمنية التي يخونها مع علية أو لي لي كما تحب أن تُنادي. الحيرة تخنقني، تحاصرني من كلّ الجهات، الأفكار تتردّد في أعماق رأسي المسحوقة، تتلوّى كما الثعبان، تأبي السكوت والرضوخ، تعاند، لا تقبع في مكان واحد، لا شكل محدد لها، هلامية، وكأنها تعرف أني أريد أمساكها وأحكام سيطرتي عليها لذلك تصمد، وتهاجم، وتقاتل ككتلة واحدة حتَّى لا يسقط أحد منها في الأسر...

ناديت عليها فزعا فدخلت إلى ملهوفة فزعة قائلة: إيه في إيه؟

- ايه الورق ده؟

دون أن تتقدم أكثر لفحص الورق ودون حتَّى أن تأخذه من يدى أجابت: دى الرواية يا عرفة اللي بتكتبها إيه في إيه مالك؟!

- إنتى عارفة بتحكى عن إيه؟

- يعنى إيه عارفة بتحكى عن إيه؟!

- إيه الغريب في السؤال يا.. أمانى جاوبى على أد السؤال

بلعثمة ناتجة عن صدمة لما يحدث أجابت: بتحكى عن واحد كاتب أسمه رفعت الموس بيخون مراته..

سقطت على أقرب مقعد كما الحجر الذي أسقط من علي، أقتربت منى واضعة يدها على جبهتى تتلمس حرارتى قائلة: عرفة إنت كويس؟، حاسس بحاجة؟ أتصل بالدكتور..؟

أجبتها أنى على ما يرام وفى النهاية اقتنعت لتتركنى مغادرة حجرة المكتب. من منا الحقيقي ومن منّا الذي علي الورق، من خالق من؟، أهو حلم تحول لأبشع كوابيس الحياة وفي النهاية سأصحو منه أجلا أم عاجلا، أم هو واقع قد كُتب عليّ عيشه...

أنا رفعت الموس، روائي يعمل بالصحافه أخر أعماله غير المكتملة رواية عن روائي مشهور يدعي عرفة الزاهد متزوج من خائنة تدعي أماني. كيف لي فجأه أن أنتقل إلي الورق فأصير عرفة الزاهد الذي يكتب رواية عن روائي يدعي رفعت الموس. الحيرة لا تكتفي بعقلي تُحكِم قبضتها حتَّى علي لساني، فتحَتْ باب فمي عنوةً فهرب كل الكلام من بين شفتيّ. من منا الحقيقي، من يكتب من، من خلق من وصنعه من خياله ليجعل منه شخصا علي ورق. أين أنا ومن، ومن الذي جاء بي إلي هنا...؟؟

****

(٢)

أين أنا.. ما الذي جاء بي إلي هنا.. أعرف تلك الغرفة جيداً، ولا أدري كيف أعرفها. كأني نمت بها قبل ذلك.. ذلك البورتريه المعلق علي الحائط، تلك التسريحة وما عليها من أدوات تجميل، خزانة الملابس، كل تلك الأشياء أعرفها، وكأني الذي إخترتها، واخترت ما فيها، ورغم هذا هي ليست غرفة نومي. نعم ليست غرفتي، أخر ما أذكره ذلك الدرويش الذي صدمته في غفلة مني ودعْوته الغريبة. رجعت إلي بيتي متوجهاً إلي فراشي لأنام. وبسبب دعوة ذلك الدرويش وقرار التضييق عليّ والذي كان مفاده قرار آخر بالسفر أتاني النوم العميق، فعلي مذبح القرار ينام الناس نوماً عميقا. لكن مهلا هذه ليست أماني ... !!

نعم ليست أماني رغم الشبه الذي بينهما إلا أنها ليست زوجتي. تشبهها نعم وإلي حد كبير، لكنها ليست أماني. وبغض النظر عن هذا كله كيف لها أن تنام جواري علي هذا النحو. مالذي يحدث ومن جاء بي وبها إلي هنا...

الأسئلة تنهش عقلي في تلذذ وتنبح كما الكلاب المسعورة، تنازعني باحثة معي عن إجابة، شئ غريب حدث، كل هذا ليس طبيعيا. لا يوجد تفسير سوي أني في حلم وقريبا سأستيقظ منه لأجد نفسي في غرفتي علي فراشي مستلقية جواري أماني. لا أدري سبب خوفي وهلعي علي هذا النحو، فالأوْلي بالهلع التي تتململ الأن في بطء متقلبة علي الجنبين وكأن لا شيئا يشغلها، ورغم أنها فتحت

عينيها إلا أنها كما هي لم يصدر عنها أي رد فعل ينبئ أن هناك شيئا غير طبيعي يحدث، وكأنها معتادة علي النوم جواري. وبكلمات إستدعيتها مقاومة من بئر سحيق يأبي أن يملء فمي سألتها: إنتي مين..؟

كان صوتي رغماً عني مضطربا حين لفظْتُ هذه الكلمات، ولهذا أطالت النّظر إليّ، عرفت من عينيها ما أنا فيه من إضطراب، رأيت صفار وجهي فيهما وعرقي المتصبب على جبيني والذي مسحته بيديّ لا إرادياً ودون قصد، كان جوابها في البداية صمت، وتحديق مستمر وكأنها تستشف ما وراء سؤالي لتجيب بعدها: مين يعني إيه ؟ أنا أمنية مراتك ، مالك يا رفعت إنت حاسس بحاجه، فى إيه ؟

عزمت التظاهر بالتجاهل حتّى لا يفطن حلمي أني خائف فيزيد من جرعات هلعه ويطول فلا أستطيع الإفلات من براثنه. تركتها لِتُكمل نومها خارجاً من الغرفة متحسساً خطواتي التي لم أكن في حاجة لتحسسها فتفاصيل المكان أعرفها كما خطوط كف يدي، فأنا من وصفته بكل ما فيه وهذا يفسر شعوري وارتباطي بقطع الأثاث المتناثرة هنا وهناك وعدم إستغرابي لها ...

الأن أوقن أنه حلم سخيف سرعان ما سأستيقظ منه فتلك التي كانت جواري هي بلا شك أمنية، تلك الحالمة زوجة النجس رفعت الموس بطل روايتي المأفون. الأن عرفت أني أحلم وأني الأن في عالَم رفعت أحل محله. يحدث هذا كثيراً عندما تسيطر الرواية علي كاتبها، تسيطر عليه لدرجة أن أحداثها تطارده في

الأحلام قبل اليقظة. ألم تقرؤا عن كاتب توحد مع بطل عمله؟، أحيانا يتوحّد القارئ أو المشاهد مع ما يقرؤه أو يشاهده فما بالكم بالكاتب الذي يكتب...؟!

طويل وسخيف ذلك الحلم فعلا، ملئ بالتفاصيل. كل شئ حقيقي وواقعي حتي الألم الذي شعرت به حين خطئي ووقوعي متعثراً، فخطأ العثرة آلمني، ذلك الألم الذي يهز ويحرك ويجرّد ويوقظ من تلك الأحلام السخيفة إلا أني لم أستيقظ...

رجعت أليها ، أيقظتها برفق لأسألها: هو أنا بشتغل صحفى صح ؟

نظرت إلى فى أستغراب وتمعن قائلة: لا رئيس جمهورية، بتهزر صح؟، واضح يا رفعت إن ليك مزاج تتأخر عن الجورنال.

تركتنى مغادرة فراشها لَمَا أيقنت أن النوم جفاها، كل شئ كما وصفته حتي حجرة مكتبه، نفس الكتب علي الأرفف، نفس الأسماء ونفس المؤلفين، حتي المكتب وما عليه من كاسة للأقلام وفتّاحة أظرف وأباجورة تمثل قبح نفس صاحبها. كل شئ كتبته علي الورق صار ملموسا وواقعياً، حتي الورق الذي بين يديّ، أذكر أني قد كتبت أن رفعت الموس سيموت قبل أن ينهي روايته التي يكتبها والمفروض أن ذلك الورق الذي بين يديّ الآن هو الرواية التي لن تكتمل. أمعقول هذا!، أهناك حلم يحوي كل تلك التفاصيل والواقعية، حتي الرواية التي يكتبها موجودة. نعم أعرف لأني من كتب هذا، كتبت أن رفعت الموس روائي

خبيث يسطر رواية لن يُكْملها، الغريب أن عنوان الروايه هو نفسه عنوان روايتي. والأغرب أنه يكتب عن روائي يدعى عرفة الزاهد ...!!

الخوف يقتحم قلبي متسللاً في خفوت دون إرادة مني في صده. الأفكار تتشابك في رأسي تقيدني تكبّل وتشل حركتي، تجعلني سجين الحيرة التي تنهش عقلي هي الأخري كما الأسئلة التي تسقط من ذاكرتي المنهكة لتزدحم في مخيّلتي. عدت لا أرى ولا أعي شيئا. صمدْتُ، تحاملتُ على نفسي علّي أستطيع فك قيودي، هدّأتُ من روعي. تصفّحت الورق مرة أخري. هو فعلا يكتب رواية عن روائي إسمه عرفة متزوج من أماني... !!

الحيرة تخنقني، تحاصرني من كلّ الجهات، الأفكار تتردّد في أعماق رأسي المسحوقة، تتلوّى كما الثعبان، تأبي السكوت والرضوخ، تعاند، لا تقبع في مكان واحد، لا شكل محدد لها، هلامية، وكأنها تعرف أني أريد أن أمسكها وأحكم سيطرتي عليها...

ناديت عليها فزعا فدخلت إلى ملهوفة فزعة هى الأخري قائلة: إيه فى إيه ؟

- إيه الورق ده؟

دون أن تتقدم أكثر لفحص الورق ودون حتى أن تأخذه من يدى أجابت: دى الرواية يا رفعت اللي بتكتبها إيه فى إيه؟!

- إنتى عارفة بتحكى عن إيه؟

- يعنى إيه عارفة بتحكى عن إيه؟!

- إيه الغريب فى السؤال يا.. أمنية جاوبى على أد السؤال

بلعثمة ناتجة عن صدمة لما يحدث أجابت: بتحكى عن واحد كاتب أسمه عرفة الزاهد بتخونه مراته ..

سقطت على أقرب مقعد كما الحجر الذي أسقط من على، أقتربت منى واضعة يدها على جبهتى تتلمس حرارتى قائلة: رفعت إنت كويس؟ حاسس بحاجة؟، أتصل بالدكتور..؟

أجبتها أنى على ما يرام وأنه بعض الصداع الذي يمسك بتلابيب رأسى ولا يريد تركها وفى النهاية اقتنعت لتتركنى مغادرة حجرة المكتب...

من منا الحقيقي ومن منّا علي الورق، من خالق من؟، أهو حلم تحول لأبشع كوابيس الحياة وفي النهاية سأصحوا منه أجلاً أم عاجلا، أم هو واقع قد كُتب عليّ عيشه...

أنا عرفة الزاهد، روائي يعمل بالصحافه أخر أعماله غير المكتملة رواية عن روائي متسلق يدعي رفعت الموس، متزوج من أمانى. كيف لي فجأه أن أنتقل إلي الورق فأصير رفعت الموس الذي يكتب رواية عن روائي يدعي عرفة الزاهد. الحيرة لا تكتفي بعقلي بل تنخر عظامي التي يسمعها عقلي الأن تئن وتشتكي، تُحكِم قبضتها حتي علي لساني، فتحَتْ باب فمي عنوةً فهرب كل الكلام من بين شفتيّ. من منا الحقيقي، من يكتب من، من خلق من وصنعه من وحى خياله ليجعل منه شخصا علي ورق. أين أنا ومن، ومن الذي جاء بي إلي هنا ...

(٣)

أهناك أبشع من أن تتعامل مع البهتان علي أنه حقيقة مطلقة؟، تصبح مجبرا علي العيش في الزيف والإيمان والتصديق به والوقوف في صف جنده لنشر دعوته والزود عنه. يحاول قلبك التملص والرفض والمقاومة فتجد الجميع له بالمرصاد حتَّى عقلك!. تسأل نفسك ماذا جري؟!، لم أكن أبدا فريسة، لم صار لزاما عليّ مراوغة الصياد وتجنب شباكه...؟!

كل شيء حولي حقيقي بطريقة تدعو للجنون. أماني حقيقة، سماح حقيقة، الجريدة حقيقة، عليّ حقيقة، البواب، سائق التاكسي، صاحب الكشك. كل شيء حقيقي، فقط أنا الزائف. أنا من صنعتهم وجعلتهم أناسا. أنا من وهبتهم الوجود. الآن صار كيانهم يهدد وجودي، وكأنما كنت أخلق وحشا وعندما حرَكته غريزة إفتراسه إلتهمني. كلكم تريدون مني شيئا، تريد أماني الشهرة، أن يرتبط إسمها بإسم روائي إسمه مردد في كل الأنحاء، فزوجة الراهب بالأحري قديسة، ورفيقة درب المفكر غالبا مختلفة. وعليّ يريد المتعة يغب منها وقت ما أراد ولابد أن أغفل عنه حتَّى لا ينسد نهر شهوته. وسماح تريد القوة والسند ولا يهمها ماذا أريد، لا تفكر حتَّى أن قوتي تتلاشي بنخرهم في عرش مكانتي. جميعكم خونة تريدون الرحمة بينما القسوة تغلف قلوبكم، تمدون أيديكم، تنهشو من لحمي لتقتسموه بينكم ملتمسين مني القوة، تملؤون كؤوسكم من دمي فتتجرّعون شرفي

في أكواب ضعفكم. تقدروني في العلن وتوقروني، تجعلوني نصْب أعينكم جهرا حبا وتبجيلا وفي الخفاء تتناوبون علي طعني . مغفلون تظنون أني لا أراكم. أنا الآن أبصر وأري، أنا لست كعرفة، أنا رفعت الموس، جاءكم من صنعكم بيديه وسواكم ومن غيري أدري بنقاط ضعف صُنْعِه، جاءكم من نفخ فيكم من روح خياله، جاءكم من يعرف خباياكم أكثر منكم. لا داعي للتزين فزينتكم باهتة، وقناعكم فاضح لا يستر شيئا...

كنت أري نفسي إلها، يهب الحياة لمن أراد. لم أكن أعرف أن طردي من كثابة الواقع ودخولي لعالم صنعته هو الجحيم بعينه وكأنه آن الأوان لأحصد ما غرسته يداي ولوثه عقلي. لم أكن أعرف أن كل الشخصيات التي خلقها خيالي وكساها قلمي دعّيّة مريضه دنيّة بهذا الشكل. لو كنت أعرف أنى في يوم سأحمل عنها ذنبها ما كنت خلقتها ضعيفة رخوة. أماني تقبل يديّ قبل خدي ولا يحلو لها النوم إلا ورأسها علي صدري وكأنها لم تضع رأسها علي صدرِ غيره. تدعوني لمقابلة علي الفراش وكأنها جاءت من صحراء قاحلة تستنجد بمائي الذي سيحييها. معذور يا عرفة فقد زوجتك من شيطانة تستحق الأوسكار علي كل مشهد تعيشه لتبيع لك فيه الشرف والوهم. عليّ يقابلني مهللة أساريره، يراني عن بعد فيفتح يديه راغبا في احتضاني. يسأل عن صحتي، يعاتبني علي عدم إتصالي به. يتوهم أني لا أري دم غشاء شرفي الملطخ علي ثوبه المحنّاة به يده. تهاتفني سماح، توصيني بزوجتي وتستفسرعن صحتها، تنتظر الجديد في أمرها مع علىَ . سألتها عن رأيها

في أماني فكان جوابها.. إنت بس اللي دايما مشغول عنها، حاول تتقرب منها أكتر، دي بتحبك . ملعونة أنتي الأخري يا سماح تضعين القاعدة وتطلبين مني الإعتبار بها. أوّ هذا مبررا لكل من إنشغل عنها زوجها، أوّ صار واقعا أن كل من إنشغل زوجها عنها فلا مؤاخذة عليها إن خانته..؟!

ظلمتك يا عرفة حينما جعلت منك طيبا متسامحا في زمنٍ مسخ قمئ لا يحترم طيبتك ولا تسامحك. أخطأت في حقك لمَا حكمت عليك بالطرد من مخيلتي والنزول لأرض الحقارة والدياثة والمجون والجنون أحيانا. وكأن الطيبة والتسامح كانا لك دين وعقيدة ألجمتك بهما دون أعطائك سلاحا تدافع به عن نفسك وعن شرفك المهدر علي عتبات الخائنين والبغايا في أرض الدنس. جعلتك ضعيفا ووضعت لك ميثاقا ومنهجا لا تتخطاه ثم أتى لأحاسبك على ما أقترفته يداك لتدافع به عن نفسك، تخطئ فأتوعدك بالعقاب تتخلي عن طيبتك وتسامحك فأرميك بالألحاد والهذيان ومخالفة طبيعتك الحسنة...

الغريب في الأمر أني من سويعات قليلة كنت أجد للخيانة مبررا وللفسوق عذرا. كنت أري أن إعتلائي لزوجة صديقي لا ضير منه ولا كراهة طالما أن محسن لم يحسن الركوب. كنت أري أن ليس من حقه الغضب علي شرفه وفراشه الذي جامعت عليه زوجته. الآن أنا الغاضب المستشيط الذي إتخذ من الإنتقام فريضه سيتمها برميهم بجمر غضبه. أحيانا يسوّل لي عقلي الصمت ويزينه لي، فأمانى ليست زوجتي، وهذا ليس بصديقي ولا هذه أختي، أنا كما أنا، رفعت

الموس متزوج من أمنية، صاحبي محسن وأخي سامح لكني سرعان ما أتراجع عندما لا أجد إجابة لسؤال أسأله لنفسي. ماذا لو كنت فعلا عرفة الذي يكتب رواية عن رفعت الموس فتأثر ببطله فتقمص شخصه بضع من وقت؟! . الأسئلة في عقلي كالحمم، تحفر لنفسها مكانا لتصل إلى لساني علَها تجد لها سدا من إجابات. من أنا؟، كيف جئت إلي هنا، أنا غير مناسب لذلك العالم. أنا من صنعته، أنا سيده وحاكم أمره، مناصه بيدى فمن جاء بي إلي هنا، وما الغرض الذي جئت لأجله، أأنا رفعت الذي وهب أناسا الوجود حين جمعهم في رواية مستحضرهم من خياله؟، وشاءت المقادير أن يصبح بينهم أم أني عرفة الذي يكتب رواية عن كاتب عرف من أين تؤكل الكتف؟، من منا الحقيقي ومن منا الزائف. أنا لا أعرف شيئا كل ما أعرفه أني لن أتركهم ينتهوا من مأدبة لحمي فيتكئوا علي أرائكهم مستمتعين بحاسة الشبع، من أكل سيدفع، لا شيئ مجاني، وإن كان ضميري يؤنبني علي فعْلتي بمحسن صديقي فسأجبره علي الإرتياح والإقتناع أني كنت علي صواب فأنا لم أطلب من محسن السكوت والإقرار بخيانتي، كما أني لست بعرفة حتَّى أرضي لهم أن يمروا سائرين بأرجلهم علي كرامتي دون الغضب والثورة وهدم المعبد علي روؤسهم جميعا . كان دورهم والأن حانت قيامتهم وحسابى لهم...

****

(٤)

أنا الخائن والمخان. القاتل والمقتول، قابيل الذي ألقم أخيه حجرا، وهابيل الذي أخر ما رأته عيناه كان الخيانة والغدر. أنا كل هذا، وكل هذا أنا. أنا عرفة الزاهد...

أكاد أجزم أني فعلا كنت مجرد بطل في رواية. شخص يتنفس مدادا ويحيا علي الورق، نسج عالَه روائي فصنع منه عبثا يخونه الجميع. ليس من المنطق أنّ ما كنتُ فيه كان الحقيقة وما دونه كان الزيف والعدم، أكاد أُجزم بوهم ما كنت فيه، خيالا صنعه وحي شيطان في عقل مؤلف فاسد. أهناك وجود بكل تلك القذارة والفجور؟!، وجود خرج من رحم الخيانة فصار زرعه دنسا ونتاجه خبثا وعلقما. أجميعهم خونة؟!، أما من شريف واحد؟!، أمَا من نفس إهتزت وحَنَت علي نفسي، حتَّى أختي التي كنت لها رسولا ينير لها الحياة بالرحمة والنور والبركات نكرتْني قبل حتَّى أن يصيح الديك ووقفت مثلما وقفوا تشاهد صلبي في صمت. لما التعجب فجميعنا أبناء القاتل الذي غدر بأخاه منتظرا طيرا يعلّمه كيف يداري سوئته...

رفعت علي صواب، لم ينتظر أن يخونه أحد، خان الجميع بما فيهم نفسه، أعلن كفره بالضمائر المشوهة والقلوب التي أدماها الموت قبل أن يجهز عليها. أدعو الله تضرعا وخيفة بأن يكن رفعت هو الحقيقة، أن يكن هو من كتب عرفة

وصنعه من وحي خياله فقلبي لا يحتمل أن تكون أماني خائنة وأن الحياة التي أسقتني إياها ما كانت إلا خمرا في كؤوسها. خمرٌ أفقْتُ منه لأعرف أن من كانت بين يديّ في الليل ما كانت أكثر من عاهرة تُوهِمُني الحب حتَّى أشتري من خمرها أكثر فأنْهَلَ أكْثر فأَسْكَر فأُكمل بين يديها ليلتي ثملا لا أري الحقيقة. أتمني أن لا وجود لى وأني ما كنت أكثر من رفعت الذي تَوحّدَ مع بطل روايته فتقمّصَهُ لِيُصْبحَ مأفونا يخونه الجميع، الخيانة كالجبل تُطبِق علي أنفاسي حتَّى الموت، ولكم أخاف الموت وأخشاه، أخافه لدرجة أني تنازلت عن مبادئي كلها دفعة واحدة، فصار سهلا أن اصبح خائنا بدلا من أن اكون مُخانا . أكره الخيانة مفعولا وأترجاها فاعلا، أعتب عليهم أنهم خانوني في غفلة مني، غافلا أني ولربما أكون من خان صديقه الذي لا ذنب له سوي أنه إستأمنني وأعطاني ثقته، وحتي لو لم أكن. فأنا أتمناها وأريدها، أريد أن تكون زوجتي أمنية التي لم تتمكن منها الخيانة بعد، أريد أن أكون رفعت الذي خان صديق عمره مع زوجته لي لي عليَ أن لا أكون عرفة الذي خانه الجميع وتناوبوا على هتك شرفه...

محسن صديقى، ولكم أُشفق عليه، ومن يشفق عليه أكثر مِمَن تجرّع من نفس كأسه. أخشي عليه من اللحظة التي تأتيه فيها الحقيقة داعرة عارية بين يديه فيري كل تفاصيلها التي حجبها دخن الخيانة عنه . إلي الآن لم أقابله، أخاف أن تأتي عيناه في عيني فيبصر الخيانة والغدر فيها. أتهرّب منه هروب الصحيح من المجزوم، جاهلا مَن مِنّا الصحيح ومَن وجَبَ الفرار منه. أهناك إحتمال أني فعلْتُ

ذلك بمحسن؟!،سامحني يا صديقي الوفيّ، فأنت وإلي الآن غافل عما حدث وراء ظهرك، لو كنت مثلي عرفت أنك شربت من بئر الخيانة ونهلت منه لعلِمْت وقْعها ولودَدْت أن تخلع من عليك ثوب الرهبان ولشلحت نفسك بنفسك لتنضم لزمرة الخونة وناهشي لحم المسيح.. سامحني...

****

(٥)

من دفتر مذكرات دكتورة مريم فاروق

وكأنك أمام باب خشبى عتيق بحشوات نحاسية مجمّعة، تنظر إليه فتتسلل الرهبة لأوصالك. تدفع راحتك جانبيه فتسمع ذلك الصرير المحمَل بعبق الماضى وتراثه وما أن يأتيك على مصراعيه إلا وتجد الصخب، أضاءات ليزيرية ماجنة، تومض متخبطة من السكر، موسيقى نافرة لا أيقاع لها ولا نظم تتلّوى عليها أجساد تنتفض وكأنها ترقص رقصة للموت. هذا ما فعله رفعت...

يسير بروايته كما النهر الذي يعرف ماؤه كيف يجري. إنتظرته وتوقعت منه أن ينهيها مثل ألأخرين. هذا ما كان ظاهرا، هو نفسه كان قد نوّه في بداية روايته ان زوجة بطل روايته الخائنة والتى تدعى أمانى ستقتل تلميذ زوجها وبذلك لا تتزوج سماح من علىّ الخائن ويأتى القدر بانتقامه من أمانى حين تسجن، وتصبح خاتمة الرواية أن هناك من قضى نحبه غير مأسوف عليه وهناك من ينتظر خلف غيابات السجون، أو ليس هو من قال...؟

ما الحدث الذي أستفزّه وجعله يعرج بروايته لذلك المنحى. كتبها آملا أن يجعل منها كوكب درى ينير له طريق ظلمته فصارت له ظلمة الزيف التي تاهت فيها الأفئدة وخارت فيها العقول. وسوس له شيطان الوحى فجعل منها معبدا يتعبد فيه الغافلون لأغرب ألهة الأرض، يقدمون المنطق في مذبحه قربانا،

يسدلون علي كل يقين ستارا قاتما حتَّى لا يبين ولا يظهر، تلتقى أكفهم عند صدورهم في توسل للبهتان وشكر، تترنح أجسادهم في سكر، يأتيهم الحق جليا صادعا فيضعون أصابعهم في أذانهم مستغشين ثيابهم في كبر رافضين لكل ما هو حق...

هل كانت تلك هي خطته حينما شرع في الكتابة، أن يحدث ذلك التبديل فيحل محل بطله في روايته ويصبح هو عرفة وعرفة هو، أكانت تلك هي الفكرة من الاساس وذاك كان خط سرده، روائي يكتب عن روائي ولسبب ما يحل محله؟، أم أنه فعلا يري في نفسه هذا، يعتقد أنه قد صار غير نفسه...؟

بحثى عن أعماله التي سبقت يجعلنى أجزم أنه ما كان أكثر من مدعي للكتابة مثله مثل كثيرين ممن ينضح فرش البائعين بأعمالهم، تقرأ له فتجد أن نفسك قد ماعت من كلماته الفاقعة ضحلها والتى لا تسر العاقلين، وتيرة واحدة من الكتابة، مقام شحيح غير معبر، من مثله لا يحوز الموهبة ولا المَلكة التي تجعله يكتب مثل هذا فخياله أبخل من أن يجود عليه بمثل ذلك النوع من الكتابة. كما أن أصراره أن يكن عرفة ضده في كل سلوكه يجعلني على يقين أن ما كتبه ليس بخيال مبدع بل هو نوع من أنواع الأنفصام جعله يصنع شخصا مناف له في كل شئ، شخص تمنى أن يكونه أو حتَّى شخص خائف من أن يصير إليه. شخص خانه الجميع، بداية بزوجته مرورا بتلميذه نهاية إلى أخته التي إرتضت الصمت.

يبرر لنفسه أنه لو صار مثل عرفة شريفا ذا مبدأ فنهايته ستكون مثله مخانا من الجميع مضطهدا حتَّى من الدولة...

رفعت غير راض عن نفسه . فألقى بحجر توتره في مائه الأسن فكان مرضه وكانت روايته. زكمت قاذوراته أنفه، رنت على صدره خيانته، باتت روحه غير قادرة على التنفس ولا على فك قيد أسره من الفساد الذي يستعبده. يتعمد أحيانا الإستخفاف بشخص عرفة والتهكم عليه والسخط على ضعفه وطيبته الزائدة، وأحايين كثيرة تجده يترأف به ويستغلبه، يعذره ويوبخ نفسه أنه قد صنع له عالما مليئا بفوضى المشاعر منعدم فيه كل القيم والمبادئ. تجده مثل عرفة بل إنهما كثيرًا ما يشتركا في نفس الألفاظ والتعابير وأحيانا تجده غير ذلك، قلم غير القلم ورجل ليس كمثل الرجل...

رفعت هو عرفة وعرفة ليس بأكثر من رفعت، رفعت يري أنه هو من خلق عرفة وجعل منه شخص ينبض بعد أن كان على الورق وكذلك عرفة هو الأخر يرى نفسه صاحب الفضل في وجود رفعت. كلاهما شخص واحد ينظر لنفسه في مرأة، لهذا عندما تبدّل رفعت بنظيره سعى في انتقامه من كل الذين خانوه وجعلوا منه اضحوكة غافلا أنه هو من صنع الخيانة وغذي عنكبوتها ونمّاه لينسج خيوطه في حياة عرفة...

الغريب في الأمر أن رفعت على هيئته الجديدة قتل زوجته؟!، قتلها نافيا عنها تهمة الخيانة وحتى لو خانته فهى ليست زوجته حسب ما ترائى له. كيف

بعرفة الهادئ صاحب القيم والمثل والذي على يقين من طهر أمنية أن يقتلها؟!، أذا كان عرفة يري في نفسه أنه من صنع عالم رفعت وخلق شخوصه فهو إذا على علم بحب أمنية له، هذا غير أنه على دراية تامة أنها ورغم خياناته كانت مثالا للشرف يحتذي به فكيف له أن يقتلها؟!، ما الوازع الذي جعله يقدم على جريمته بذلك الشكل البشع؟، الأولى أن يقتل رفعت أمانى لا أن يقتل عرفة أمنية. هناك شيء حدث أجبر عرفة على أتيان جريمتة، شيء جعله يري في أمنية أمانى أخري فانتقم منها، لكن سيتبقى سؤال وهو طريقة تنفيذه للجريمة، لماذا نفذها بذلك الشكل الوحشي، ما الرسالة التي أراد أن يوصلها ألينا، هناك حلقة مفقودة لم تأت بها أوراق الرواية ألى الآن. حدث جلل قد حدث جعل عرفة يأخذ قراره منفذا جريمته بكل عمد وقصد وهدوء دون أن يعتلج صدره أي رحمة بأمنية. حدث علّ الأوراق الباقية تبينه وتأتيه...

مريم فاروق

****

(٦)

- هو حضرتك زعلان مني في حاجة؟. هكذا بدأ عليّ حديثه..

ينتظر مني أن أُقْسِم له أنه ما مِن شيء حدث، وأنه الجو العام والظروف المحبطة التي تدعوا الجميع للكئابة والحزن. إلا أني وبعد أن نظرت في عينيه بشئ من تفحص أجبته: وهو إنت عملت حاجة ممكن تكون زعلتني..؟

تلعثم علي غير عادته، فلم يكن أبدا هذا أسلوب أستاذه عرفة، عرفة الذي إعتاده هينا، طريا لا يرفع الأذي عن نفسه ولا يري ألا ما ستدوسه قدمه هذا إن رآآه من الأصل..

جمّع كلماته التائهة في حلقه بعد أن بلع ريقه ليجيب: معملتش حاجة، بس يمكن تكون حضرتك فهمت تصرف من تصرفاتي غلط ولا حاجة .

- لا لا مفيش حاجه، وكل تصرفاتك أنا بفهمها صح متقلقش إنت، هو يمكن بس موضوع صاحبي هو اللي شاغلني ومخليني مش علي بعضي..

رأيت وجهه ينتفخ من تنفسه الصعداء، حتَّى جلسته بانت عليها الراحة ليستمر في الحديث قائلا: موضوع إيه، ومين صاحب حضرتك..؟

تأملته كثيرًا . حتَّى أصبح الهدوء سيّد الموقف والصمت هو اللغة الوحيدة المسموعة لأجيبه بعدها: أبدا.. ده واحد صاحبي إكتشف إن مراته بتخونه، لا وإيه دي بتخونه مع أعز صحابه..!!

وكأن صاعقة نزلت من السماء لتختاره تحديدا فجعلت من جسده

هشيما. يرتعد وكأنه تخلّي عن ملابسه في أوج البرد وصقيعه، ينظر إليّ ببلاهة ممزوجة بخوف وارتياب، ورغم أن ما ألمّ به لا تُخطئه عين طفل إلا أني تعمدت إنشغالي بورقات كانت علي مكتبي لِأُكْمِل ما بدأته قائلا: هو طلب مشورتي وانا مش عارف أقوله إيه، إنت إيه رأيك يا عليّ؟.

وكأنه غادرني، فجاء صوته من واد سحيق بكلمات خفيضة مرتعشة تبذل الأذن مجهودا لسماعها: مش عارف، بس مش يمكن يكون صاحب حضرتك ظالمها؟..

- ظالمها إزاي بس!!، هو متأكد إنها بتخونه وعنده ما يثبت ده..

- طب هيا بتخونه وصاحب حضرتك متأكد أنها بتخونه، ليه شايف إنها بتخونه مع صاحبه.؟، إشمعنى صاحبه مش جايز أي حد تانى؟

الأن تبرء نفسك، تسعى في أبعاد التهمة عنك، تنفض غبار الخيانة عن كاهليك أمامي، كما إبليس لا فرق ولا فارق، ما أنا بمصرخكم ولا أنتم بمصرخي، لكنها تستحق...

نظرْت إليه فرأيته يحدق في وجههي منتظرا منه أي قراءة تنجيه مما هو فيه فيستريح عقله ويهدأ. منظره كان مضحكا ورغما عني فلتت مني ضحكاتي، فحاله يوحي بأنه علي مشارف الموت خنفا فالصمت كان يرخي حبائله حول عنقه منتظرا كلماتي، كنت أتمني التمادي في الصمت والتحديق في وجهه أكثر، لكني

علمت أن أكثر من هذا سيتوقف قلبه لا محالة. سارعت بحرق كل مراكبه التي أعدّها لنقل ما سأقوله إلي عقله فتهدأ أمواج أسئلته فبادرته بالقول: متشغلش إنت دماغك يا علي، وخُد المقال ده إبعته للمطبعة تحت وخليهم يبدّلوه بالمقال اللي إتبعت من يومين، ومتنساش تجيبه معاك متسيبهوش لحد..

قام من علي كرسيه كمن حكم عليه بالإعدام وجاءه الإفراج وهو علي منضدة التنفيذ. قام تائها في صحراء عقله، يصرخ فيها ألف سؤال وسؤال ولا يأتيه إلا صدي أسئلته وهذا ما أردته، أردته أن يشهق الخوف دون أن يزفره، أردته أن يصطلي في جحيم خوفه قبل أن أكُبّه في سعير إنتقامي. فالغل في قلبي يكفى لصبغ السماء بحمرة الدم وجعل الحياة في سواد ليل مستمر يدوم ولا ينقطع. هو لا يعرف ما سأفعله به، لو يعرف لكان حديثي الآن أقل ما سيشغله، فأنا لو أريد موته لفعلتها، فأنا لا أريد له الموت فالموت راحة لمن هم علي شاكلته، سأُصفّي دمه قطرة قطرة، سأجعله يشتهي الموت ولا يناله، هو جاهل بما فعلتْه وسأفعله، سأُصلِح كل ما أفسده أُستاذه المأفون عرفة، سحبت المقال الذي كنت أهاجم فيه الدولة وأرسلت أخر يشيد بمواقفهم ويثني علي إنجازاتهم، ومن هنا سيرضي عني النظام، ومن هنا أستطيع وبتوصية بسيطة أن أضعه في غياهب السجون وخصوصا أني أمليت عليه كثيرًا وكتب بخط يده الكثير والكثير...

دقات قلبه تأتيني طواعيةً فأسمعها بوضوح رغم خروجه، أكاد أسمعها تهرول مثله في طرقات الجريدة جزعة مني، تتمدد وتنقبض بشده فتصنع زحمة

مرورية في شراينه تجعل الدم يغادر عروقه فيغيب عن وجهه الذي تحول لونه للزرقة. مسكين، تخونني وتظن نفسك قادرا علي النجاة بفعلتك. كان جائزا هذا لو أنك ما زلت مع عرفة، كان من الممكن أن تظل علي خيانتك ويظل هو علي غفلته، راقدا في نومه الذي لا يصحو منه أبدا. أما أنا فأنا لست بعرفة أنا رفعت الذي سَيُصْلِيك في جهنم الدنيا محاسبا إياك علي ما كل إقترفتْه يديك ووسوسه لك عقلك الضال، أنا الذي فُرِض عليه الجهاد وأصبح لزاما عليه أن يسترد أرضه التي وطأها بخيله لا حبا في أمانى ولا رغبة فيها، لكنها كانت لى وأنت أخذتها منى. كنت لك جنة حينما كنت لي مخلصا لا تشتهي الذي في يد غيرك وسأكون لك نارا لا تستطيع أعاصير الأرض أن تُطْفئها من أجلك ولا تجزع فالخائنة الأخري حسابها سيأتي سريعا وساعتها ستقفان أمامي يرمي كلا منكما التهمة على الآخر حتَّى يفر مما سيلاقيه مني . إنتظر قليلًا فقيامتك قد دنت وكتابك ستأخذه بشمالك، وناري ستحيا فيها إلي أن تأتي ساعتك...

سيأتوك قريبا.. أنتظرهم فالسجن مصيرك، أنتظرهم وانتظر زيارتى لك هناك..

****

(٧)

- سامح أخوك إتصل عليا أكتر من مرة واتكلم معايا في موضوع ورثه

- وليه إتصل عليكي إنتي؟!، ليه ميتصلش عليا؟!

- وهو يا رفعت من إمتي وانت بترد عليه، حاول يا رفعت تديله حقه، سامح طيب وبيحبك، ولولا ظروفه مكنش طلب منّك حاجة زي كده..

- غريبة والله يا أمنيه، شايفك مهتمّة بموضوع ورث سامح ده أكتر مني ومنه، والأغرب إنك بتعرّفيني علي أخويا وظروفه، يا أمنية ده أخويا وأكيد يعني هبقي عارف إن كان طيب ولاّ لا، وليه بيطلب

- يعني أقولّه إيه لو إتصل تاني؟

- مش هتقوليله حاجه لأنك بإختصار مش هتردي عليه تاني، بعد إذنك متتدخليش في الموضوع ده، ممكن...؟

قبل أن يغادرنى أخبرته بأن بينى وبين لى لى ميعاد في أحد الكافيهات القريبة من البيت لينظر ألى بنظرة خاوية مغادرا منصرفا صافعا باب الشقة ورائه. قمت من مكاني متجهة إلي البلكونة حتَّى أراه يستقل سيارته فأتبعها بعيني لتصغر وتصغر حتَّى تصير كما برشامةُ دواءٍ يبلعها الطريق المريض، الآن يخرج من رحم عمارتنا، سَتبحث يده عن مفاتيحه في جيبه وقبل أن يطعن بها باب سيارته سيرفع نظره إلي أعلي حتَّى يراني أبتسم له فيبادلني إبتسامته الزائفة إلا أنه لم يفعلها...

تغيّرْتَ كثيرًا يا رفعت، لا أستطيع جزم إلي أين سيذهب بنا تغيّرك فكل طُرقك حالكة . أهو تغير للأفضل أم رغبة منك في إستمرار الهبوط إلي الدرك الأسفل من القسوة؟ . لكن أتدري؟، فسواء كان تغيّرك للأفضل أو لعكسه فهذا لا يهم كثيرًا، فظني أنه ليس هناك أبشع مما كنت عليه فلقد كنت في القاع، وحتي وإن كان تغيّرك هذا إجتهاد منك ومحاولة في الوصول لمناطق أبعد من موت المشاعر فإنه الآن يكفيني. يكفيني أني عرفت أنك قابل للتغيير وأن هناك أمل فيك. فالشر الذي كان في عينك خبي، بل أنها شُفِيَت أخيرا من داء الخرس، صرْت أكثر حدةً وكأن الثلج الذي كان في عروقك ذاب، صارت تهمّك أشياء غير رفعت، بل أني ولأول مرة أشعر أنك تغار عليّ، أعلم أن هذا لم يكن لنقص فيك أو عيب، بل كان ثقة في وفي نفسك ويأليتك ظللت علي هذا، فبرغم أن غيرة الرجل علي المرأة هوائها وزاد أنوثتها، إلا أن غيرتك الآن تقتل، فالغيرة شأن والشك شأن أخر . أعي أن كرامتك كرجل تنهاك عن الإفصاح عن ظنك في، لكن شكك واضح في كل سؤال تسأله، في كل نظرة أضبطك فيها تنظر بها إليّ. حتَّى لّما تغيرت ما زلت مصمما علي دهس كرامتي، وكأنك لا تحيا إلا لجرحي واستنزاف روحي من بين أضلعي..

الغريب أني الآن أستشعرك إنسانا أخر، لا أتكلم عن حدتك التي صارت تلازمك في كل تصرفاتك، ولا عراكك المستمر معي في الأونة الأخيرة والذي بدأ وأظن أنّه لن ينتهي قريبا، لا أقصد غيرتك وشكك وأسئلتك الدائمة وتضييقك

عليّ، كل هذا لا أقصده رغم أنه لم يكن موجود قبل ذلك، لكني فعلا أستشعرك إنسانا أخر، لا أدري كيف أصيغ الكلمات، لكني أشعر وأنا بين ذراعيك أنك لست رفعت، رائحتك ليست رائحة رفعت، أهاتك ليس أهات رفعت، حتَّى ذروتك إختلفت. لكن الذي لم يختلف فيك هو قسوتك وشح مشاعرك وصمتك وتفننك في إيذائي. طاقة حبي تتبدد علي عتبات قلبك، اليأس يتسلل لأوصاله فيخف الطرق علي بابه رويدا رويدا فيخفت في النهاية ويتلاشي. قلبك موصد كخزانة عتيقة تأبي الفتح، ولا حل لسبر أغوارها سوي كسرها وفتحها عنوة أو انتظار أن تُزيل صدأها الذي إعتراها وهذا لن يحدث أبدا. إني أحبك وأعلم أنه سيأتي يوم أرحل أخذةً معي بقايا حب قد قتلته بإهمالك وأنانيتك. كنت أُغْمض عيني عن كل شئ، كنت أُريدك حبيبي فتغاضيت عن كل حماقاتك وخياناتك، إلا أنك أبدا لم تحبني، غبي مثل قلبك ظننت أني أبدا سأظل أحبك حتَّى لو حوّلْت قلبي غمدا لسكينك ...

الجميع ينفض من حولك، حتَّى الذي لا يريد تركك متمسكا بتلابيب ما تبقي في الذاكرة من أيام أعطيته فيها البسمة والدفء تطرده، تُجبره علي الرحيل. أنا، سامح أخوك الأصغر الذي إنتظرك لتكن له سندا حاميا من عبث الدنيا تَزُود عنه حين جحودها فإذا بك تنضم لجمْع الأكَلَةِ علي قصعته، محسن صديقك الذي إكتفي بك وإكتفيت به دون الجميع متحملا كل أنانيتك وبغضك والذي ما وإن واتته الفرصة للتقرب منك يهرول متقربا مادا كل أواصر الأخوة والصداقة

فيجدك مثله تغتنم أي فرصة لكن في الإبتعاد عنه. الجميع يرحل، منهم من تلاشت قدرته ولم يعد قادرا علي تحمل قسوتك أكثر، ومنهم من تُجبره أنت علي الرحيل. تظن أنك قادر أن تحيا بمفردك، تستمر بمفردك، أنت لا تعرف أنك لا تستمد حياتك إلا من عطائنا لك، وأننا لو رحلنا فستصبح كما الشجرة اليابسه التي ضربت جذورها في غفلة عن الجميع. ثابتة نعم، صامدة ربما، لكن وجب قطعها لأنها تسد عليهم كل الطرق...

عاتبتك، ولأول مرة أُعاتبك، تعلّلْتَ بما يحدث في البلاد، فإنتخابات مجلس الشعب الأخيرة جعلت مقطوعي اللسان ينبت لهم شجرة ألسنةٍ يملؤا الدنيا صراخا وعويلا بها علي ما يحدث، فالنظام يُهيئ البلاد للوريث المنتظر ...

لطالما كنت دوما الخائفة، كنت دوما الطرف المُذْعَن، الطرف الذي يُملي عليه الشروط فينفذ خوفا من الخسارة . الآن حان الوقت لتدفع، حان وقت أن تخاف الخسارة، حان الوقت أن تشرب من الكأس الذي ملئته هما وحسرة وهجرا وخيانة. سأرحل يا رفعت، فقلبي لم يعد يحتمل أكثر من هذا، سأرحل وأنا أعلم أن في الرحيل نهايتي، لكن بقائي جوارك أكثر هو الموت بعينه، في الرحيل سأموت مرة، وبقربك أعاني الموت وسكرته ألف مرة.. من أجل هذا سأرحل...

فاقت من سرحتها، ومن شجون حديثها لنفسها مهاتفة لى لى لتؤكد عليها ميعادهما حتَّى يتسنّى لها الحديث بما يعتلج في نفسها وما في الصدر من حزن...

****

(٨)

فى طريقها لمقابلة " لى لى" التي تنتظرها في أحد كافيهات منطقة وسط البلد حسب ما أتفقا فكرت كثيرًا في حالها وحال صديقتها، فبرغم من أنهما قد تعارفا على يد أزواجهما محسن ورفعت ألا أنها وجدت في "لى لى" الصديقة المخلصة التي تؤتمن والجبل الذي يستقبل أنينها فيمتصه ولا يخرج صداه. لا تنكر أنها أحيانا تغار من "لى لى"، فقد أعطاها الله زوجا يعشقها، يعيش من أجل أسعادها وحتى وأن كان غير ذلك أو ذاك فهو ليس كرفعت الذي يجعلها دائمًا وأبدا تحيا في جحيم القلق الذي لا يخمد ناره او تهدأ. حرمت "لى لى" نعمة الإنجاب ولا تدري أمنية السبب و العائق، فـ "لى لى " لا تتطرق ابدا لذلك الموضوع ناهيك عن هروبها الدائم بمجري الحديث وشق فرع أخر له أن تم ذكره. فـ "لى لى" لا تحب الحديث في تلك النقطة تحديدا رغم أن أمنية لا ترى في حرمانها هذا نقصا أو عيبا فمحسن يغنيها عن كل شيء ولا يطالبها بشئ مطلقا...

فى الكافيه على أحد الطاولات المتطرّفة في العزلة كانت "لى لى" تجلس واجمة. تنظر كعادتها ألى العدم وكأنه يناديها. لا يشغلها ما يدور حولها من صخب وحركة. عينان واسعتان فشل الهم في مداراة جمالهما. شعر ترك على حاله فانسكب كشلال ماء على ظهرها، تشعر حين تراها ان الزمن قد توقف بها، أو أن عقرب الثوانى أخذ وظيفة نظيره المختص بالساعات فصار كل شيء بطئ لا يتحرك. لا

تشعر بوجودها الا بين الحينة والأخري عندما ترفع يديها فتمسح بطرف أصبعها دمعة جاهدت فنجحت في الخروج. كانت تائهة كطفلة فقدت أبيها في الزحام ألا أنها تستبسل لتبدو للغرباء متماسكة ألى أن يجدها...

- لسه برده بتشربى سجاير

هكذا بدات أمنية حديثها معاتبة لترد "لى لى" بسحق سيجارتها في المطفأة التي أمامها قائلة: دي سيجارة يا أمنية كل فين وفين وأهى حاجة بحرقها وبطلع فيها زهقى

- وهيا السجاير هتخلصك من الزهق اللى أنا مش عارفاله سبب ده

- سيبك منى ومن سجايرى وقوليلى أخبارك ايه مع رفعت

وبعد أن تجلس أمنية وبعد مقاطعة النادل تجيبهها: رفعت هو رفعت مش هيتغير، لو الأرض كفت عن دورانها فرفعت برده مش هيتغير بس عارفة من يومين صحى من النوم وقعد يقولى أنتى مين، هو أنا بشتغل أيه، قال يعنى تعبان، حوار جديد من حواراته اللى مبتنتهيش

- حوارات أيه بس، رفعت بيحبك يا أمنية

بكلمات يغلفها الأنين تجيبها: رفعت مبيحبنيش يا لي لى، رفعت أصلا ميحبش حتَّى نفسه

- متكبريش الموضوع، رفعت بيحبك

- وهو اللى بيحب حد يخونه؟

تحملق "لى لى" في وجهها متوترة تحاول ان تخرج الكلمات من حلقها فتفشل فتكمل أمنية قولها: أه بيخونى متستغربيش

بتردد وبكلمات ملجمة: بيخونك أزاى؟

- أه بيخونى رفعت يعرف ست عليا وبيتردد عليها كتير

- عرفتي منين؟، مين قالك؟

- مش لازم حد يقولى، ده جوزى وأنا أدري واحدة بيه

تبلع "لى لى" ريقها قائلة

- إيه اللى بتقوليه ده، هيا الحاجات دي فيها أحساس..!!

- أه فيها أحساس أصلك مجربتيش.. مجربتيش جوزك يكون في حضنك وفى خياله واحدة تانية، مجربتيش أن جوزك يبقى معاكي لمجرد أنك متكونيش مع حد تانى. مجربتيش أن جوزك يرجعلك وعنيه لسه فيها صورة غيرك ايده تبقى لامسة جسم غير جسمك بس عارفة يا "لى لى" أيه اللى واجعنى أكتر من خيانته ليا، أنى مش قادرة أواجهه، أو تقدرى تقولى خايفة أواجهه، باقية عليه، أحساس بشع أوى أنك تبقى على حد بيحارب كل دقيقة عشان يوجعك، تحاولى تكرهيه يصعب عليكى. تحاولى حتَّى أنك تتعايشى مع وجعه وخيانته ليكى كل شوية فتلاقى نفسك مش قادرة. كرامتك مش سايباكى في حالك وقلبك بقى زيه مصمم أنه يدوس عليها. فتلاقى نفسك ومن غير ما تحسي بتكرهى روحك وكأنك مش قادرة تكرهى حد غيرها...

تجاوبها بالصمت مقطبة جبينها متأملة وجهها لتكمل أمنية قولها: أنا تعبت ومبقتش قادرة يا "لى لى"

تنظر للحائط وبيديها تخبئ جانب وجهها حتَّى لا يري أحد دموعها فتجيبها "لى لى": إهدى يا أمنية مش كده، الناس حوالينا

تقاطعها: أنا تعبت يا "لى لى"، مبقاش عندى قدرة على المقاومة، مبقتش قادرة اتحمل أكتر. نفسي أعرف بيخونى مع مين، نفسي اقولها ترحمنى، بس برجع وبقول لنفسي دى واحدة عاهرة ازاى هتحس، أزاى هتقدر أن كل مره بيروحلها بتدبح فيها بسكينة تلمة

بصوت خفيض وكأنها تود أن لا تسمعه: مكن معذورة

بصوت عال كاد أن يصل ألى أذن الجالسين على الطاولات الأخري: معذورة؟! تاخد منى جوزى وتقوليلى معذورة؟!

- مش يمكن رفعت هو اللى ضحك عليها واستغلها

- صدقينى شبهه، اللى يروحلها رفعت أكيد شبهه، لا حد يعرف يضحك عليها ولا حد يعرف يستغلها، رفعت مبيعرفش ألا اللى شبهه، وانا خلاص مبقاش عندى طاقة أتحمل كل ده، أنا هطلب الطلاق

- طلاق أيه اللى بتتكلمى عنه، أهدى يا أمنية متهديش كل حاجة في لحظة غضب

- لحظة!!، أنا من يوم متجوزت رفعت وانا عايشة في جحيم، وهتصدقيني لو قولتلك أن اليومين دول حاساه غريب، حساه حد تانى، مش عارفة أقولك أيه واقولهالك أزاى، بس ده مش رفعت جوزى، ده حد تانى أنا معرفهوش

أستمرت أمنية في الحديث مستفيضة فيه تذرف الدمع أحيانا ضاحكة أحيانا أخري، ضحك كما النحيب لا يفرق عنه شيئا. تسترسل في وصف الخيانة وقبحها غير واعية أن كل كلمة تنطقها ما كانت ألا طعنة تغرزها بين ضلوع "لى لى" تعذبها بالكلمات، تجلدها بالنظرات حتَّى أوشكت أن تعترف لها طالبة الغفران والصفح...

لم يكن رفعت لـ "لى لى" غير نهاية أختارتها لبداية فُرضت عليها، موت لا جنازة فيه أو دفن. حَملوها خطاياهم لينقّوا ثوبهم من الدنس فصارت كل ثياب الدنيا غير كافية لسترتها ومحو البرد القابع بين ثناياها. كان رفعت أنتقامها من كل من أذوها وجعلوا منها خطيئة تقدم للشيطان تقربا ورضا. خانها الجميع حتَّى أبيها الذي ما زال يأتيها في رؤياها باكيا. لا تدرى سببا لبكائه، هل عتابا لها، أم أن الموتى كما يقولون يعرفون الحقائق كلها وقد عرف أنه ظلمها مرتين، مرة عندما صدق زيفهم ووصمهم لها ومرة عندما فاتها وتركها لهم يلوكونها بين أسنانهم كقطعة لحم. الذكريات تشق عقلها كقاطرة هادرة تنهب الأرض بحثا عن محطة

وصول، لا يخاصمها دخانها الأسود بل يسير أمامها صانعا لها عتمة حالكة تغلق عليها كل أمل في الراحة والسكينة...

تركتها أمنية مغادرة لتظل على حالها جالسة منتصبة الظهر تنظر للفراغ دون أن ترمش عينيها أو تجفل. تراها فتحسب روحها فارقتها، لا تميز وجودها ألا عندما تمد يدها على علبة سجائرها لتحكم بأصابعها على واحدة منهن بالحرق. أمرها لا يشغلها ولا يعنيها فهى وكما قالت أمنية لا تفرق عن رفعت شيئا. ودت لو بحثت في هاتفها عن رقم أمنية فتخابرها لتخبرها أنها هي الخائنة التي تتكلم عنها فتطلب منها المغفرة والصفح، ودت لو أن محسن الآن أمامها فترمى روحها بين أحضانه سائلة أياه فرصة أخري تبدأ فيها معه من جديد فيبقى فيها كما أعتادته يسرج قناديلها المطفأة فينير لها عتمة القلب والروح. تلملم حاجاتها وما تبقى من روحها التائهة عازمة أن لا تعود لمثل ما كانت فشك أمنية ورغبتها في الأنفصال كان أيضًا كافيا لأن تقرر أن تنهى كل ما بينها وبين رفعت...

****

(٩)

في غرفة ضيقة كما قلبي، المجتزئة من شقتي التي ورثتها عن والدي، ومساحة صممْت أن أشغل كل شبر فيها بمحتوي كنت أنظر إليه . أتأمل ملامحه التي فيها كثيرًا من والدنا، طيبته، وجهه الملئ بكل جمال الدنيا، عينيه التي ما وإن تنظر أليها إلا وتري فيها دفء الدنيا وحبها، حتَّى جلسته فيها من والدنا...

بدأ كلامه قارئا بصوت عال المكتوب علي ورقة أخذها من أمامه " أمّا أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فأتوا بهم إلي هنا واذبحوهم قدامي"

يتركها ناظرا إلي متحدثا بأسي: يا جو مش كده، إنت بتخلط الأمور بطريقة غريبة، همّا فين الأعداء دول؟!، إنت مواطن وهو مواطن، إنت ليك كل الحقوق زي ما هو ليه كل الحقوق

يحمر وجه جوزيف، منتقلا من مقعد إلي أخر ليقترب أكثر من محسن قائلا بحدة وغضب: إنت بتضحك عليّا ولاّ علي نفسك، هو مين اللي ليه حقوق؟!، ده عشان أبني حيطة في كنيسة بحتاج موافقة من الأمن وتوصية من الرياسة، ده عشان تتبني كنيسة لازم واحد واتنين يموتو، ده في اللي إتعرّت في الشارع لمجرد إنها مسيحية

– مش المسيحية بس اللي بتتعري، ولا المسيحي بس اللي بيموت وهوّ بيدور علي حقه. النظام مبيفرّقش بين مسلم ومسيحى وهوّ بيمارس إستبداده، الكل عند

النظام مهان وملوش حقوق، واللي بيحصل حاليا ، النظام هوّ اللى زَرَعَهُ ودلوقتي بيحصده.

- خلاص متزعّلش نفسك، هسكت، هتْضِرِب بالجزمة واسكت، هتهان في بلدي واسكت، أختي تتعري واسكت، هتقتل واسكت، حلو كده؟

- مقولتش تسكت، ومقولتش سيب حقك، دافع عن حقك، بس الأول لازم تعرف حقك عند مين، لازم تعرف وانت بِتصْرخ هَتُصْرُخ في وش مين، هتُصْرُخ في وش واحد زيك مسلوب كل الحقوق، متهان، ولّا هَتُصْرُخ في وش اللي أخد منك ومنه حقكم وداس عليكم إنتو الإتنين، وحوّلكم لأعداء، بعد ما كنتم إخوات

- إخوات!!، عمري ما كنت أنا والمسلم إخوات

- بلاش يا جو إخوات، مشّيها جيران، شركا في وطن واحد، شاءت الظروف إن إنت وهو تِتْولدوا فيه

- وطن!! إديني فيزا وتذكرة وحلال عليك الوطن ومتبقاش تنسى تسلملى عليه

- طب بمناسبة الفيزا والتذكرة، مش ناوى تروح لأختك، دى ماشية الخميس وتسلم أنت بقى عليها

ينظر جوزيف لمحسن دون أن ينبس بحرف فيعاود محسن سؤاله: بسألك مش ناوى تروح لاختك؟

بامتعاض يجيبه جوزيف: ربنا يسهل

- جو.. أختك مش رايحة تصيّف دى مهاجرة يعنى ببساطة ممكن الوشوش متتلقاش تانى، روح لاختك يا جو أن مكنش عشان هيا أختك فعشان خاطر بابا الله يرحمه

- أنت عارف أختى مكلمتنيش بقالها أد أيه؟

- مش عارف ومش عايز أعرف، أنا كل اللى عارفه أننا أخوات وانها مهاجرة ويا ضامن نتجمع تانى أو حتَّى نشوف بعض تانى ولا لأ، بلاش قساوة يا جو، يسوع وضع نفسه لاجلنا، فنحن ينبغي لنا ان نضع نفوسنا لاجل الأخوة، مش ده كلام الرب؟

- طب ما انت عارف أهو كل حاجة؟!

- أه عارف وعارف برده أننا قد عرفنا وصدقنا المحبة التي لله فينا، الله محبة، ومن يثبت في المحبة، يثبت في الله والله فيه..

- ولما إنت عارف كده مبتروحش ليه الكنيسة؟، بقالك أد إيه لا إعترفت ولا إتناولت؟ ولا حتَّى صليت في كنيسة

- مال الكنيسه ومرواحي ليها بإنك تزور أختك؟، وكمان أنا مبروحش الكنيسة لأن ده أسلم حل للجميع

- أسلم حل إنك تهجر بيت الرب وطاعته؟!

- إنت ناسي أخر مرة حصل إيه؟، ناسي أبونا في العظة قالي إيه " سؤال خبيث من نفس خبيثة" مش ده برده اللي قاله أبونا؟

- أبونا عنده حق إنت اللي إتجاوزت، وفـ كل مرة بتتجاوز وبتتطاول أكتر. إنت اللي مصمم تخرج من رحمة الرب يسوع

ينظر إليه محسن بشئ من رأفة وعطف، فهو لم ينس أبدا كلمات والده وهو علي فراش الموت يوصيه بجوزيف، ورغم الخمس سنوات التي بينهما، ورغم ما فعلته أمه بمحسن وإيفون، إلا أن محسن كان يتعامل مع جوزيف علي أنه الإبن الذي لم ينجبه، كان محسن يري فيه الأمل والمحبة القادرة علي نسف جبال القسوة والكراهية، ومد جسور السكينة. والسلام. إلا أنه ومثل كل شيء خيّب ظنه، صار متطرفا كارها لكل شئ، شاكيا من كل شئ، لا يري إلا مواطن الإضطهاد، ولا يسمع للكنيسة إلا ما يعزّز فيه ذلك الشعور. شعور الإضطهاد والمذلّة، لا يعرف أنه وإن كان مضطهدا فليس هذا لدينه، بل لأنه يحيا في مجتمع خرب، مجتمع أراد حكامه تجهيله لإذلاله وقمعه ومن ثَمّ إستعباده . ليس المسيحيون فقط هم المضطهدون بل حتَّى النبتة في بلادنا مضطهدة، تلك النبتة التي شقت الأرض لنفسها علي إستحياء متمنية أن يأتي اليوم فتصير شجرة وارفة الظلال تؤتي أُكلها للمسلم والمسيحي. الذل لا يفرق بين مسلم ومسيحي، عصا الحاكم معصوبة العين تضرب غير ناظرة لدين، فالحاكم لا يضمن بقائه إلا بفرقتنا، فمشايخه يفسرون لك أية الجِزية التي ستدفعها وأنت صاغر، متناسين أية " وَلَتَجِدَنَّ

أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ " يكررون علي مسامع جُهّالِهم أن الخروج علي الحاكم فتنة لكن بناء كنيسة في قرية للصلاة والتعبّد هو الشر المستطير الذي سيقضي علي الإسلام مقيمين الحرب غير قاعديها مستغلين الجهل الذي كما الحطب هش لكنّ نيرانه أعلي...

يخرجه جوزيف من حديث نفسه قائلا: أنا هعمل شاي، أعملك معايا؟

- لا أنا هقوم، شَايَك ميتشربش، إتجوز بقي عشان حتَّى أبقي أشرب كباية شاي زي الناس لمّا أجيلك

- أتجوز؟!، ده بعينك، إنت كده فعلا بتطلب المستحيل

- خلاص إنت حر أنا هقوم، بس عايز أقولك قبل ما اقوم إن يسوع وهو علي الصليب دعا وقال يا ابتاه، اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون. يعني دعا للي بيعذبوه، عذر الناس بجهلهم وقال إنهم لا يعلمون، دعا للمخلص والخاين بالرحمة والهداية. حِبْ الناس يا جوزيف عشان الناس تحبك. وحتي لو كنا كمسيحيين مضطهدين، معذبين فالألم بيغسل وبيطّهر. طريق الخلاص مبيبقاش مفروش إلا بالشوك، فإن كنت عايز تكسب ويكون ليك مكان في الفردوس بجوار الرب لازم تتحمل، وتقتنع إن الله محبة.. متنساش أختك ماشية الخميس، متنساش تروح تزورها.. سلام...

قالها قائما من مكانه ليغادر شقة جوزيف التي يعيش فيها بمفرده وقبل أن يفتح محسن باب الشقة إلتفت إليه قائلا: إنت أخويا يا جو، وإيفون أختك

وإحنا ملناش غير بعض عشان خاطري روحلها يبتسم جوزيف إبتسامة إطمئنان وحب قائلا: هروحلها، بس لو سمّمت بدني كالعادة هجيلك إنت بقي وأخد حقي منك

يتعانق الإثنان عناقا حارا لينصرف محسن تاركا جوزيف لنفسه، تعاركه كلمات محسن محاولة التسلل لعقله فيسد عليها كل الطرق والمسالك حاجبا عنها كل ما تحتاجه لأن تحيا في صدره ولو لدقائق فلا

يتشبث بها قلبه مبرره، في ذلك طيبة أخيه...

يسوع عاش بالمحبة، جاء بالسلام، إرتضي الألم ليحمل عنّا خطايانا لكنه لم يدعونا أبدا للهوان والإستسلام، بل مَنّانا بأنّ مَن يغلب فسيعطيه أن يأكل من شجرة الحياة التي في وسط فردوس الله. اليأس عار، والغيرة علي دين الرب شرف، ومن غار فالرب كفيله وسنده ولنا في إيليا عظة لمّا باع الجميع وهانت عليه نفسه ظل صامدا يحارب، لم تلمس ركبتاه الأرض سجودا لبعل. كان كما صوت العصفور وسط أتون المعركة وصليل السيوف، صوتا خفيضا غير مسموع لكنه غير منقطع، قلب ينبض وسط موتٍ وسكوتِ عجزِ الذين قالوا للشيطان نعم. الكل خرّ، فرّط، خجل من عبادة الرب الواحد وصارت اسرائيل هي الشاة المذبوحة يأكلها أبنائها علي موائد الحكام إلا إيليا الذي كان لا يملك إلا غيرته علي الرب ويقين أن من قال لا هو الفائز في أخر الأمر حتما. لم يأت إيليا برسالة سلام، بل كانت رسالته رسالة نارية، دعوة بسقوط نار الرب، رسالة دم، من الألم

للألم جاء إبنا له، لم يدعوا للخانئين بالتوبة بل دعا عليهم، صلّي صلاة واحدة أن لا تمطر فخاصم المطر الأرض وانقطع وإستشري القحط وغطّت المجاعة بثوبها الحالك البلاد والرعية. كان يستطيع أن يدعو لهم، كان يستطيع أن يرأف بجهلهم، يطلب لهم الرحمة والعفو، كان يستطيع أن يعطهم خده الأيسر ليصفعوه، إلا أنه لم يفعل من هذا شيئا بل ذبح أنبياء البعل ذَبْح الخراف لما دانت له وتمكّن، كسّرَ كل تلك الرُكَابِى التي لمست الأرض وسجدت لغير الرب يسوع . لم ينسي الرب عبده إيليا الذي غار عليه ذابحا له الكهنة في سبيله فطمأنه ووقف جواره شادا من أذره لما تمني إيليا الموت بعد إضطهاد أخاب له...

العالم لا يعرف الضعيف ولا يرحمه، يدوس عليه بشغف وراحة ضمير، إذا أردت العيش فلا تخشي من خوف باغت ولا من خراب الأشرار إذا جاء لأن الرب معتمدك، يصون رِجْلك مِن أن تؤخذ. هذه هي كلمات الرب، كلمات الراعى تدعونا للوقوف في وجه الأشرار، يعلما ويناجينا ويثبت فينا الأيمان. يقول لخائفي القلوب تشدّدُوا لا تخافوا، هوذا إلهكم، الإنتقام يأتي، جزاء الله يأتي ويخلصكم. فإذا كانت الكراهية التي تحكم الأرض ومن عليها فكيف لنا أن نبادلها بالحب والتسامح؟!، ليس للكره إلا الكره، وليس للبغض إلا العداوة وإن كان هوذا أحب أعدائه وباركهم فهو الرب واسع الرحمة والمغفرة أما أنا فلن أستطيع، فلا تظنوا أنّي جئت لألقي سلاما علي الأرض، ما جئت لأُلْقي سلاما بل سيفا . ومن عنده أقوال أخري فأنا ماكث في انتظاره...

(١٠)

غريبة نظراته، أصْبَحت واثقة من نفسها. هو نفسه عرفة لكنّ أوداجه أنتفخت، بانت عروقه تحت جلده صارت تتسلق جسده عنوةً وكأن الدم إستيقظ بعد غفلة فبدأ بالعمل بجدٍ ليعوّض ما فاته، أصبح أكثر صرامة وقسوة، يعرف الذي كان لا يعرفه أبدا، جفت الطيبة التي كانت تملء عينيه واحتل الغموض منبعها، كل شيء في عينيه تغيّر حتَّى نظرته لي، في الأمس كانت نظرته تفيض حبا أما اليوم فباتت خاوية، خالية من أي معني، تهيج كما البحر دون مبرر وتهدأ أمواجه دون أسباب، حتَّى فراشه تحول لساحة كوليسيوم رومانية، معاركه حامية الوطيس لا تنتهي إلا بطرح أحدنا صريعا، حتَّى وهو نائم يتقلب قلقا طوال الليل وكأنه يقاتل في أحلامه...

كنت أظن أن إعتقال عليّ سيزعجه، سَيُرْبِكه، سيجعله حزينا، لكني فوجئت به يتقبل الخبر كمن يتلقي خبر أن اليوم هو الثلاثاء. غريب أمره، صارا لا يهمه شيئا وأصبح أكثر لِينا في كتاباته، يرقص بالقلم علي الأسطر، يتذلل للنظام ويمتدح أصحابه، كلماته تحولت لفرشاة تلميع لأحذية السادة المسئولين مثل عباراته التي لا شغلة لها إلا مسح جوخ كل أصحاب الوظائف الحساسة. لا أُنْكِر أني كنت أُريد هذا لكن ليس لمثل هذا، فرائحة النفاق أصبحت تفوح من كتاباته تزكم أنف من يسير عن بعد...

الآن يدخل. يرمي بسلسلة مفاتيحه علي الطاولة فيزيحها بقدمه التي وضعها هي الأخري لمّا جلس علي أحد المقاعد. حتَّى طلّته وجلسته

إختلفت. وبعد أن نظرت إليه مليّا بادرته بالكلام قائلة: مفيش جديد في موضوع "عليّ"؟

دون أن يكلف خاطره فينزع عينه وإهتمامه من شاشة هاتفه أجابني: لا جديد ولا قديم، بس سمعت إنهم خلاص خَلّصوا تحقيقات وقريب أوي هيرحّلوه علي السجن..

غاظني إستمرار إهماله وعدم نظره لي وهو يخاطبني إلا أني تحاملت وأخفيت غضبي من ثنايا كلامي لأكمل قائلة: وانت ناوي علي إيه..؟

هنا فقط وضع هاتفه علي الطاولة منزلا قدمه مقربا نصفه الأعلى ألى حتَّى أصبح وجهه قبال وجهي تماما ليجيبني بكلمات تعمدها بطيئه: وانتي عايزاني أعمل إيه أروح أتسجن مكانه مثلا..؟

- مقولتش كده، لكن كلّمْله حد من المسئولين أهم كلهم بقو حبايبك، إتصرف يا عرفة وخصوصا إنك عارف إن "علي" مش ممكن يكون عمل كده، "علي" طول عمره لا بتاع سياسة ولا عمره فكر فيها، أكيد في حاجة غلط، إنت هتقف تتفرج؟!، إنت لازم تعمل حاجة يا عرفة..

- وهو إنتي مالك متأكده كده ليه إن "علي" ميعملش كده، منين جيبتي اليقين ده، التحقيقات ومن قبلها التحريات والورق اللي لقوه في شقته وفـ مكتبه

بيقول عكس كده، بيقول إن "علي" كان بيتأمر علي البلد. عايزاني بقي أنا وغيري نكدّب كل دول ونصدّقك إنتي..؟!

- أيوه لأن "علي" ميعملش كده..

- إنتي مش ملاحظة يا أماني إنك مستميته أوي في الدفاع عن "علي"

- إنت ناسي إنه خاطب سماح أختك وقريب كانو هيتجوزوا..

- لا مش ناسي، وعشان كده فسخت الخطوبة..

- إنت بتقول إيه؟!، إزاي تعمل كده؟! إنت أخدت رأي مين؟!

- وهو مطلوب مني أخد رأي مين؟ إنتي مثلا؟

- علي الأقل صاحبة الأمر

- بصي يا أماني وياريت توصلي ده لسماح، أنا معنديش إستعداد أناسب واحد زي ده، واحد إتبرع بخيانته للبلد، وكمان ياستي ولنفرض إن ده محصلش وإن "علي" برئ، هل ده هيمنع إنه خاين..؟ بعد إذنك متتكلميش معايا في الموضوع ده تاني...

قالها ليستعيد هاتفه مرة أخري داسا عينيه في شاشته وكأن شيئا لم يكن. ماذا يقصد بقوله هذا، هل يعرف ما بيني وبين "علي"، لو يعرف فما الذي يجبره علي السكوت. الأسئلة في عقلي يصرّ عرفة علي ربّها يإنتظام في الأونة الأخيرة لتنمو وتكبر فيطرح كل سؤال ألف سؤال دون إجابة أو حصاد. ألم أقل أنه تغيّر. عرفة الذي لم يكن قادرا علي السير شبرا في الحياة بمفرده إلا ماسكا في تلابيب من

يقوده، صار الآن يأخذ قرارات وينفّذ، عرفة الذي كان يشغله كل الناس وعلي رأسهم "عليا" أصبح لا أحد يشغله. الأدهي من ذلك كلماته التي صارت تحمل أكثر من معني. كان في بادئ الأمر صامتا وهذا ما كنت منه أُعاني، يجيد الكلام والتعبير فقط علي الورق، الآن يتكلم وإن صَمَت فصمته مريب مثل عينيه...

ضاع عليّ. كُسِر أخر ما كنت اتّكأ عليه، حياتي تتأكل في تؤدةٍ كمنسأة سليمان. عرفة الذي كان لا هم له إلا إرضائي صار كأس الخمر لا يفارق يده، يعرف أنواع الخمور وأسمائها أكثر من معرفته لأسماء أيام الأسبوع، لا يروي عطشه غير الخمر، يعيش ليشرب، يحيا لِيُسْقيني القلق في أكواب نظراته وكلماته التي يرميني بها من أونة لأخري. حتَّى سماح لا تأتيني إلا ومنجنيق عينيها يقذفني بكراته النارية فيهدّم أسوار الطمأنينة التي تحاوط قلبي. لا يشغلها عني سوي إهتمامها بالعمل السياسي وما يحدث في البلاد، ينهاها عرفة كثيرًا، إلا أن ما حدث من تزويرٍ فج في إنتخابات مجلس الشعب الأخير جعل البلاد علي شَفَا حفرة من النار

****

(١١)

- إنت مش هتغير الكون يا محسن، اللي بتعمله ده مش صح، مفيش حد يقدر يحارب علي كل الجبهات اللي إنت بتحارب عليها دي وميخسرش..

ينظر إليها محسن ليجيبها بلهجة الواثق قائلا: ومين قال إني عايز أكسب!، أه المكسب حلو وطعمه أحلي بس مبفكرش فيه. أنا يهمني أشيل الخوف المزروع بالأمر في قلوب الناس، أخلي الناس تعرف إنها متولدتش ساكته وإن صريخها كان دليل حياتها، أقول للناس إنهم ممكن يتكلموا، يعترضوا، يقولوا اللي قافلين عليه قلوبهم بميت قفل وترباس..

- يا محسن البلد علي كف عفريت، والإعتقال بقي عند النظام ممارسة طبيعية من مقومات بقائه، وإنت مش ساكت، في الجامعة بين الدكاترة، في المدرجات بين الطلبة، حتَّى الكنيسة يا محسن بقيت ممنوع تدخلها..

يضحك بشدة فتستدركه قائلة: هو محدش منعك، إنت اللي منعت نفسك

تسود لحظات من صمت تتلاقي فيها الأعين فتلبي لي لي النداء جاثية علي ركبتيها سائرة عليها حتَّى تصل إلي كرسيه فتقترب منه أكثر حتَّى تصبح بين قدميه فتمسك يده بكلتا يديها مقبّلة إياها لتضعها علي خدها وكأنها تلتمس منه الوجود قائلة: عشان خاطري يا محسن بلاش، أنا مليش

غيرك، أنا من غيرك أموت، متموتنيش ببعادك..

ينظر إليها محدقا في عينيها حتَّى تدمع عينيه فيرفع رأسه أعلي حتَّى لا

تري دمعة يمسحها، يعاود النظر إليها مساويا خصلات شعرها برقة ونعومة، مهندما من ملبسها، مربتا علي ظهرها قائلا بعد صمت: متخافيش يا لي لي.. متخافيش.. أنا جنبك، وعارفة كمان أنا لو مت مش هسيبك برده، برده هتلاقيني بجيلك يوماتي في الأحلام..

تضع يدها علي فمه حتَّى لا يكمل قوله ساندة رأسها علي فخذه فتمر لحظات يوقفها بعدها مسندا إياها برفق قائلا: خلاص أنا مش هتكلم لا مع الدكاترة ولا مع الطلبة، وهروح الكنيسة وبرده مش هتكلم، مش هتكلم خالص، أقولك أنا مش هتكلم مع حد حتَّى معاكي، كويس كده..؟

ختم كلامه ضاحكا لتكمل لي لي قائلة: إتحجج بقي عشان متكلمنيش، لا.. كلمني أنا زي ما إنت عايز، متكلمش حد غيري..

يحتضن وجهها براحتيه طابعا قبلة علي مفرق شعرها قائلا لها في مزاح: حبيبتي كلها أنانية، عايزاني متكلمش خالص مع حد غير معاها، اسمّي ده حب..؟

- سمّيه زي ما تسمّيه، سمّيه خوف من إنّي أبقي لوحدي، سمّيه إني بحبك، سمّيه إني خايفة عليك، المهم تنفذ يا محسن.

بتهكم يرفع يده لتلمس أذنه ملقيا التحية العسكرية قائلا: تمام يا افندم، عُلِم وينفذ، بس إئذنيلي بقي أروح الجامعة لأن أكتر من كده هيتكلمو معايا، وهيجبروني أتكلم وإنتي عارفاني بحب الكلام

يضحك الإثنان، يأخذ حقيبته هاما بالأنصراف فتناديه قائلة: أه صح كويس أني أفتكرت، متنساش موضوع رفعت وأمنية، أمنية تعبانة جدا ومبقتش متحملة سخافاته أكتر من كده

- رفعت!، أنا تعبت من الكلام معاه، رفعت هو رفعت مبيتغيرش ومش ناوى يتغير، عموما هتصل بيه النهاردة وأقابله بعد الجامعة...

يعاود ألأقتراب منها طابعا على جبهتها قبلة قائلا: يللا بقى كفاية، مش هينفع أتأخر أكتر من كده، خدى بالك من نفسك، سلام يا حبيبتى

تستمر لي لي في النظر إلي باب الشقة بعد أن خرج بأرادة منها أن تخترقه بعينيها لتعبره حتَّى تطمئن علي محسن أكثر...

تَعْرِفُ يا محسن إني أخاف الوحدة، أرتعب حينما يكون جليسي نفْسي، ولكم أخشي من نفسي. تعلم ورغم هذا تحارب وتسعي لتتركني، أوَلم يكفِك من هجروني لتأتي أنت الأخر فتهجرني. أعلم أني لا أستحق غير هذا فأنا الذي رميت نفسي في السعير حينما خنتك، حينما إبتعدت عن الرب وتعاليمه، فالنار أظنها ليست كما يصفها بابا الكنيسة، فلا هي بنيران تشتعل فَتَتّقد، ولا هو بشيطان رجيم جاحظ العينين ينتظر إشارة الرب ليرمي له أحدنا فيطعنه بشوكته قبل أن

يقذفه في نار لا تُطفأ. النار ليست كما وصفوا، النار هي التي أعيشها الآن وأحياها، نار الذنب، نار الندم، نار الخوف مِن أن تتركني. إني أخونك وأدنس فراشك وأدوس علي كرامتك ورغم هذا أحبك، لا تسألني كيف فأنا لا أعلم. إن كنت أحبك فلما أخونك، وإن كنت أخونك فلمَ أحبك..؟!، أنا التي أجمع النقيضين، أنا النعيم الذي لن يأت إلا بألم الذنب، أنا الغفران الذي لن يأت إلا بالصلب، أنا المصلوبة والصالب، أنا المُعَذّبَة والمُعذّب، أنا كل هذا وكل هذا أنا...

خيانتي لك ما كانت رغبة في متعة أنت حرمتني منها، هل سَتُصَدّقني لو قلت أني كنت لا أطيق رائحة رفعت وأنا بين براثنه، هل سَتُصَدقني لو قلت أني أكره الجنس ولا أريده سواء جاء منك أو كان من أخر. يهوذا خان المسيح بحفنة من دنانير لمّا وشي عنه وكان موته ندما علي خيانته، أمي خانت أبي من أجل متعة رخيصة ورغبةً في أن تُعيد صباها فأتت وخانتني، وأبي خانني لمّا صَدّقها ليموت كمدا وحزنا علي ذنب لم أقترفه، وأنا خنتك وأنا أُحبك . وكأن يسوع يبعث ليُخان ويصلب من جديد...

هل تقبل توبتي يا محسن؟. هل لو جئتك بخطيئتي نادمة تائبة لتسمع إعترافي أستقبلني في زمرة التائبين النادمين، أتغلق باب الرحمة في وجهي أم ستفتح لي رحب الملكوت لأنعم فيه معك بقرب اليسوع. يسوع قال إنّ جباة الضرائب والزواني أحق بالنعيم وسيسبقونكم إلي ملكوت الله هذا إن تابوا، أنا لست بخائنة بل كنت أنتقم من نفسي لنفسي. كنت أنتقم من كل زوجة وأم خانت، كنت أنتقم

لكل زوج خانته زوجته من كل زوج خائن، إتهموني بالعهر وأنا العذراء البتول فرميتهم بالخيانة التي يستحقوها، وحتى وان كنت خائنة ألم أدفع؟!، أنسيت أنى حوسبت على ذنب لم أقترفه؟!، وصمونى بالعهر وأنا منه براء، أوَليس ما دفعته كافيا لتسامحنى؟!، اوليس موت أبى كمدا على وعلى شرفي الذي ظنه قد لطخ يشفع لي عندك؟! . هناك صوت صارخ في البرية، هيئوا طريق الرب، مهدوا في البادية الدرب، دربا قويما لإلهنا. كل واد يرتفع، كل جبل وتل ينخفض، يسير المعوج قويما، ووعر الأرض سهلا، فيظهر مجد الرب ويراه جميع البشر معا لأن الرب تكلم. هذا هو الرب الذي تؤمن به يري أن للمعوج طريق قويم، الرب قد قبل توبة الغانيه وجافي من إعترض طريق توبتها، يسوع يَقْبلني في ملكوته هذا إن تُبْت. وأنا لم أعد أقدر فالذنب علي كتفي كالجبل ثابت لا يتزعزع. ليس لي غيرك يا يسوع أنر ظلمتي، إحمل عني ذنبي، أرحني، أوَلست أنت من قال تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والرّازحين تحت أثقالكم وأنا أريحكم، ها أنا جئت إليك تائبة صاغرة نادمة معترفة مقرة بذنب جناه الأخرون، فأرحني وأحمل عني حملي فلقد ضاق الصدر وحَلَكَ طريق الأمل...

لا تتركني يا محسن...

****

(١٢)

رأيتكِ في الحلم ورأيت نفسي. رأيت نفسي في غرفة مكتبي أبحث عنكِ بين الكتب علي الأرفف، لا أدري لماذا كنت علي يقين أنكِ بين الكتب، الأوراق كانت متناثرة في الهواء وكأن الجاذبية إنعدمت في الغرفة، أوراق مبعثرة كما أفكاري، أمد يدي فأمسك ورقة لأقرأها علّي أجدكِ بين السطور، أفتح المَطْوي فتشرد أفكاري وينتابني القلق لأني أظنكِ بعيدة، أُقَلّبُ أكثر وبِهِمّة، وفجأة ظَهَرْتِ، خرجتِ من بين السطور، كنتِ حمامة بيضاء، أخذتِ تجوبين الغرفة طائرة في كل ركن، يرفرف جناحاكِ فيخرج منها رحيقا يتناثر في الغرفة، حاولتُ الإمساك بك. وفي كل مرة حاولتُ فيها كنتِ تفقدين ريشة من جناحيك، حتَّى صار الريش كما الأوراق متناثرا في الهواء مبعثراَ، أي تعويذة وأي سحر أسود حوّلكِ لحمامة بيضاء منزوعة الريش، حاولت تهدئتك إلا أن دموعكِ غلبتني مشيت بيدي علي جسدك عَلّي أهبك السكينه، دموعكِ صارت شلالا يملأ الغرفة حتَّى وصلت لكتفي، أُحاول الهرب من الغرق، أشرأب بعنقي رافعا جسدك إلي أعلي بطول يدي، أتشبث بالحياة، إلا أني رأيت عينيكِ تفقد بريقها، رأيتكِ ميتة بين يديّ، طيف روحك كان ينظر لي مبتسما في سقف الغرفة راضيا، يمد يده إليّ، هنا فقط توقفت عن محاولة التشبث والنجاة من الغرق في بحر دموعك، هنا فقط تيقنت أن الموت معك حياة فرحّبْتُ به، إستسلمت، تركت جسدي يغوص في بحر دموعك، دون ألم، دون أن تصرخ رئتي مستنجدة طالبة للهواء . لأستيقظ بعدها...

كل شيء كان في مساره علي النحو المضبوط، جاؤوني ليلا، أخذوني من علي فراشي بلباس نومي، لا أعلم كيف وصلت لسيارتهم، بشريطة سوداء حجبوا عني الرؤيا حين وضعوها علي عيني، في غرفة تخلوا من كل شيء إلا من دخان سجائرهم، هم لا يعرفون أني أعاني من ضيق التنفس، وأنا لم أُخبرهم، ولو عرفو هل تراهم يمتنعون؟!. خرج مَّن كان بالغرفة، رفعْت غمامتي، حجرة ضيقة لا تتسع إلا لما هو فيها، كرسي، منضدة، وحبل متدلي من السقف ليعلقوا منه ذبائحهم. أعرف ما أنا مقبل عليه. ما عدت أخشي عذابهم، يعرفون أنني جئتهم قبل ذلك، ويعرفون أيضًا أني مِن أول خمس جلدات خارت قوايا وعرضت عليهم خدماتي تطوعا، هربت من سياط الجلد لأقضي عمري يلهبنى سوط الضمير، هربت من جحيم غلظتهم وقسوتهم لأعيش في سعير مهانتي وذلي وهواني علي نفسي وأني لم أكن أبدا رجلا. الجلد والكهرباء يجعلان أعتي العتاة يصرخون بين أيديهم . الجسد يئن ويصرخ فيصرخ معه الفم، العظام تتفتت وكأنهم استخلصوها من ثنايا اللحم بعد أن صار عجينا هريا. لن يتركوني إلا ضعيفا هشا لينا باكيا ففي كل هذا انتصارهم فحياتهم لا تستقيم إلا بكسري واغتيال كرامتي. إن تحملت وكتمت صراخي فهذا سيغيظهم وسيحولهم إلي وحوش ضارية تنهش لحمي كما تنهش الضباع فريستها. سيوصلون الكهرباء لأماكن حساسة في جسدي فتتكفل بصراخي فيهزأ بي أحدهم قائلا " متجمد يا مرة أمال عامل فيها راجل ليه " هم لم يجربو جحيمها، لا يعرفون أن الكهرباء

حين تسري في الجسد وتستشري تجعل العقل يغلي ويفور، تتمني الإغماء وما إن تقترب منه إلا وتجدهم قد توقفوا، فتري نفسك وكأنك عائد من اللظي فيناوبوا ليوصلوك إليه مرة أخري...

بعد ساعة دخل غيرهم، من هيئتهما عرفتهما، أحدهما شاويشا وهذا ظاهر من شكله الضخم وملبسه وبذلك سيصبح هو المسئول عن ضبط زواياي واتجاهاتي إن رأي الأخر أني في حاجة إليها. الأخر كان في مثل عمري تقريبا وهو الذي بدأ معي التحقيق، سأل عن إسمي وكأنه لا يعرفه، سأل عن وظيفتي وكأنهم لم يتحروا عني، سأل عن أبي قائلا: يعني أبوك كان شيعي؟

أجبته محاولا إظهار تماسكي: معرفش أنا كنت صغير لما إتقتل، وبفرض إنه شيعي، دي مش تهمة

- أبوك يا علي متقتلش دي حادثة، خناءة بينه وبين أهل الشارع، كانت النتيجة إنه مات..

- حضرتك بتسمي إن واحد يتّاخد من بيته، ويتولّع فيه في نص الشارع وفي عز الضهر يتسحل في شوارع بلد إنها خناءة؟

بإبتسامة مستفزة تحمل كثيرًا من المعاني أجاب: خلاص يا عم متزعلش نفسك إتقتل، وأكيد الواد طلع لأبوه

- لا يا افندم أنا مطلعتش لحد وأكيد حضرتك عارف

- أيوه عارف إنك إنضميت لجماعة الجهاد وبتأيد أفكارهم

فهمت ما يرمي إليه المحقق والفخ الذي يريد إيقاعي فيه فأجبته بطريقة توصل إليه أني أستشعر فخه قائلا: بص يا افندم أنا لا شيعي ولا جهادي ولا أي حاجة وحضرتك عارف كده كويس، وعارف برده إني في فترة كنت متعاون معاكم

- ليه بتجمّل المسميات يا على، مسمهاش متعاون، إسمها مُرشد، عيل مرشد كان بيكتب تقارير في زمايله يعني من الأخر خاين وشرموط ومعندكش أصل..

لم أكن أعلم أن سياط الكلمات أشد وعورة من سياط الجلد، هو لم يخطئ، كنت خائنا، هانت عليّ نفسي فهان عليّ الأخرين. وكرغبة مني في عدم إظهار أن كلامه لم يدحض إرادتي أجبته: أنا صحفي وإسمي مدرج في نقابة الصحفيين واللي بيحصل معايا غير قانوني ومش هتكلم إلا في وجود محامي ومندوب من النقابة...

بعد شخرة وإشارة من المحقق أعلن الشاويش عن وجوده الذي كنت قد نسيته في غفلة مني ساحبا من تحت بنطلونه هرواة كاوتشية ضاربا بها إيايا في أنحاء متفرقة من جسدي غير مكتفيا بهرواته مشاركا إياها قدمه ويده الأخري فتكومت أرضا...

وبعد أن إنتهي الضخم من ضربي غادر المحقق كرسيه أتيا إلي مكاني نازلا علي ركبتيه دون أن أن تلمس الأرض واضعا يده علي رأسي قائلا بكل هدوء: هنا

لا في محامي ولا في مندوب، كام مرة أقول سيبوكم من الأفلام اللي مبوظة دماغتكم دي ومحفظاكم كلام عبيط، هنا مفيش غيري، واللي بعوزه هيحصل وإنت هتتكلم باللي أنا عايزه وبس.. متفقين..؟

قالها وهو يشدني من شعري ليجبرني علي الوقوف ليكمل كلامه:

طب تمام إنت لا شيعي ولا جهادي ولا أي حاجة زي مبتقول، إيه بقى بيوديك للعيال بتوع ٦ إبريل، إوعي ياد كان في حاجة بتاكلك فقولت أروحلهم يمكن ألاقي حد يريحني

أجبته بصمت لم يطل بسبب تدخل الضخم ليصفعني علي مؤخرة رأسي قائلا: رد علي الباشا "...

وقعت أرضا من قوة الصفعة، تحاملت علي نفسي لأغادرها واقفا ودون أن أدري هجمت علي ذلك الضخم محاولا ضربه، لم تنجح محاولتي بل أنها لم تبدأ، ركلني بقدمه بين فخذي لأقع أرضا مرة أخري متألما، ليسحب المحقق صاعقا كهربيا كان علي المنضدة التي أمامه فيصعقني به مرة تلو الأخري قائلا بلهجة يملؤها الحزم والقسوة: إنت فاكر نفسك راجل يا روح أمك، وشرف أمك اللي مكنش ليها شرف لعرّفك إن كنت راجل ولا مرة، يصرخ بإسم أحدهم فينفتح باب الغرفة علي رجل لا يقل ضخامة عمّا بداخلها فيقول له المحقق: هات حد معاك وتعالي

يدخل إثنان أخران الغرفة فيأمر المحقق الثلاثة قائلا: قلعوه كل هدومه لم أقاوم، فلم أكن أستطيعها، فالألم كان يحتل كل أنملة من

جسدي، لم أُقاوم لأني لو كنت أملك بعضا من مقاومة ففي تلك اللحظة كنت أدخرها لوعيي الذي كاد أن يغيب بسبب عدم قدرتي علي تحمل الألم أكثر...

أوقفوني ساندين إياي بعد أن عروني تماما، كان المحقق منهمكا في

هاتفه يتصفح شيئا ما ليرفع عينيه صوبي فينظر إليّ مليا ليقول مبتسما

- إنتو بتوروني عضلاته يا معرصين، قلعوه البوكسر عايز أكشف علي إبن الوسخة ده أشوفه راجل ولا نتاية..

هنا قاومتهم إلا أنها مقاومة لم تستمر، فقد صنعو حولي دائرة ضاربين إياي بكل ما أوتو من قوة، بالأقدام، بالأيدي، بالهروات، حتَّى فقدت الوعي..

من قال أن الغائبين عن الوعي لا يُدْركهم الألم، لا تأتيهم الأحلام، فقدت وعيي فرأيتكِ حلما. كنت أظن أنكي ستأتيني مؤازرة ودعما، كنت أنتظر منكي أن تحثّيني علي التحمل والصبر والمقاومة، لم أكن أتوقع أن تأتيني لتموتي إثناء غيبتي عن أرض الألم، موتكِ حتَّى وإن كان في خيالاتي فاق كل الألم الذي سبّبته هرواتهم وأقدامهم. لم أتحمل ألم موتكِ في إغمائتي فعدت إلي وعيي فوجدت يدي خلف ظهري معلقا منها بذلك الحبل المتدلي من السقف، مربوط في قدمي أسطوانة غاز منزلي، كتفاي يكادان أن ينخلعا من مكانهما، مهما وصفت قدر الألم الذي كان ينتابني فكل أقلام الدنيا أن تبارت فلن تستطيع وصفه، لا أدري إن

كنت ساعتها أصرخ أم لا فصراخ جسدي كان يغطي علي كل شئ، لم تكتفي زبانية جهنم بتعليقي بل تناوبوا على ضربي حتَّى أشار إليهم المحقق بالتوقف. إقترب مني واضعا يده علي الإسطوانة المعلقة في قدمي. كانت كل لمسة منه علي الأسطوانه تجعل الألم يتفاقم، كل هزة بسيطة تزلزل جسدي بمقياس عشرة ريختر. دفع الأسطوانة دفعة بسيطة فبان الألم علي وجهي فقال لي بشماتة: مستعد

أفك الأنبوبة، بس ميرضيكش إني أفكّها ببلاش، هفكها لو قولت أنا مره..

ضحك بشدة، تحاملت كثيرًا، جاهدت الكلمات التي تأبي الخروج من فمي: أنا مش مره.. أنا أرجل منك..

هذا أخر ما أذكره، هذا أخر ما نطقته. أطفأ سيجارته في مؤخرتي، تناوبوا علي ضربي وتعذيبي. لم أفق إلا علي همهمات تقبّلتْها أذني لأسمع أحدهم يقول: إبتدي يفوق

فتّحْتُ عيناي لأري كثيرًا من الوجوه واللحي، تلفّتُ في بطء لأتبين ما أنا فيه، عرفت أني في حجز مخصص للإسلاميين، حاولت النهوض لكني لم أستطع، شعرت أنّي علي وشك الإغماء مرة أخري، لم أُقاوم، بل تمنيت الإغماء لعلكي تأتيني..

من قال أن الغائبين عن الوعي لا يُدْركهم الألم، لا تأتيهم الأحلام..

****

(١٣)

لم أصدّق أبدا أنك مريض. حدّثتني نفسي أنك تدّعي المرض، وأن مرضك هذا ليس أكثر من عملية إستدراج خائبة فائحة الرائحة لأتي إلي شقتك. في البداية قررت عدم مجاراتك وغلق باب إستدراجك لي مثلما أغلقت الهاتف بعد تلقي مكالمتك، لكني لا أعلم لِم فكّرت في مطاوعتك وتلبية ما آلت إليه نفسك، أهو رغبة مني في أن أرى في نفسي أن هناك من يريدني، أم أنه تصديق مني بأني كشفت ألاعيبك وأني قادرة علي حماية نفسي حتّى وإن كنت أنا وأنت بصحبة شيطانك. كأن عقلي وقتها غادرني هاربا من كثرة عصف أفكاري. لم أشعر بنفسي إلا وباب شقتك مفتوح علي مصراعيه وأنت واقف أمامي مذهولا لمجيئي داعيا إياي للدخول...

لمّا دخلت عرفت لم قررت المجيء، لم ساقتني قدماي إليك، عرفت أيضًا أنك لم تكن تدّعي المرض بل أنك من الأصل لم تتوقع حضوري، كنت مريضا بحق، أيقنت لحظتها أني جئت لأعرفك أكثر، أقترب من عالمك في غفلة منك دون تجمّل لأعرف كيف تعيش، كيف تحيا بمفردك، كنت أريد أن أراك على طبيعتك عن قرب ودون رتوش...

حاولتَ الجلوس لكنك لم تستطع ولم تقو، أسندتك، أدخلتك إلي فراشك، دثّرتُك بغطائك، لا أدري لماذا حينها أتاني اليقين وأشرق قلبي بالحنين لطفل

منك، لا أدري لماذا لامست يديّ جبهتك، لا أعرف لماذا مرّت علي شعرك وكأن أصابعي تزداد من خصلاته من بعد سفر طويل، ضبطت نفسي متلبّسة وأنا أربّت علي كتفك بعدما أخذت يدك بين راحتي لأقبلها

فأضعها تحت غطائك، لِمَا فجأة إختلفت نظرتي إليك، لِمَ عصتني عيناي وأعلنت تمردها فلم أستطع أن أرفعها عنك. أنظر إليك، وكأن عيني تتعرف علي النور لأول مرة في وجهك. ما أبشع الإبحار في الضباب، الحقد والكره يجعلك في ليل دائم، يغيب القمر وينطفيء فتيله فتنتشر الظُلْمة فلا تري حتَّى نفسك، كل شيء في العين بقايا، فتات، الصورة مهزوزة غائمة، تستحسن الليل في بدئه فتري فيه العزلة والهدوء لكن سرعان ما تخشاه حينما يأتيك اليقين بأن المجهول فقط هو رفيق الليل ومؤنسك. كفاني غربة وتيها، آن الأوان ليستريح قلبي فيرسو علي شطآن حبك فيلم شراعه خافضا مجدافه منكسا راية ألمه . في النهاية وقبل أن أغادر غرفتك خلعْت حجابي متوجهة إلي المطبخ لأفعل مثلما رأيتهم يفعلون في الأفلام فأبحث عن شيء صالح للأكل فأصنع منه وجبة غذاء تُقوّيك وتجعلك قادرا علي مواجهة ضعف جسدك الظاهر والجليّ، وكما هو الحال في نفس تلك المواقف لم أجد شيئ...

لا أستطيع نسيان ذلك المشهد أبدا، لّما عاودْتُ إرتداء حجابي مستعينة بمرآة غرفتك، عازمة المغادرة للتسوق . فرحت كثيرًا، رقص قلبي لما واتتني فكرة أن آخذ مفتاح الشقة، حتَّى لا تغادر فراشك مرغما لِتفتح لي حين عودتي. شعور لا

أستطيع وصفه وأنا أُنظف شقتك مرتّبة محتوياتها المبعثرة، عشقت نفسي وأنا أطهو لك متذوقة ما أطهوه لأجده أشهي وأطعم ما طهوته في حياتي بأسرها رغم كونه طعام مرضي خال من كل محسنات الطعم . قاومت نفسي كثيرًا ألا أحتضن قميصك وأشتم

رائحة عرقك فلم أستطع...

الآن أعترف أنني أحببت دون قيد أو شرط. أحببتك دون إرادتي، دون وعي مني، كالعادة جانبنى قلبى، حتَّى حبك لم أختره، فقدت القدرة علي التحكم، لم أعد قادرة علي مواصلة إدعائي أني لا أذوب فيك عشقا، أني لا أتنفسك، لم أعد أقوي، رضخت رغما عني وأعلن قلبي الإستسلام خارت كل قواي في صد عشقك، حبك فُرض عليّ، لم أكن أُريده، فعلت كل شيء حتَّى لا يتسلل إلي قلبي، جاهدت وحاربت حتَّى أتوقف عن حبك، الآن أحبك، وفي كل مرة كنت أحاول فيها كرهك كنت أحبك أكثر. كعائم ضل البر، يسبح بكل ما أوتى من قوة جاهل أنه يتعمق في البحر. كنت أظن أنّي سأظل ثابتة علي موقفي ويظل قلبي متمسكا بما إكتسبه من سنين القسوة التي مرت عليه فجعلته صلدا مجوفا تتردد فيه المشاعر وسرعان ما تنمحي ليقف في وجه أي محاولة للتغير. لم ساقك القدر إليّ، كنت إعتدت الحياة علي منوالها، كنت أظن أني سأظل أكره ما دمت أحيا إلا أني أُحببتك، هذا قرار قلبي الذي ليس لي دخل فيه، إختياره وقدري، أنفاس روحي ونبضي، شمسي التي تشرق بين كفيك دون غروب، غدي

الذي أراه كامنا في عينيك. أتذكر أخي فأرغب بالهروب والبعاد لكن من يعشق لا يملك حرية الإبتعاد، فالفراق رفاهية لا يملكها العشاق وياليت الأمر قرار يأخذه عقلي لكانت الراحة نصيبي فقلبي هو الذي يسيّرني، هو الخصم وهو الحكم...

وقَفْتُ أمام فراشه أنظر إليه، لا أنبس بكلمة حتَّى لا يستيقظ، أتأمله في صمت ورغبة لأشبع منه فيرتوي قلبي الذي لا يفارقه الظمأ . حتَّى صوت أنفاسي ودقات قلبي أحاول منعها فأجدهما يهتفان بإسمه. فتح عينيه فأشرقت الأرض بنور ربها، رآني أنظر إليه وأتمعن في تفاصيل وجهه سارحة فيه فابتسم في عذوبة ودفء فابتسمت الدنيا لأول مرة. إقتربت منه لأساعده علي الجلوس بعد أن وضعت وسادة وراء ظهره، لمس جسده جسدي جعل كلي يرتجف، سرت بجسدي رعشة لا أستطيع وصفها، رعشة لم تكن لإضطراب أو لخوف، وكيف أضطرب وقد وهبت جسدي له، جسدي الذي أقسم بحبه وصار عشقه يسري في أوردتي وشراييني، وبمثل ما كرهت جسدي قبل ذلك بمثل ما عشقته وقتها...

إكتشفت فيك شيئا جديدا، إكتشفت فيك خجلك وأنا أُطعمك بيدي، كانت عيناك تفر كلما تلاقت عينانا، كنت كما الصغير الذي تُطْعمه أمه فيأبي، حتَّى يريها أنه قد كبر وأنه يستطيع الإعتماد علي نفسه. لماذا فعلت بنفسك هذا؟، لماذا سلّمت نفسك لأول شار علي الطريق، كنت تستطيع أن تصمد حتَّى نلتقي فتصير لي وأصير لك...

عاودت نومك كما صغير شعر بالطمأنينه لوجود أمه جواره تداعب شعره في حنان. قمت من مكاني لأكمل ما بدأته في تنظيف شقتك. لم أدري سببا لسعادتى، لمْ يرقص قلبي فرحا هكذا. أأنا سماح التي كانت لا تعيش إلا لتكره . كيف لم أفجع ولم أنتفض لمّا تلامسا جسدانا دون قصد. قبل ذلك كنت لا أطيق أن يلمس أحدهم جسدي حتَّى لو كانت إحدي صديقاتي، لما لم أجذع بل وددت لو أن يكمل...

فوجئت بك ورائي . ببطء مددت يدك، لمست كتفي، أدرتني بهدوء، كنت مستسلمة لك فأزيلت كل المسافات بيننا، لم يبق منها غير المسافة التي بين شفتينا، أسْبَلْتُ جفناي، أردتُ الإرتماء بين ذراعيك، لم أكن أبدا خائفة منك كان يقيني أنك ستحافظ عليّ، أردتني أن أسكن في صدرك، هكذا قالت عيناك، إحتضنتني لأستقر في المكان الذي خُلق خصيصا لي وخلقت من أجله. أملْت رأسي علي كتفك، إحتضنتني أكثر حتَّى صار قلبك بين ضلوعي فتسللت يدك تداعب شعري، أدركت مطلبي وعرفت كم أنا في أمس الحاجة لتلك اللمسة الحانية والتي لا أريد غيرها لتخرجني من الظلمات إلي النور ومن جحيم القسوة والكره لجنة الخلد التي لا تعرف غير الحب. إحتضنتك بذراعي وكأني أخشى أن يأخذك أحدهم مني، لم يرسل مخي إلي يدي أي إشارة، ورغم هذا رأيت يدي تذهب إلي يديك ليستقر كفّي علي شاطيء كفك فيرتوي عطشه وتنساب خطوطه وتجاويفه سهولا وبساتين، بيدي رفعت يدك فقبّلت راحتك قبل أن أضعها علي خدي

أستقي منها الحب والحنان، كانت شفتاي مثل كفي تصرخ عطشا، نادتني شفتاك، أرادت أن تزيل حتَّى المسافة التي بين شفتينا، تُسْقِط كل قيم المسافات فتصبح المسافات عدم والوقت خواء لا تتحرك عقاربه. نادت فلبيت النداء، أجابت شفتاك شفتاي، تعارفا والتحما فتلاقى نهرانا لتوقفني دموعك التي لامست خدي، أيقظتني، جعلت من نفسها سدا حتَّى لا تنهل من جسدي فينساب نهر عطشي أكثر من هذا، أخرجتني من حضنك، أبعدتني برفق، رأيت دموعك تتهادي علي خدك، مددت يدي لأمسحها قائلة: ليه بتعيط يا علي

- مين قال إني بعيط؟ أنا مبعيطش، إنتي إتأخرتي ولازم تمشي

- لا بتعيط. في إيه؟

- مفيش حاجة صدقيني، تعبان بس شوية

قالها ليستند متكئا علي المقعد الذي يقابله فيجلس عليه، فجلست قبالته علي ركبتي تحت قدميه لأمسك براحتي وجهه قائلة: مش موضوع تعب، إنت في حاجة مخبيها عليا..؟

نظر إليّ وفي عينيه حنين الدنيا ونعيمها، سافرت أصابعه بين ثنايا شعري ليلمس خصلتين تاهتا علي وجهي فيرجعها خلف أذني. خسأ من قال أن الشيطان يكمن في التفاصيل. فكل خلجة من خلجات وجهك، كل لمسة، كل نظرة، كل تفصيلة منك نحتتها عيني علي جدارات قلبي. إلى الآن ما زلت أذكر تلك النظرة التي رأيتها في عينيك، كانتا مغرورقتان بالدموع، ترغب الكلمات كما

الدموع الخروج منها. تحملني يديك، تساعدني علي النهوض لتجلسني على مقعد قائلا: أقعدي يا سماح واسمعيني كويس عايز أقولك علي حاجة.

بكلمات ثقيلة علي لسانك تأبي الخروج، بصوت خفيض وأنت تفرك يديك ببعضها بدأت الحديث. حكيت لي كل شيء، عن أماني وخيانتك لأخي، حتَّى ماضيك وتعاونك مع الأمن والأبلاغ عن أصحابك، كل شيء حكيته وكأنك تعترف بين يدي راهب متخلصا من كل أثامك...

سمعتك دون تعليق، لم تصدر عني ولو كلمة واحدة، أردت مساعدتك في أن تلقي ما علي كاهلك من أحمال، أردتك أن تتحرر من قيد سرك وأغلال ما تخشي أن أعرفه. جلّ ما قلته كنت أتوقّعه . ولكم تمنيت أن يخيب ظن توقعي، كنت كما الغارقة المستنجدة أبحث بين كلماتك ولو كذبا عن ما يخفف وطأة حديثك وقسوته، كم تمنّيت أن يكن حديثك كذبا ملفقا. ورغم معرفتي إلا أني صُدِمْت وكأني أعرف لأول مرة، كانت كلماتك كما السكين الثلم يقطّع في قلبي دون رحمة. تركتك مغادرة وكان هذا أخر ما بيننا قبل أن يعتقلوك..

خمسون يوما علي فراقك، كل يوم يمر كهلا، يسير ببطء، يمر وكأنه دهرا. خمسون يوما بدونك، خمسون صباحا، خمسون ليلا، في غيابك لا أشعر أني أحيا، تئن ضلوعي في كل نفس تأخذه رئتاي رغما عني. في بعدك تخمد ثورة نبضاتي فتغادر ميدان قلبي معلنة إستسلامها لاستبداد غيابك، تعصاني إرادتي، تذوب كمكعب ثلج أخرجوه من مُبرّده ليضعوه في قلب صحراء اليأس القاحلة. لكن

ورغم هذا لن يفت عضدي، سأناضل مدافعة عن حبك حتَّى لو وقفت وحيدة أمام جحافل اليأس، سأُناضل حتَّى وإن لم يتبقي لي إلا قلبا يحمل ذكري ذراعك التي إحتوتني في ذلك اليوم. سأظل أنتظرك، لن يروا مني غير بأس إرادتي في إنتظارك، لن يشموا خوفي وخشيتي مِن أن تشيخ روحي بدونك فتخبوا ثريات عشقي لك فأرجع مجبرة للظلام مرة أخري. لكن حتَّى وإن رجعت سأظل أحيا علي أمل لقياك لتُخْرجني مرة أخري من غياهب سجن ظلمتي...

لو كان الأمر بيدي ساعتها لأوقفت عقارب الساعة، لاعتزلت العالم إلّاك، لأختزل فيك الحياة فأجعل من حضنك شرنقة لا أخرج منها أبدا. نعم تمنيت وقتها أن يتوقف الزمن، فيثبت المشهد، لتتوقف كل الأشياء، فتسكت كل الأصوات إلا صوت أنفاسك، وهمس شفتاك لشفتاي فيسمع قلبي سرها الأعظم فيظل يتردد بين ثنايا روحي إلي أبد الأبدين. تزيد الأمنيات تترجاني أن أتمناها. ففي حضنك شعرت أني ملكت الدنيا فزادت رغبتي في توقف الوقت بنا في نقطة شفق فوق سحابات شتاء دافئة أو نقطة مطر تحملها ريشة طائر مهاجر لما وراء الوجود. إني أحبك وسأنتظرك لعلك في يوم تأتي، لعلك في يوم ترجع، فتنير ظلمتي، وتهدأ امواجي المتلاطمة. فترسو سفينتى على شاطئ. سأنتظرك حتَّى ولو ضج الأنتظار من أنتظارى وأضحى أنتظارك لا أمل فيه ولا رجاء...

****

(١٤)

فى منتصف الصالة جالسة أرضا بين المقاعد المتناثرة يلامس مشطى قدميها الأرض، تتعانق يداها بعد فراق مرتاحة على ركبتيها، يختبئ وجهها بالكامل في الفراغ الكامن بين فخذيها ويديها المتعانقتين فلا يظهر منها غير شعرها المنسدل والذي تبرع هو الأخر بتخبئة ظهرها المحنى بفعل العجز. يتخطاها شعاع نور بخيل نحيل خجل متقطع يأتى على هيئة نبضات من لوحة أعلانية على سطح البناية المقابلة، شعاع نور يأبى الدخول طوعا فتسرب مجبرا من بين خيوط الستارة الحالكة التي على النافذة. فلتات نور تعارك الظلام المنتشر فينتصر عليها فلا يبقى غير بقايا من ضوء باهت أتى مستقره على صورة المسيح المعلقة التي تجلس قباالها...

ترفع وجهها، دموعها على خديها مفتوح هويسها، دموع غزيرة متواصلة تروى الخد فينبت الحزن أوراقا وفروعا فيصير شجرا يغمر الوجه. تنظر ألى الصورة فترى مسيحها ينظر أليها معاتبا مخاصما بعين حزينة. تلتاع نظراتها، تغمض عينيها معاودة طمس وجهها. تخرج الكلمات فلا تدري حين تسمع من أين يجئ صداها، وكأن جسدها هو الذي يتكلم لا فمها..

الأن أعرف لما تعذبت لتحمل عنا خطايانا، غفرت وأنبت إلا أنك لم ترفع عنا العذاب والألم، غمستنا فيه، تركتنا له ينهش صدورنا فيقتات علي حياتنا حتَّى ينهيها. ضننت بكرمك فتركت فينا ما يفوق ألم الذنب إحتمالا. كنت تستطيع أن

تميتني فترفع عني كل عذاباتك وتجنبني إياها، كنت تستطيع أن تترك لي أبي ولا تأخذه مني بحسرته عليّ. سلاحك الموت وأيضا كلمتك، تلقيه وتلقيها دائمًا في أذن من لا يسمع وعقل من لا يدرك وقلب من لا يشعر أو يريد. لم يرد أبي الموت ولم أرده له فأردته وأمته، دعوتك علّك تستجيب فتمن براحة الموت وخلاصه لى فبخلت به، كتبت العذاب والألم، تأخذ منا ما نتمسك به وتترك فينا ما لا نتحمله ولا نطيقه، تصنع من حياتنا تيها وتحاسب إن ضلت خرافك الطريق.. كيف السبيل.. كيف الخلاص...

ظلت على حالها ساقطة راسها بين قدميها، تخرج الكلمات منها فتسمعها واضحة أو مهمهمة ثم تصمت بعدها كثيرًا فلا يميزها عن الأحياء إلا صوت أهات تذرفها بين الحينة والأخرى. تقاطعها رنة هاتفها فتقاطعه. يصرخ جرس الباب فتأبي سماعه..

تسمع أمنية من وراء الباب تهاتف أحدهم سائلة عنها قائلة: أيوه موبيلها جوه سامعاه، عمال أرن الجرس محدش بيفتح

تتحامل لي لي علي نفسها مغادرة جلستها لتفتح لأمنية الباب

- أيه يابنتي معقول كل ده نايمة!! الجيران صحيوا

تدعوها لي لي للدخول فتكمل أمنية

- وليه الضلمة دي؟ قاعدة في الضلمة كده أزاى..؟

تتحسس أمنية الحائط حتَّى تصل أصابعها لمفتاح الأنارة فتضغطه،

تصعق حينما تري وجه لى لى قائلة: في أيه!؟، أنتى كنتى بتعيطى؟

تمسح لى لى وجهها بطرف كمها قائلة

- لا بعيط ولا حاجة يمكن عشان لسه صاحية

- في أيه يا لى لى، أنتى بقالك كذا يوم مش مظبوطة مالك يا لى لى هتخبى عليا!؟

- صدقينى مفيش، أنتى بس اللى بيتهيألك، تشربي أيه؟ أنا هعمل لنفسي نيس كافيه، أعملك معايا؟

تومئ أمنية بالموافقه فتغادرها لى لى متوجهة للمطبخ..

تخاطبها أمنية معلية من صوتها قائلة: طب مكنتيش بتردى على موبيلك ليه ده كمان بيتهيألى؟

بصوت عال: عاملاه "سيلنت" ومبيصش عليه خالص ولا بمسكه

قالتها ليأت صوت أشعار من هاتفها يكذبها..

تنحنى أمنية أخذة هاتف لى لى الملقى على الأرض فتجد على شاشته المضيئة أسم رفعت زوجها، ودون أن تدري تعبث أصابعها بكلمة مرور مرسومة فيلبيها الهاتف مفتوحا..

تقرأ أمنية الرسالة فيظهر الذهول على وجهها، تدخل لى لى حاملة صينية عليها كوبين من الخزف يتصاعد منهما دخان ما فيهما، ترى أمارات الذهول على وجه أمنية فتظهر الصدمة جلية على وجه لى لى..

بعد صمت مطبق تكسره أمنية: ايه ده؟ تجاوبها لى لى بالصمت فتكمل أمنية: أنتى تخونينى؟

بتلعثم: أنتى مش فاهمة حاجة

بغضب وصراخ: مش فاهمة ايه؟، ايه اللى مش فاهماه؟،

أقرب صاحبة ليا جوزى باعتلها رسالة يقولها أنه جايلها بليل وبسلامته بيقولها على القميص اللى نفسه يشوفه عليها، ايه اللى مش فاهماه يا لى لى؟

ترتعد لى لى مرتجفة من صراخ أمنية فيسقط من يديها ما تحمله لتكمل أمنية

- وأنا اللى كنت بجيلك اشتكيلك؟!، مصعبتش عليكي؟!، مقولتيش مرة لنفسك كفاية دى صاحبتى، دموعى مأثرتش فيكى؟!، هنت عليكى للدرجادي عشان تعملى فيا كده؟!

بصوت خفيض مكتوم: ممكن تسمعينى؟

- أسمعك!!، هتقولى أيه؟!، هتقوليلى أزاى خنتينى؟!، ولا هتقوليلى كنتى بتحسي بأيه وانتى في حضنه؟

- لا مش هقول اي حاجة من دى، أنا هقول أنا أسفة

بصراخ: أسفة؟!، تخونينى مع جوزي وتقوليلى أسفة؟!، والمطلوب منى بقى أيه دلوقتى؟، أقولك لا عادى ولا يهمك؟!

- مش مطلوب منك حاجة غير أنك تعرفى أنى ندمت، وأنى حاليا مبقابلوش، وان كل كلمة كنتى بتشتكيلى فيها منه كانت بتدبحنى، وأنى والله أكتر من مرة حاولت اقولك واعترفلك، بس كنت ببقى خايفة أخسرك

- وأنتى كده كسبتينى؟! ولما أنتى خايفة تخسرينى ليه عملتى كده؟!، ليه رميتى نفسك في حضنه، ليه خنتينى، عملت فيكى أيه عشان تعملى فيا كده؟

تتهاوى أمنية على أحد المقاعد باكية بشدة واضعة وجهها بين كفيها، تقترب منها لى لى، دون أن تشعر تدوس على بقايا الأكواب المكسورة التي كانت تحملها فتجرح قدميها، يختلط الدم ببقعة المشروب المسكوب على الأرض، تتردد في وضع يديها على كتفها، تضعها في نهاية الأمر لما أستمر نحيب أمنية، تربت عليها قائلة: سامحينى..

تتوقف أمنية عن البكاء لتنظر أليها صامتة مستنكرة فتكمل لى لى: عارفة أن أي حاجة هقولها مش هيبقى ليها لازمة، لكن سامحينى، غصب عني كانت واحدة غيري مكنتش أنا، وصدقينى ندمانة، بتقطع وبموت كل دقيقة، كفاية اللى انا فيه، سامحينى

- أسامحك؟!، أسامحك على أيه ولا أيه، أسامحك على الليالى اللى عدت عليا دمعتى فيها منشفتش من على خدى، ولا أسامحك على كل مرة كان بيجينى فيها من عندك وابقى شامة ريحة جسمك على كفه وشايفة صورتك في عنيه، بسهولة كده أسامحك؟، عارفة أنا كان ممكن أتحمل خيانته مع ميت ست غيري لكن فعلا

خيانته معاكى حاجة تانية، أنتى خلصتى على اللى باقى منى، قتلتى فيا أخر حاجة ممكن تخليني مجبرة أنى أعيش

يعلو بكاء لى لى فتتوه الكلمات بين نحيبها فلا تميز أمنية من كلماتها غير كلمات مبعثرة مثل، أنتى أعز صاحبة ليا، انا تعبانة أوى، أنا محتاجالك، متسبينيش، أنا أسفة، أنا بتمنى الموت

بغلظة تدفع أمنية يد لى لى التي على كتفها قائلة: موت!، الموت للى

زيك راحة، اللى زيك المفروض ميموتش يفضل يتعذب في الدنيا بذنبه يتمنى الموت وميطلوش..

تقف أمنية على قدميها فتبادلها لى لى التداعى على ركبتيها متوسلة قائلة: عشان خاطرى سامحينى أنا أسفة

ناظرة أليها نظرة تحمل كل غضب الدنيا ومقتها قائلة: ممكن ربنا يسامحك مع أن اللى زيك شيطان أتخلق بس عشان يئذي، أما انا وحتى لو حاولت أسامحك فمش هعرف، أنتى قضيتى عليا..

تغادرها أمنية صافعة باب الشقة ورائها لتظل لى لى جاثية على ركبتيها كما كانت ناظرة شاخصة ألى الباب لتتهاوى أرضا على جنبها متكورة على نفسها عاليا نحيبها...

****

يا صديق، في الطريق كنت معي،
تلك الجثة التي زرعتها في أرضك
هل بدأت تورق؟،
أم أن صقيع المشاعر قد أقض مضجعها..؟

(١٥)

الحقيقة.. تخيل انها في صندوق مغلق، لا تعرف ما بداخل الصندوق، أحتمال الحقيقة يتساوي باحتمال الزيف طالما لم تفتح الصندوق، ما بداخل الصندوق ينتظرك لتحدد ماهيته. أنت الذي تجعل من الحقيقة حقيقة ومن الزيف زيف، عقلك فقط هو الذي يحدد أمر الشئ بناء على ما استوعبه، فيظل السؤال قائما هل ما استوعبه عقلك هو الحقيقة؟، وهل لما استوعبها فأنه قد استوعب الحقيقة كاملة؟، باختصار هل يستطيع أحدكم أن يري ضوء الشمس كاملا...

ينحي الميكروفون قائلا: دي أخر محاضرة في المادة، اللى عايز يسأل يتفضل، وبلاش سؤال إيه الملغى لأن مفيش حاجة ملغية، كل اللى في الكتاب ممكن ييجي منه الأمتحان..

يضحك الطلاب بادئين برفع أيديهم منتظرا كل منهم أختياره ليطرح سؤاله فيختار محسن أحداهن قائلا: نحاول نكون متحضرين ونبدأ بالبنات الجميلات، قولى سؤالك

كده حضرتك بتشكك في كل حاجة، حضرتك كده بتقول أن مفيش حاجة أسمها حقيقة.

يشير أليها محسن بالجلوس قائلا: كنت واثق أنكم هتفهمو كده، مع أنكم لو ركزتوا في كلامى هتلاقونى بقول العكس تماما، هفرض مثال. لو حالا سألت واحد فيكم كام واحد في القاعة هلاقى أجابات كتير مختلفة وكلها صح هلاقى

واحد بيقولى أن اللى في القاعة هو عدد الدفعة، هو صح لكن مش ده العدد الفعلى الموجود حاليا. هلاقى واحد تانى هيبص على عدد المدرجات ويخمن أن كل مدرج فيه عدد ما وبطريقة حسابية هيقول المدرج فيه كذا، برده هو صح لكن برده مش ده العدد الفعلى، وهلاقى برده واحد تالت وهيكون على يقين أنه صح لأنه عد كل الموجودين فعليا وقال على عددهم لكنه وهو بيقول على عددهم مأخدش باله من الأستاذ المتأخر اللى لسه داخل حالا متأخر قالها مشيرا على أحد الطلبة الداخل توا من باب القاعة

يضحك الجميع فيرتبك الطالب قائلا: أسف يا دكتور والله المترو

يشير أليه محسن بالجلوس قائلا: طبعا هفترض أنه صادق وأنه مبيكدبش بس في الحالة دى هكدب النظام اللى قال في نشرته من شوية أن المترو متعطلش النهاردة وغالبا النظام هو اللى بيكدب

تعاود الطلبة ضحكها فيكمل محسن قائلا:الإيمان هو الفيصل، هتفضل الحقيقة حقيقة والزيف زيف لكن بالأيمان، بالتصديق القلبى أنا مسيحى ومن حقى أشوف المسيحية حقيقة وانا فعلا شايفها كده، لكن هل ده معناه إن الأسلام زيف..؟؟

تسرى همهمات بين الطلبة معترضة فيكمل محسن: لا، الأسلام مش زيف ولا أنا شايفه زيف، وعلى فكرة بحب المنشاوى وبتسلطن منه، وبعشق نصر الدين طوبار والنقشبندى وقلبى بيهدي لما بيسمعهم. وهقولكم مثال يبين ده.. في

أيتين في سورة المدثر بيقولو " كأنهم حُمُرٌ مستنفرة، فرت من قسورة" حد فيكم يعرف يفسّر الأيتين دول..؟

يرفع معظم الطلبة أيديهم فيتعمّد محسن إختيار شاب ذا لحية ظاهرا علي هيئته التدين قائلا: إتفضل إنت

- كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة.. أيتين في وصف أهل الكفر يوم القيامة بأنهم سيفرون من النار فرار الحمر جمع حمار إذا رؤوا أسدا قويا

- برافو إنت فعلا قسورة، صقفوله

تصفق الطلبة فيشير إليهم محسن بالتوقف قائلا: طبعا إنتو فهمتو إني مدحته، للأسف أنا شتمته، أصل لو بصينا علي كلمة قسورة هنلاقي إنها كلمة مش عربية دي كلمة حبشية معناها الأسد القوي وبكده يبقي زميلكم مغلطش في تفسيره. بس تقولو إيه لمّا تعرفو إن نفس الكلمة موجودة في السيريانية ومعناها الحمار العجوز الذي لا يقوي علي الحركة!، طب بصو كده علي الأية من تاني، كأنهم حُمُر فرت مستنفرة من حمار عجوز هرم لا يقوي علي الحركة حتَّى لا يعيقهم إذا هم أرادوا الفرار، وبالمناسبة وخارج السياق ده من طبيعة قطعان الحمير بيلفظوا وبيغادروا المكان لو ظهر منهم حمار لا يقوي علي الحركة. هنا الكلمة الواحدة طلعت مشتركة في لغتين وليها معنيين مختلفين تماما عن بعض، دول مش بس مختلفين دول يكادوا يكونو عكس بعض ورغم كده إدونا نفس المعني وهو معني الفرار الشديد، الأية هنا ثابتة نظرتنا ليها هيا اللي أختلفت، وده راجع

لثقافتنا وبيئتنا وعقولنا اللي بتستوعب. حقيقة؟، أه حقيقة بس نظرتك ليها اللي ممكن تكون زيف، إستيعابك ليها هو اللي ممكن يكون غلط، إنت اللي بتشوف الحقيقة أو بتنكرها عشان كده لازم تكون مدرك فكرة وجود أكتر من حقيقة، فكرة أقرارك أن الحقيقة اللى أنت بتدافع عنها ممكن أوى متكونش حقيقة وحتى لو كانت ففكرة فرضها على ناس مش شايفاها حقيقة هو درب من الجنون. كملوا أسئلة.

يأخذ أحدهم السبق فيسأل: البلد دى رايحة على فين؟

يظهر أستنكار هزلى على وجه محسن قائلا: وايه علاقة ده بالفلسفة الوجودية، كده انت هتزعلهم مننا..

يضحك الجميع فيكمل محسن قائلا: عموما مفيش حاجة ملهاش علاقة بالفلسفة زى ما قولت قبل كده، ولو عايز تعرف البلد رايحة على فين أنا أقولك البلد رايحة على المنطقة الرمادية. أستنوا هوضح بلاش كلام جانبى.. يعنى إيه منطقة رماديه، يعنى ببساطه هو نفس الموضوع اللى بتكلم فيه، البلد فيها ناس شايفة أنها الأحق بالحكم، وناس تانية شايفة أن الناس الأحق بالحكم مدعين وأنهم الأحق، وناس غيرهم مصدقة الفصيل الأول، وناس غير دول مصدقة الفصيل التانى، وناس غير كل دول بتتطحن وبتتفرم عشان يبقى كل دورها في الحياة أنهم يترصوا فوق بعض عشان الناس اللى شايفة في نفسها الحقيقة تقف على جثثهم وأحلامهم وتعلى أكتر وأكتر. الكل شايف إنه صح، إنه حقيقة، إن اللى

بيتبناه من أفكار هو الصواب بعينه. مع إن في حقيقة كبيرة وواضحة محدش عايز يشوفها إن في ناس بتضيع ووطن بيتحرق. كفاية كده نتقابل في الأمتحان ويا ويلكم منى...

قالها لما رأى ثلاثة أفراد عند الطرف الأخر من القاعة لتبدأ الطلبة في الأنصراف واحدا تلو الأخر، فيدخل من كانوا ينتظرون خلو القاعة..

يتجاهلهم محسن حتَّى وصلوا إلى مكانه ليقول أحدهم: دكتور محسن ممكن تتفضل معانا.

- مين أنتو واتفضل معاكم فين؟

- تعالى معانا وأنت هتعرف كل حاجة

إقتادوه في طرقات الجامعة وشوارعها حتَّى وصلوا به إلى إحدي السيارات فأشاروا إليه بالركوب فبان إعتراضه قائلا: مش هركب معاكم، واضح من شكلكم إنكم أمن، أنتو دخلتو أزاى الجامعة، مين سمحلكم، وازاى تدخلوا لحد المدرج وتقبضوا عليا، أنا مش هتحرك ألا لما أشوف إذن النيابة، أنا مش هسكت ولا مجلس الجامعة هيسكت

يدفعه أحدهم بقوة فكاد أن يقع أرضا لولا أنهم أسندوه، ليقول أخر بلهجة ذات مغزي: أحنا لحد دلوقتى محافظين على شكلك قدام الطلبة، بنتعامل معاك وحاطين في بالنا أن دي جامعة وأنك دكتور جامعة، لكن فعليا أحنا معندناش

مانع إننا ننسي كل ده ونوريك وش تانى خالص وبرده هتيجى معانا بس ساعتها هتيجى متشال مش ماشى على رجلك، أتفضل معانا بهدوء أحسن..

يتلفت محسن حوله فيري أحد طلابه قادما نحوهم بوجه ينبئ عن نية التدخل فيهرع بدخول السيارة لتنطلق مسرعة في شوارع القاهرة وضواحيها المزدحمة...

بغرفة ضيقة تحتوى على منضدة وكرسيين وضعوه، كانوا قد جردوه من هاتفه وحقيبته حتَّى ساعته التي كانت على معصمه، لم يكن يدرى كم من الوقت كان قد مر عليه. كان يعلم أن ذلك هو منهجهم في التعامل وأن تلك طريقة من طرقهم الكثيرة التي يضغطون بها على من يحققون معهم حتَّى ينهاروا...

غادر كرسيه ليواجه نافذة زجاجية قائلا: عارف إن في حد بيراقبنى، أنا معنديش مشكلة تسيبونى كده يوم واتنين، بس هاتولى أدويتى، أنا مريض وباخد علاج ومينفعش مخدوش

يدخل أحدهم فجأة قائلا: مش أنت يا دكتور اللى تقول ينفع ومينفعش، أحنا بس اللى بنقرر ده، أتفضل أقعد مكانك عشان محتاجين نتكلم مع بعض شوية، قالها وهو يسحب الكرسى المقابل جالسا عليه بطريقة جعلت المسند أمامه، يلقي يده على حافة مسند الكرسي ليكمل قائلا: أخبارك إيه يادكتور

- بعد إذنك ممكن أعرف أنا هنا ليه، وإيه اللى أنا عملته

- هو لازم تكون هنا عشان عملت حاجة، مينفعش تكون هنا عشان عايزين نشوفك، نسلم عليك، نتعلم من فلسفتك. بس أنا عاتب عليك أزاى ياراجل تقول على النظام كداب وإن الإسلام زيف، إنت ناسي إنك في دولة مسلمة

يتغاضي محسن عن تهكمه الواضح في كلامه ليرد عليه قائلا: مقولتش أن النظام كداب ومقولتش إن الإسلام زيف، أنا كنت بدى أمثلة للطلبة.

- تخيل كده معايا بكره في الجرايد يطلع مانشيت بالحجم الكبير يقول دكتور جامعى يلقى محاضرة للطلبة يزدري فيها الأسلام ويتهمه بالزيف، وياريت على أد كده وبس ده أنت عارف الصحافة والجرايد الكلمة بتعمل منها مجلة. هتلاقى اللى يقول أنك بتبشر بالمسيحية في الجامعة، هتلاقى اللى يقول أنك بتسب الرسول ومش بعيد تطلع ماسونى، أه والله ماسونى

يقف محسن قائلا بغضب: بلاش تهديد، وياريت تدخل في صلب الموضوع مباشرة، حضرتك عايز منى أيه..؟

يبتسم المحقق قائلا بهدوء شديد: تسكت. ده الموضوع وأدينى دخلت فيه مباشرة

- يعنى أيه أسكت؟

يعني تسكت، يعنى تبطل تتكلم في الجامعة، في الكنيسة. أسكت

- لا

كان أجابة محسن رغم قصرها الشديد مانعة لأى محاولات أخري للكلام أو المساومة. فوجهه كان مثل أداة نفية حازما قاطعا ينبئ أنه لن يصمت أبدا.

يغادر المحقق كرسيه فيدور حول المنضدة ليقف خلف كرسي محسن منحنيا ألى أذنه قائلا بهمس:إلا إيه أخبار مدام لى لى؟

يحاول محسن أن يلتفت أليه ألا أن المحقق يجبره على عدم الألتفات

قائلا بصوت تعمده خفيضا: هسسس.. بلاش تبص وراك، الكاميرات بتصور وبتسجل، كده ممكن كتير يعرفو أنها على علاقة بصاحب عمرك رفعت وبتجيبه على سريرك. واضح أنك مقصر أوي مع مدام لى لى، بس متقلقش صاحبك قايم بالواجب..

يظهر الغضب على وجه محسن فتتصلب أصابع يده متحفزة قائلا: أنت بتقول أيه يا حيوان.

يحاول النهوض مرة أخري إلا أن المحقق يضغط بيديه على منكبه عند التقاء الكتف بالرقبة تحديدا قائلا: بلاش قلة أدب أنا لغاية دلوقتى ماسك نفسي عنك ومقدر ظرفك وبقول مسكين مراته مقرطساه

يظهر الألم مقرونا بالذهول الذي لم يفارق وجهه قائلا بكلمات لا تكاد تبين: علية دى أشرف منكم كلكم يا حيوانات ياللى متعرفوش الشرف

يضغط المحقق أكثر على كتفه قائلا: مش أنا قولتلك بلاش قلة أدب، واضح إنك زي المدام تموت في السفالة وقلة الأدب

يحاول التملص من يد المحقق فتبوء كل محاولاته بالفشل، يحمر وجهه، تلهث أنفاسه، يحاول الصراخ فتعصاه الصرخة..

يشعر أن المحقق لا يكذب، ينبئه قلبه أن ما قاله هو الحقيقة، علية دائمة البكاء، رفعت يتحاشانى في الآونة الأخيرة يهرب عند كل لقاء متحججا بشئ ما. أمعقول هذا!، تخوننى علية! يهوذا يبعث من جديد في ثوب أمرأة فيأكل الأخ لحم أخيه؟ لما فعلت هذا وكيف، لم أطلب منها الأخلاص ولا الحب، كيف لى أن أستجدى منها الحب؟، الحب المستجدى إن أجيب فهو ليس إلا نوع من أنواع الخيانة. هي قالت أنها تحبنى، أقسمت أمام الأب والروح والأبن أنى لها الأب والروح والأبن، ورغم هذا خيرتها بالفراق لعجزي الذي لا يد ليه فيه. خيرتها رغم كونها الحياة والروح، خيرتها نازعا قلبي من بين ضلوعى ليكن بين يديها فتهبه الحياة أو تخمده فيسكت رغم دقاته، لمَ وهبته الحياة ثم أتت وطعنته بكل خسة وقذارة. كانت لي الأم التي حُرِمْتُ منها ولم أرها، سِرتُ في الحياة كطفل يمسك بتلابيب أمه خشية أن يتوه فيها، توقّعْتُ القسوة من الجميع إلّاها، كيف تخون الأم وليدها؟!، كيف تذبحه بسكين ثلم ودم بارد لتقيم علي لحم جسده الموائد لكل مار. كانت لي الوطن والسكن والملاذ، مدينة عشقي التي حاربتُ من أجلها لأُنصّبُها عليها حاكما فكانت الخيانة والغدر واستباحة مدينتي. رائحة

العفن في كل مكان، ما كنت أراه ليس بقبس، ليس بطاقة نور، بل نيران مشتعلة أسير نحو جذوها ظانا أني سأستأنس بضيها فأكلت سفنى محرقة قلاعي التي كنت أشيدها عمري كله لتكن لي النجاة يوم الخلاص. ماذا فعلْت لها حتَّى تسقيني من كأس الخيانة وترميني في بئرها، أكل ما كان كان وهما!، همسها بحبها في أذني ما كان إلا فحيحا!، أتلك اليد التي ربتت وحضنت ما كانت تقرّبني إلا لتطعنني بخنجر غدرها بين الضلوع، أهنت عليها إلي تلك الدرجة لتذبحني بسكين خيانتها ناهشة لحمي هي وصديقي...!!

وأنت يا صديقي، يا رفيق الدرب ورحلة العمر، أهانت عليك سنينا!، ألم تشفع لي ذكري واحدة معك؟!، أعطيك ظهري فتطعنني دون تؤدة أو رحمة، ماذا فعلْتُ لك حتَّى تفعل هذا بي؟، كيف كنت تبرر لنفسك خطيئتك، خيانتك، دوسك علي كرامتي، خوضك في عرضي، نهشك للحمي!؟ . كيف واتتك الإرادة فخلعت ثوب الأخوة والصداقة لترتدي ثوب الشيطان فتنخز قلبي بشوكته وترميني في ناره. الخيانة فعل دنئ، علقم في الحلق، خنجر في القلب، داء لم يكتشفوا له دواء، كيف تحملتها؟، كيف استطعت خيانتي، أهنت عليك . كيف إستطعت أن تكمل، أن تنظر في عيني، أن تحتضنني بعد أيام الغياب . يهوذا باع روحه بثمن بخس، ولم يقو علي حمل خيانته، قتل نفسه بخيانته قبل قتلته، كتب علي نفسه الضياع في ظلمة الخيانة وقسوتها فظل في زمرة الخائنين

عيشة وميتة . ولأكم من أناس يعيشون وهم أموات، يهوذا باع نفسه ببضعة دنانير فكان من الظالمين، إلا إن الظالمين في خسار مبين...

يناديه المحقق لما شعر بهمدان جسده وسقوط رأسه على المنضدة فجأة، يهزه، يرجعه بظهره الى مسند المقعد فتميل راسه بشدة على كتفه...

ينادى على أحدهم فيأتى وبعد فحص سريع لمحسن يجيبه

ده مات يا افندم

****

(١٦)

أدخلوها عليه.. ممدد علي طاولة يغطيه غطاء كاكي باهت ككل شئ، لم تتحرك إلا قسرا لإعطاء من أدخلها الفرصة ليغلق باب الغرفة فينزع منها الحياة. ظلت علي حالها، قدماها مغروزة في الأرض، تقاوم لتحريكها خطوة للأمام فتنهاها عيناها التي تري الجسد المسجي علي الطاولة..

تتملكها الرعشة، تسيطر عليها فتظهر علي أوصالها المرتجفة، تشعر بقبضة داخلها تطارد روحها المختبئة خوفا بين ثناياها، أو أن الروح هي التي تهرول، تعبث، تصطدم، تبحث عن مخرج لتفارق الجسد عنوة...

لم تعرف أن عقاب الخيانة أبدي، خانته فعاقبها بموته، خدعته فكانت برومثيوس أخر محكوم عليها بالنهش والألم الخالد. مشاهد الذاكرة تنقطع، تختفي وتزول، وكأن أحدهم يمسحها عمدا لإستقبال ذلك المشهد في ذاكرة البصر ،تنزل علي ركبتيها ويديها دون أن ترفع عينيها عنه، تتقدم زاحفة حتَّى تلمس أصابعها حرف الطاولة فتستعين بها في الوقوف فلا تقدر فتظل علي ركبتيها..

تحتضن رأسه بيديها، تلمس جبهتها جبهته، تطبع قبلة عليها. تتمالك فتقف وكأن قبلة جبهته أعطتها القدرة علي الوقوف. ترفع رأسه قليلًا وبرفق تجذب الغطاء من تحتها لتسحبه ببطء فيظهر وجه محسن. تشهق ملتاعة غير مصدقة، تغمض عيناها التي لا تتحمل رؤية المزيد، تنهمر الدموع كنهر. بيديها تمسح

دمعاتها التي سقطت علي وجهه، ترتب خصلات شعره وتصففها، تعدل ياقة قميصه رابطة زراره الذي انفك عن صدره قائلة دون وعي" قولتلك ميت مرة إقفل الزرار، البرد يا محسن وإنت مش متحمل"

تنتظر إبتسامته المعتادة، يديه التي تساعدها في غلق الزرار عند كل مرة...

يزداد بكاؤها الصامت. ماذا فعلو بك يا حبيبي، من أين جاؤوا بقسوتهم التي إستطاعوا أن يسلبوا بها روحك. لم يعرفوك مثلي، لو كانو عرفوك ما كانو قد إستطاعوا. كيف لهم أن يقتلوا ملاكا مثلك، فيم كانت تعيقهم حياتك ليحرموني منها. زاهدا كنت في كل شئ، تعطي دون مقابل، تحب دون كلل، تبتسم حتَّى في حضرة الألم. كيف لهم أن يُؤلموك ويوجعوا قلبك العليل، كيف كانت موتتك ولحظاتك الأخيرة، أغادرت روحك بسلام كما عاشت، تألمت، أم كانت سريعةُ موتتك بلا معاناة...

الأن أعرف شعور الثكالي، علقم في الفم، جمر في الصدر، تيه في الروح والعقل، نار تتقد ولا يكفي ماء الأرض لخمدها، تستعر فتأكل كل أمل ورغبة. كنت لي الملاذ والملجأ، كنت الحياة بكل ما فيها. لا نبصر قيمة العطايا إلا بعد زوالها. كيف سيأتي عليّ صباح فلا أراك جواري، كيف سأفتح عيني فلا اري عينيك والحب الذي فيها، كيف سأستيقظ فلا أجد يدك تداعب شعري وكأني إبنتك. من لي بعدك وكيف لي أن أُكْمل دونك...

يفتح أحدهم الباب مفضوح وجهه الذي حاول رسم التأثر عليه

- البقية في حياتك يا مدام.

تنظر إليه دون إجابة فيقترب منها واضعا في يدها بضع ورقات قائلا:

ده الورق اللازم للدفن، طبعا إنتي عارفة إن الشوشرة مش في صالحه، وعارفة برده إنه كان مريض بالقلب. إحنا كان ممكن نحطه في أي مستشفي أو حتَّى نتكفل بدفنه. بس لقينا إن الأنسب إنه يخرج من الكنيسة وتودّعوه الوداع الأخير.

تأتي كلماتها من بئر سحيق قائلة: إيه حصل؟

- زي مقولتلك محصلش حاجة، كنا بنسأله كام سؤال وفجأة تعب وحصل اللي حصل

- أنا مش هسكت، أنا هوديكم كلكم في داهية

يتأفف الرجل عن الكلام زافرا هواء صدره بضيق قائلا بلهجة ذات مغزي: براحتك متسكتيش، الجرايد كلها قدامك، روحي واتكلمي ولو معرفتيش توصلي إحنا نوصلك لكن هو في بس سؤال، هتقولي إيه، هتقولي إنه متحمّلش إنه يعرف إن مراته بتخونه مع أعز صحابه فطب ساكت

يظهر الذهول علي وجهها فتتوه الكلمات: إنت بتقول إيه بيـ..

يقاطعها بصوت عال: بقول اللي حصل، بقول إنه متحملش لما عرف وساختك

تموج الأرض من تحت قدميها وتهتز فتسند مستيعنة بحرف الطاولة ليكمل رجل الامن كلامه قائلا: يستحسن نسكت ونلم الموضوع، واحد عنده القلب وتعب . عادي يعني بتحصل في أي وقت ومع أي حد

ينتظر منها إجابة فلا يجد إلا عين محدقة تنم عن إنهيار فيكمل: إنتي جيتي لوحدك، هبعت معاكي حد يوصلك لحد باب شقتك وبعدها تقدري

تعلني الخبر، تتصلي بأهلك وأهله تبلغيهم بالوفاة وزي ما قولتلك، معاكي كل الورق اللازم للدفن، وياريت الموضوع يتم بسرعة..

يعطيها ظهره متوجها للباب إلا أنه يقف قائلا دون التفات: مش هأكد عليكي تاني، بلاش أي تصرف متقدريش تتحملي عواقبه، وإن مكنش عشانك يبقي علي الأقل عشان سمعة اللي مات..

يغادر الغرفة تاركا علية بمفردها، تقاوم لتستمر واقفة غير أن قدميها تئن بما تحمل فتجثو مرة أخري علي ركبتيها...

ليسو هم بقاتليك، أنا من قتلتك . أنا من رميتك في وحل الخيانة وأسقيتك مرها. قابلت حبك بكل صلف وغدر. كنت لي الحياة وكنت لك الموت الغادر. كنت شربة الماء بعد عطش، مغيثا ودليلا في تيهة صحرائي وكنت لك الغدر والخنجر الذي يطعنك في الظهر.. ظلموني مرة، إتهموني بالخيانة وأنا العذراء البتول . ظلموني فظلمتك، خانوني فخنتك، طعنوني فغدرت بك، أيها الراعي العظيم المبجّل في السماوات إرحمني فأنا لا أقدر علي مثل هذا العذاب، إعطني

القدرة علي التحمل والصبر، كيف الحياة من بعده، لماذا أنا، ضاقت بي الدنيا وخلت من محبيها، اللعنة تطاردني أينما أسير، تصيب كل من يقترب ويدنو. يموت أبي بذنب لم أقترفه فيموت زوجي بذنب إقترفته. الرحمة والغفران يا يسوع يا مجيد، إجعله مسيحا أخر وابعث فيه من روحك، حتَّى أسمع منه أنه قد سامحني، لن أستطيع أن أُكمل، ثوب يهوذا نارا تسري في الجسد لا أقوي علي لبسهِ.. إن كنت ظلمْتُ فما ظلمت غير نفسي فلما تأخذه بذنبي، لماذا تعاقبه علي طيبته، علي غفرانه وسماحته، هو لا يستحق منك هذا. وإن كنت ظالمة فهذا ليس بوعدك، قد قبلْت توبة الزانية وقرّبتها منك، رضيت وعفوت، فلماذا لمْ تسامحني.. سامحني يا محسن، سامحني يا زوجي ويا أبي، يامن ظللت عليّ بظل حبك، وربّتّ عليّ بدفء مشاعرك، سامحني وكفاك أن الرب قد أغاثك مِمّن هم مثلنا، نحن لا نستحقك فالملائكة أبدا لا تستقيم حياتهم علي الأرض...

يدخل إثنان الغرفة ساحبين طاولة متحركة ليبدؤوا في نقل محسن عليها فتصرخ في وجههم رامية نفسها علي محسن قائلة: محدش يقرّبله، محدش فيكم يلمسه، إيديكم متعاصة دم، إنتو اللي قتلتوه

يدخل ثالث، يكبلها بيديه ليعطيهم الفرصة لنقل محسن علي الطاولة الأخري.

في الطريق يقود أحدهم السيارة وبجواره أخر، تحتضن محسن في المقعد الخلفي، تربت علي وجهه بين الحينة والأخري، تقبل جبهته، تهمس في أذنه بكلمات مبهمة، تبتسم أحيانا، تبكي أحيانا أخري. مشتتة تائهة لا تعي شيئا وكأن مس أصابها، تنظر من نافذة السيارة فتجد الطريق قد خلي حتَّى من بناياته، طريق بلا معالم ولا إتجاهات، أضواء منعدمة، ظلام حالك لا بصيص فيه، حتَّى الأصوات خلت من حولها، ساد الصمت ما عادت أذنها تستقبل شيئا ولا تسمع إلا ترانيم كنائسية تنبئ بالرحيل...

أنزلوه، حملوه حتَّى فراشه، ثم إنسحبوا وكأن شيئا لم يكن..

أيها الراعي الصالح ضلت خرافك، تاهت فريسة لضواري المنافى.

ضلت ولا رغبة لها في عودة. لم يكن كثير عليك أن تتركه لي. ذلك الذي وجدني في أرض فقر وفي خلاء مستوحش خرب. ذلك الذي حوطني بقلبه فجعله ينبض لي وأدق له، أسكنني فسيح عينه فكنت مقلته ينظر بي وأري له. ألست أنت من قال أنك ملجأ المنسحق وملاذه في أزمنة الضيق. أنا عبدتك المنسحقة علي عتبات ملكوتك، أنا من ضاع منها مأوى الروح وملاذ القلب، أنا من ضلت الطريق، أنظر حولي حتَّى أري سراجه يهديني الطريق فأجدك تحجبه عني أخذا مني ما تبقي في من روح. أين شوكتك يا موت، أين غلبتك يا هاوية، تعبت وضاع مني أخر ما تبقي لي، ضاع ما ظننته تبقى ليبقى الموت بجناحيه

يرفرف فيمتلئ صدري بهفيفه، سأسير في وادي ظله ولن أخاف شرا فمن رحل ينتظرني الأن، سيحميني كما إعتدت وسيهبني الحياة كما إعتاد...

ظلت واقفة كثيرًا تنظر إليه تتأمله، لا تدري كم مر من وقت علي وقفتها تلك، فالزمن كان قد توقف بها منذ أن رأت جسده مسجيا في جحيمهم، فتحت خزانة ملابسها إختارت قميصا أبيض اللون لترتديه. توجهت للمطبخ ساحبة منه سكينا لترجع مرة أخري فتستلقي جواره قاطعة شريان يدها، واضعة رأسه علي صدرها منتظرة الموت بكل هدوء مرددة قبل أن تفقد عيناها بريق الحياة.. أخذ الذي لي وسيعطيني الذي له...

****

(١٧)

فى أناء الليل لا يأتيك غير الذكريات والوجع، لا تسمع ألا أنات الأشياء ولا تبصر سوى سوادها. في الليل لا يأتيك غير الذي يخبرك أنك أكثر أهل الأرض أيلاما، لهذا أكره الليل، أكره سدول أستاره، ترتجف روحي حينما أرى تسلله وانزواء أطراف النهار. يأتى الليل بكل ألمه الذي لا سبيل له ولا ملاذ منه إلا النوم الذي أخشاه وأفر منه ومن كوابيسه التي لا تنقطع. أظل على حالى أطرد النوم خوفا فيتوحش ألمى جوعا، لا يلهينى إلا تأملك وأنت نائم، أستمد من قسماتك ذكرياتى معك، أتعجب من هدوء نومك، من قدرتك على النوم، تنام على ظهرك لا تتقلب أبدا، بيد موضوعة على صدرك كمومياء مستقرة في تابوتها. أنظر إليك وأطيل النظر، أستقرئ وجهك علّي أستشف منه شيئا يجعلنى أحيد عن قرار أبتعادى عنك. لكنى لا أجد، كل شيء حولى يدفعنى للفراق حتَّى قسمات وجههك وهدوء نومك المستفز...

لمْ أسع أبدا للفراق قبل ذلك رغم يقينى أنه كان آت لا محالة، لطالما أجلت ذلك اليوم، هربت منه لمعرفتى أنى لن أسلم من ألمه، ليس لأنى أحبك ولا لأنى أستطيع العيش دونك، بل لأنى أخشاه، نعم أخشاه. أرى فيه جحيما أخر لا يقل عن جحيم وجودى معك، أعرف أن بعد الفراق سيصبح كل شيء حولى باعثا وحافزا للبكاء. بعد الفراق تشعر أن الحياة إتفقت وكل ما فيها تأذر ليبكيك. لكنى ورغم هذا سأطلب الأنفصال، سأصمم عليه، سأدّعى أني قادرة على تحمل

تبعاته. أما أنت فلا أظن أن النسيان صعب علي ذاكرتك، وحتى وأن كان هناك شيء مني عالق في ذكراك فلا خوف عليك ولا حزن فالنسيان ليس صعب عليك فمن مثلك يستطيع. ستستدعى أمرأة أخري من خزانة خياناتك وقائمة غزواتك النسائية اللواتى عاشرتهن في وجودى وهن كثر، واحدة أخرى ستتسلي بها، ستجرح فيها وتؤذي، ستجعل من مشاعرها ركاما ومن قلبها بقايا مدينة لا يسكنها غير الأشباح، سينسيك ألمها أنى كنت في حياتك، أنت تستطيع، تستطيع أن تصبح كاتبا يرونه عظيما فيشار لك بالبنان فتمتلئ الصفحات الأدبية بذكرك، وقتها أظن أنك حتَّى لن تتذكر أنى كنت هنا. أنت تستطيع وياليتك تفشل فألمك فقط هو ما سأحيا من أجله، سأصلّي وأبتهل أن تتألم...

ستسأل لمَ الآن . لماذا بعد أن أعتدت خيانتك والفتها، ستسأل وبراءة الأطفال في عينيك وكأن يدك غير ملطخة بدم صاحبك وزوجته، ستنكر وستنفى أي صلة لك بموتها، ستكذب رغم يقينك بأنك قاتلها. لكن وللحق لست وحدك من قتل، فأنا مثلك جررتنى لوحل قسوتك، جعلتنى أنتقم منك ولنفسى رافضة توبتها. كنت أستطيع أن أغفر، كانت توبتها نصوحة لكنى غلّقت في وجهها كل باب للرجوع. مسكينة لى لى لم تستطع أن تكمل، كيف أستطعت أنت أن تستمر بعد أن عرفت بانتحارها، كيف طاوعك قلبك على النبض، قتلناها سويا. لو كنت سامحتها ما كانت لتنتحر، كيف سولت لى نفسي أن أنتقم منها، أن

أرفض حتَّى سماعها. كيف تنام على هذا النحو وكأنك لم تفعل شيئا وكأنك برئ من دمها براءة الذئب من أبن يعقوب...

أراك تتململ في نومتك، الآن ستصحو لتبدأ يوما أخر تبحث فيه عن أخر لتقتله بقسوتك ودنائتك. خلقت لتجرح، تتنفس لتخون، تقتات روحك على دهس قلوب الأخرين...

يتقلب في فراشه ليصبح وجهه قبالها فيراها تنظر أليه محدقة فيه، يعاود النوم على ظهره ساحبا نصف جسده ألى أعلى ساندا رأسه ناظرا أليها فيجدها على حالها متكورة على نفسها مثل يرقة تلامس ركبتاها ذقنها مستمرة في التحديق فيه، فيأخذ من جواره سيجارة يشعلها قائلا لها دون النظر أليها: بتبصيلى كده ليه؟

- طلقنى

ينظر أليها شاخصا غير مصدق ما سمعته أذنه: نعم

- طلقنى.. بقولك طلقنى يا رفعت

- أطلقك إزاى يعنى؟، ليه أطلقك؟

- طلقنى يا رفعت

بانفعال شديد: هو أنتى اللى عليكى طلقنى، طلقنى. صحيتى من النوم لقيتى نفسك عايزة تتطلقى، في أيه..؟

ينتظر أن تجيبه فلا يجد منها ألا السكوت فيكمل قائلا: في أيه؟، أيه حصل يخليكى فجأة تطلبى الطلاق؟

تصرخ قائلة: في أنى تعبت، زهقت، مبقتش قادرة أتحمل أكتر من كده، قرفت منك ومن خياناتك اللى مبتنتهيش، انت مش هتتغير يا رفعت،

إنت أنانى مبتحبش ألا نفسك، خنتنى وبتخونى، وكل مرة بقول مسيره يتغير، كل مرة بضحك على نفسي وانت في كل مرة بتزيد. مكتفتش بكل الستات اللى خنتنى معاهم وروحت خنتنى مع أعز صاحبة ليا اللى هيا مرات أعز صحابك

دون أن يعدل جلسته يقاطعها: أنا مخنتكيش، أنا عمري ما خنتك

تصرخ أكثر: كفاية كدب، أنت مبتتعبش، مبتزهقش

يغادر فراشه مقتربا منها فيصبح أمامها، يضع وجهها بين راحتى يديه قائلا لها بخفوت ووجه هادئ غير مناسب للموقف: أهدى بس، أنا مش فاهم حاجة، أنت بتتكلمى عن أيه؟

تدفع يديه قائلا: كفاية تمثيل بقى وافهم انك عمرك ما ضحكت عليا، أنا يا رفعت اللى كنت بسكت، أنا اللى كنت بضحك على نفسي وبصدّق أنك بتحبنى مع أنى عارفة ومتأكدة أنك مبتحبش حد ألا نفسك ودى كمان ممكن تكون بتكرهها، طلقنى يا رفعت وكفاية تمثيل أنت لا حبتنى في يوم ولا هتحبنى، أنت يا رفعت اللى زيك مبيعرفش يحب

ظلت تحدثه، تزعق في وجهه، تصرخ أحيانا وتنهار أحايين كثيرة، تسومه خسف الكلام، يعترف داخله ويقر بأنه لم يحبها يوما فهو ممن ينكرون الحب، يرى

فيه أنه مذلة وهوانا. أن سألته عنه سيجيبها بأنه كائن خرافى لا وجود له في حياتنا، كلمة أخترعناها لنمتطيها حتَّى نصل بها لمرادنا، مشجب علقنا عليه أحتياجنا للأخر وأنكسارنا أمامه، وإن عاودت سؤاله عن كل كلمات الحب التي أسقاها أياها، سيجيبها أنه أعطاها ما كانت تنتظره لا ما كان يريده، فالحب عنده وإن كان فهو نسبي يتغير بتغير الأشياء، يأتى ليختفى، يضمحل ليقوى، متقلب كفصول العام التي لابدَّ أن تتقلب، مرتبط وجوده بما يحدث، تابع ذليل كصاحبه، وهو خلق على غير هذا، خلق ليثور على الشئ حتَّى يلين له ويستكين فيتركه هاربا باحثا عن غيره...

يفيق على صرختها قائلة: بقولك طلقنى

يغيب الهدوء الذي رسمه على وجهه قائلا بحدة: ولما أنا وحش أوى كده، وخاين أوى كده كملتى معايا ليه؟

بدموع منهمرة لا يحجبها حاجب: عشان ضعيفة، عشان حوّلتنى لست معدومة الكرامة.. أنت شيطان يا رفعت مسيبتش حد من اللى حواليك ألا ودمرته. محسن صاحبك الوحيد اللى أتحملك، قتلته بخيانتك، صاحبتى يا رفعت خلّتها تنتحر، انا اللى مكنش في يوم بيعدى ألا لما تدبحنى فيه. كفاية بقى يا رفعت، كفاية، طلقنى، مش هقدر أكمّل وانا شايفة دم لى لى على أيدك

- بس أنا مختتكيش مع لى لى

تصرخ: يا رفعت كفاية كدب، أنا قريت رسالتك على تليفونها، يا رفعت افهم لى لى أنتحرت عشان أنا عرفت، ومش بعيد يكون محسن مات عشان عرف ومتحملش، كفاية بقى يا رفعت

بصراخ يحمل كل غضب الدنيا: أنا مش رفعت، أنا مش جوزك، أنا عرفة

تنظر أليه غير مستوعبة، تحاول أن تقنع نفسها أن ما قاله ليس أكثر من كلمات يضحك بها عليها ألا أنها تري في ملامح وجهه ما يجعلها تنفى زعمها

يكمل: أيوه أنا مش رفعت، أنا عرفة ومتسألنيش أزاى، أنا في كابوس ومش عارف أصحا منه.. أنا عرفة مش رفعت

بارتباك: أه تمثيلية جديدة، ومطلوب من المغفلة أنها تصدقك، أنها تصدق أنك أتجننت وانها لازم تقف جنبك

بهدوء غير مبرر: تصدقى متصدقيش أنتي حرة، لكن باختصار أنا مش هطلقك لأنى ببساطة مش جوزك

تنظر أليه غير مصدقة، وكأنه فعلا صار شخصا أخر غير التي تعرفه، تحاول أن تقنع نفسها أن ما قاله إدعاء منه وتضليل لها حتَّى ترجع عن ما طلبته وصممت عليه فتفشل فهى الأدري بزوجها وهو مختلف، ليس رفعت الذي تعرفه، ليس رفعت الذي عاشت معه سنينا حتَّى حفظت كل تفاصيله، هو الآن مختلف...

يغادر الغرفة أخذا ملابس خروجه وبعد دقائق تسمع صفع باب الشقة..

تنكفئ أكثر على نفسها تخبئ رأسها بين قدميها تصنع من يديها المتشابكتين سدا يجعلك لا ترى منها سوى شعرها المنسدل المتآزر هو الأخر ليخبئ منها ما أمكنه. لم يكن ينقصها ما قاله، فادعاؤه الجنون لم يكن أبدا في حسبانها، هناك شيء داخلها ينبئها أنه لا يدعى، هناك من يهمس في عقلها ليخبرها أن زوجها أصابه مس من جنون. هي تعلم أنها ليست من أولئك الذين يولدون من رحم الوجع، والفراق لها لن يكون لبنة لحياة جديدة، بل معول هدم، لكنها تعلم أيضًا أن قتلة بيديها أرحم كثيرًا من عذابه لها...

تخرج عن سكون جسدها، ترفع رأسها خارجة عن صمتها قائلة وكأن أحدهم أمامها.. فليكن ما يكون، مجنون كنت أم مدعيا فالحياة معك مستحيلة...

تبحث عن هاتفها في أنحاء الغرفة حتَّى تجده، تهاتف سامح لتخبره أنها في الطريق إليه لأنها تريده في أمر هام...

فى الطريق إلى سامح حاولت كثيرًا التراجع عن قرارها، بحثت عن مبررات تثنيها عن رغبتها، سألت نفسها ماذا لو كان فعلا قد جن، ماذا لو أنه الآن يحتاجها، حدثت نفسها لتثنيها، ألا أن كل ما حدثته لنفسها ما زادها إلا أصرارا وتوكيدا على ما تنتويه وما ترغبه. لم تشعر بنفسها إلا وهي واقفة أمام شقته فاسحا لها جانبا داعيا أياها الدخول، مترددا وجسا لما رأي عليها أثار بكاء وحزن...

تجلس على أول مقعد قابلها، ينظر أليها متأملا منتظرا منها البداية فيطول أنتظاره ليبدأ بالكلام قائلا: إنتى كنتى بتعيطى؟

دون اجابة منها يكمل: مالك يا أمنية في ايه أنتى شكلك مش مطمنى، في أيه أتكلمى؟

- أنا عايزة أتطلق

- مندهشا: تتطلقى!! ليه؟؟ ايه حصل؟

- اللى حصل إنى تعبت، كرهت نفسي وكرهته، أتطلق عشان كفاية، مبقتش قادرة إنى أكمل

أخذت تحدثه عن رفعت وما يفعله، تستنكر أندهاشه لأنه أكثرهم معرفة بأخيه، أخيه الذي لم يعرف الحب طريقا ألى قلبه

يقاطعها قائلا: لحظة بس، أنتى عايزة تتطلقى عشان رفعت مبيحبكيش؟

- أه، ومش كده وبس وعشان خاين

- طب ما أنتى زيه..

تنظر أليه مذهولة غير مصدقة ما قاله قائلة بلهجة يغلفها شيء من غضب: زيه أزاى! أنت قصدك أيه؟

- أه زيه، عمرك في يوم ما حبتيه ولا عمرك في يوم عرفتى يعنى أيه حب .

أرتبكت لمهاجمته واتهامه لها على غير ما كانت تتوقع، لم تكن تظن أبدا أنه سيحملها مسئولية ما هي فيه. أخذت تدافع عن نفسها نافية أتهامه، تذكره

وتحصي خيانات أخيه، وهو صامت لا يتحدث يسمع غير مهتم، يوبخها في سره أنها أتته وقت حاجتها، يعاتبها على أصرارها الدائم أن تظل في حياته، ألا تنسيه أنه ما أحب أحد غيرها، لمَ دائمًا يا أمنية تشعلين النار، تغذيها باقترابك، تجبرينى على رؤيتك على حقيقتك، لا تقتربى فثمة أشياء ينبغى أن تبقى بعيدة حتَّى يستمر شغفنا لها وقدرتنا على تحمّل بعدها. إن أُقتربْت أكثر ستنهار كل دفاعاتى وقلاعى التي أحتميت بها من حبي لك، دعينى أراك الآن كما أعتدت أن أراك، لا تجبرينى على رؤية حقيقتك، ولا تذكرينى بأنى أحبك، لا تقتربى ودعينى في ظلى فشمسك حارقة، لا تقتربى ودعينى في ظنى إني نسيت حبك وشفيت من عشقى لك...

- إنت مبتردش عليا ليه.. هكذا قاطعت ما كان يود أن يقوله لها

- هرد أقول أيه؟

- رد وقول أنك هتساعدنى، أنك هتكلمه وهتضغط عليه عشان يطلقنى

- وهو رفعت بينضغط عليه؟!

- يعنى أيه؟ يعنى أنت مش هتساعدنى؟

- وأساعدك أزاى وأنا مقتنع أنك غلط، وبأي منطق تطلبى منى أنى أروح لأخويا وأقوله طلق مراتك

يعلو صوتها: بمنطق أنك عارف أخوك، وعارف إنى أتحملت اللى مفيش بنى أدمة ممكن تتحمله

- بصى يا أمنية أن كنتى قدرتى تضحكى على روحك فمش هتعرفى تضحكى عليا، بلاش موضوع أنك أتحملتى ده، أنتى لا كنتى مجبرة أنك تتحملى ولا حد غصب عليكى تكملى

بصراخ: كنت بحبه.

بغضب شديد وصوت عال: أنتى عمرك ما حبيتى، أنتى زيك زيه، متعرفيش غير حبك لنفسك . أتجوزتى الكاتب المشهور، اللى الكل بيشاور عليه، إتنازلتى عن كل حاجة، بعتى كل حاجة، المهم تكونى مرات المؤلف العظيم اللى كل الأبواب مفتوحة ليه

- وانت مدافعتش عني ليه، موقفتش ليهم ليه وقولت أنا بحبها، مفوقتنيش ليه . النهاردة بتعاتبنى، بتحملنى كل حاجة، كنت قول لأ

- أقول لأ!! أقول لأ لمين، وعشان مين؟، اقول لأ عشانك؟!، كويس والله، بقيت أنا دلوقتى الغلطان، كان المفروض اقول لأخويا متتجوزش اللى أنت أتقدمت ليها واللى هيا وافقت تكون مراتك أصلى بحبها. أنتى مدركة بتقولى أيه؟!، مدركة عملتى فيا إيه؟! مدركة كنت كل ما اشوفك معاه ماسكة في دراعه كان بيحصلى إيه؟!

تزداد في نحيبها قائلة: وأهو ربنا أنتقملك

تخبئ وجهها براحتيها فيزداد نحيبها، يقترب منها جالسا جوارها، يمد يديه ليربت على كتفها فيجبره عقله على التراجع، يناديه قلبه أن يضمها أليه فينهاه

ضميره ويلجمه. كان يمنى نفسه أنه سيأتى يوم ويلقاها، يلقاها كما تمناها، يلقاها كما رآها أول مرة حين وقع في هواها، ساعتها سيشكيها كل الليالى التي قضاها وحده غارقا فى أنينه، ونوبات حزنه، عن وقفته بالشرفة في قلب البرد والصقيع ناظرا للقمر علّه يراها فيه، كنت يمنّي نفسه بأنه سيقص عليها معاناته، يضع رأسه على صدرها ليبكى ويبكى ويرتعش ويرتعش ليعوض كل الليالى التي بكي فيها وحيدا. كان يمنّي نفسه بأنه سيأتى يوم فيقص لها فيه عن كل شئ، عن دموع التفاصيل والذكريات، عن كل لحظات البكاء التي ظهرت على وجهه على شكل أبتسامة وهو يراها جواره. كان يمنّي نفسه في يوم أنها ستأتى، لكنها لم تأت..

تفرج عن وجهها فتجد عينيه تنظر إليها فتجاوبه التمنى، تطلب منه الغفران والصفح تخبره أنها تحبه وأنها ما كانت أكثر من فتاة صغيرة، مجرد فتاة صغيرة . أتاها برونقه وإثارته، بلحيته الكثيفة ولون ملامحه الداكن. كان مثيرا بمعطفه، بياقة قميصه المشدودة، بشعره المصفف في عناية وكأنه خرج توا من تحت يد أمهر مصففين الأرض. حتَّى دخان سجائره كان يزيده هالة على هالته. ينظر دون أهتمام، لا يبالى أذا تحدث غيره، وأذا تكلم فرخامة صوته ومنطق حديثه يجعل الجميع يصمت مهابة. إهماله يجعلك تنجذب له، صمته يجبرك على التودد له لسبر أغواره وما يخفيه. لا يهتم بأحد فيثير حفيظة كل أحد، أضف إلى هذا أسمه الذي كان يتردد بين الفتيات وقتها وشغفهم به وهم يتبادلون رواياته، كل هذا وأكثر. وفى عشيرة النساء كاف هذا لأحتلال قلاعهم، فما بالك بفتاة صغيرة مثلى.

ورغم هذا رفضت، قلتها لا واضحة، فأجبرونى عليه، لم أكن ساعتها أملك أي منطق للرفض، فلقد رفضت كثيرًا حتَّى أتى من بلا عيب، تزوجته مقررة أن أنساك، أن أسعى إلى حبه، ظننت أنى أستطيع، حاولت ونجحت أحيانا لكن في كل مرة كان أخوك يأتى فيحيل كل شيء للفشل...

تعصاه يداه، تتردد أصابعه قبل أن تأخذ قرارها، يربّت على كتفها فينتفض جسدها وكأن مسا كهربيا أصابها، تغمض عينيها رغما عنها، الآن تدري لمَ أتته، الآن تدري أنها كانت تريد ذلك، بأصابعه يمسح دموعها من على خدها، يساوى خصلات شعرها المتناثرة الهادلة المنهمرة على وجنتيها كشلال ماء. ينظر في عينيها أكثر، فيرى فيهما خوف الأشتياق وكل كلمات الحب المحرمة على الشفاة، يرى فيهما كل عذاباته وكل أيام سنينه التي حاول فيها أن ينساها وفشل وكأنه سيزيف أخر وكأنها صخرة أكتافه . تنظر في عينيه فتري فيهما الشوق والرغبة وقليل من مقاومة، تتحرر يداه أكثر من قيود عقله، تسرح على شعرها، فتغمض عينيها هدوء وطمأنينة تريد أن توقفه، أن تبعده، وتريد أن تزيل كل الحواجز فترتمى في أحضانه لتبكى كما لم تبك من قبل، تريد أن تبتعد عنه فتختبئ منه بين ضلوعه لتشكيه كل قساوات الدنيا وألمها فينسيها كل ما فات، يمسح بيديه على رأسها فيزيل ما علق بذكرياتها من وجع، يسمع قلبها دقات قلبه فيستكين ويطمئن، ترتاح بين ضلوعه كمسافر ضنه الرحيل وعاد بعد غيبة . يقترب منها فتحثه دقات قلبها على الأقتراب، تناديه عيناها رغما عنها فيلبيها النداء منصاعا، ترتمى بين أحضانه، تتهدم أسوارها التي ظنتها منيعة عالية، تدعوه لاحتلالها خائنة مدينتها، تبكى بقوة على صدره وكأنها تتخلص من دموعها مرة واحدة . تئن

عيناه من حجبها للدموع فتبكى عاصية إياه، بطرف إصبعه يمسح دموعه، تبكى أكثر فيضمها أكثر، يزداد نحيبها فيزداد بكائه، للتداعى راحة لا يعرفها إلا من عاش عمره يحارب . يعينها على الوقوف بأصابعه يلمس ذقنها فيرفع رأسها المطأطأة خوفا من افتضاح ما بالأعين من لهفة، تلتقى الأعين، تختلج شفتاها منفرجة حينما ترى حنين شفتيه، يتحسس وجهها بأنامله كرسام يضع لمساته الأخيرة في أجمل ما رسم من صور . يغمض عينيه مستمرا في لمس وجهها كفاقد بصر يحفظ بأصابعه وجه من يحب، يلمس شفتيها فترتعش فتغمض عينيها هي الأخري، يلثم شفتيها عطشا محاولا الأرتواء، تبتل شفتاها بخمر ريقه فترشف من شفتيه حتَّى تتوه ولا تدرى ماذا ستفعل، تنهار حصونها واحدا تلو الآخر مع كل قضمة جوع يأخذها من شفتيها تهاوت عند أول أختبار، تداعت تحت وطأة الشوق والأحتياج. تتلامس الأجساد، يضع وجهها بين راحتيه فتنتفض فلا يهدئها إلا نزول يده على خصرها ليضمها أليه أكثر، ينهل منها كتائه في صحراء منفاه أدماه العطش والجوع، تستقى منه كل حب الدنيا ومتاعها فتداوى جراحها، تستشعر أنفاسه فتناديها سخونة جسده، تلتف الساق بالساق، تميد بها الدنيا، تتداعى، تتهاوى يغزوها الأحتياج والشوق، تستسلم، تنادى أن ترفع بيدها رايته، يستلقيان أرضا وكأنهما جسد واحد، تسلم أرضها البكر لزرعه، أحرث كما شئت وازرع كيفما تشاء فالأرض أرضك وقد عادت إليك...

****

(١٨)

من دفتر مذكرات دكتورة / مريم فاروق

لا أعلم كيف يكتبون الروايات، لكنى أعلم أن الأمر مختلف، فإن كان للحكايات التي كانوا يقصوها علينا صغارا قوانين وأسس أبسطها عامل الشد والجذب لما يُحكى. فالأوْلى أن يكون للرواية المكتوبة لوازم وشروط يُعْمل بها حتَّى يصير المكتوب عملا روائيا يستحق النشر. فما بين يدى من أوراق لا يشبه الروايات التي قرأتها قبل ذلك فهو يحكى عن أناس ليسو إلا في مخيلته ورغم ذلك يعاملهم على أنهم أحياء يرزقون، يسجن نفسه في روايته فيملأ فراغات خياله ثم يشتكى ألم السجن ووجع ما يحمله خياله من ذكريات. لا يمل من قطع سرده الذي يخل دائمًا بالوحدة العضوية لما يحكيه ولا يجد في ذلك عيبا، بحثْتُ قليلًا ووجدت أن أول شرط يجب مراعاته حين الكتابة هو بنيان الرواية ووحدتها، فأي رواية، يجب أن يتوافر لها موضوع يقسم إلى بداية ومتن ونهاية، تعريف للشخصيات في البداية ليكتمل بناؤها شيئا فشيئا بمرور الأحداث، عقدة تواجه شخوصها فيسعون لحلها ليأتيهم الحل في الوريقات الأخيرة عندما تتلاقي الخطوط عند كلمة النهاية، شخص خيّر يتمسك بالفضيلة حتَّى وإن كان فيها مهلكته وشخص تحالفت معه كل الشياطين رغبة في التعلم منه، وهذا لا ينطبق على ما كتبه رفعت. فرفعت يتأرجح بين خياله ووهمه من جهة وواقعه من جهة

أخرى. يكتب كعاهرة ضلّت عُهْر جسدها لمّا أكل الزمن عليه تاركا بقاياه لتمتهن عهرا أخر من نوع أخر شارعة في كتابة مذكراتها فاضحة كل من وطئها غير غافلة تبرير عهرها وأنها ما كانت غير مضطرة لفعل ما فَعَلتْ أو كناسك يسبح بعد صلاة. تلك التسابيح التي لا تبدأ إلا بعد سندة ظهر على حائط ليخلو صاحبها بين نفسه ونفسه. تتحرك الشفاه بهسيس أشبه بصوصوة عصفور جائع يهم بالتقاط لقيمات من فم أمه. تلك التسابيح التي كالجسر يختصر كل المسافات الشاسعة لعبور النفس إلى الصفاء والراحة من كل عناءات الحياة. تسابيح كالمفاتيح تفتح كل الأبواب الموصدة فتتحرر الروح وتنطلق.. إنه يكتب إما عهرا فتجد الكلمات عنده ماجنة داعرة، أو نُسُكا فتستشعر الحروف جوقة دراويش ترتل كلمات في محراب حياة. يكتب إما هذا وإما ذاك لكنه وفى جميع الأحوال يكتب وكأنه يتبرأ من ماضيه، يبرأ من ذاكرته، ينسلخ عن كل ما فات، تتفتت وتسقط من قلمه الكلمات، دامية مؤلمة، موجعة واجعة كروح تفارق جسدا يتشبث بالحياة معاندا الموت. يكتب فتصبح الكتابة له نزف روح، كلمات أخيرة يلفظها كما الشهادة متمنيا أن ينال بها جنة يعرف أنه لن يطولها...

أما شخصيات روايته فحدث ولا حرج. تبدأ وتنتهى ولا تستطيع الحكم عليها، شخوص فاقت الماء في سيلانه فلا تجد لها وعاء يحكمها، تجهل ماذا تريد ولا بأى جانب تسكن. تأتى الفعل وتنكره، تغوص لأبعد عمق في الوحل باحثة عن غرفة طهر بكف، جميعهم يملكون قدرا من ذكاء يجعلهم يبررون

لأنفسهم أي فعل لا ترضاه ضمائرهم، يشتركون وبطريقة ما في أنهم جميعا أذو وأضروا أحد المقربين لهم وسواء كأن الأذي عمدا أو سهوا فمبرراتهم كانت حاضرة وبقوة، مبررات جعلتهم أحيانا يستمرون في أذي الأخر ونقل الأذي لأخر بل وأذي أنفسهم أحيانا حتَّى يتساوى الجميع في الضرر كنوع من أنواع العدالة الوهمية وأسكات صوت ضمير بدأ يهمس. فأمنية ظلمت سامح بزواجها من رفعت مبررة ذلك بأن سامح لم يقاوم ليأت رفعت فيظلمها فيكن ذلك ذريعة لأن تذهب مرة أخري ألى سامح، وهكذا البقية يسيرون ويتحولون، شخصيات دعية غير سوية، تستغل ضعف الأخر لتكبر أنانيتها فتتملكها دنائتها يوما بعد يوم...

الغريب في روايته أن هناك بعض المواقف التي تشعر فيها أنها قد مرت عليك، تجزم أن تلك الكلمات قد قيلت وأنك قد سمعتها قبل أن تقرأها، تتوقع ماذا سيحدث فيحدث ورغم ذلك تفاجئك. شخوص ورغم عيوبهم ومرضهم النفسى وأفعالهم لا تملك ألا أن تتعاطف معهم، تشفق عليهم، ترثى لحكاياتهم وتئن. تتوحد معهم وتتأذر دون أن تشعر، ترى نفسك أحد منهم، تشهق حينما يتعرض أحدهم لخطر، تزفر لو أصاب أحدهم وجع. رواية تستدرجك كلماتها رويدا رويدا، ورويدا رويدا تصبح أنت وحياتك مجرد سطر فيها...

أما رفعت ففى البداية شخصت حالته على أنه مصاب بداء أضطراب الشخصية النرجسية "Narcissistic" تلك الشخصية المتطرفة في كل شئ..

لا قناعة بفكر التطرف، وإنما طمعا في الأثر الحاصل جراء ممارسة ذلك الفكر، يهوى نظرة الناس المشدوهة له، يعشق ذلك الأندهاش البادى في أعينهم جراء الفعل الذي مارسه أمامهم أو الفكرة الخيالية التي طرحها فاستقبلتها عقولهم دون أستيعاب. ولهذا كانت طريقة قتله لزوجته، فبقلمه كتب وأكد في أول روايته أنه كان يبحث عن التميز عن كل الذين قتلوا زوجاتهن قبل ذلك وهذا يضعنا أمام يقين أن طريقة القتل لم يكن ورائها أي رسائل بل كان الأمر نوع من التفرد. شعور بالغطرسة والعظمة. فعل أراد به تصنيف الناس له بأنه إستثنائي ومميز، محاولة لإرضاء غرور نفسه، وتأكيدا على ذلك كانت جملته التي كتبها بيد القتيلة على الطاولة والتى ستصبح بلا معنى، مجرد كلمات أراد بها أن يضفى على فعله شيء من العمق والتعالى، رغبة منه أن يوحى لنا أنه مفكر عظيم وأن ما من شيء يفعله إلا ووراءه رسالة يجب أخذها بعين الأعتبار مع مراعاة أن رسائله وكلماته لن يتمكن أحد من فهمها وفك شفراتها إلا الذين يماثلوه في الفرادة والسمو الفكرى. وقد عزّز هذا التشخيص لدى هو القرود الطائرة التي في حياته " **The Narcissis Flying Mankeys** ". هؤلاء الأشخاص الذين حوله، المقربين له، الموجودين في دائرته الضيقة والذين دون عمد عززوا المرض لديه برضوخهم وقبولهم لأنانيته ودنائته المفرطة والتمسك به أكثر عند كل فعل يستوجب الهجر. يخون زوجته فتتقرب له، يأكل مال أخيه ويبخسه إرثه فيرضخ له، حتَّى صديقه محسن كلما أبتعد عنه رفعت كلما تقرب له محافظا على أواصر

الصداقة التي كانت بينهما بحكم العشرة والجيرة. تصرفات كثيرة ومواقف أكثر كانت أسباب كافية لتعالى الأنا لديه فجعلته غارقا في تعسفه العاطفي من أخمص قدميه وحتى يافوخه، يحيا ويستمر بإذلاله للآخرين وإساءة المعاملة لهم، عنجهية أتّسم بها، غذوها بضعفهم فانعدم تعاطفه لهم، رغبة صفرية في تحديد وملاحظة مشاعر واحتياجات الغير، أستغراق كامل في خيالات وأوهام جعلته يقتل في النهاية زوجته...

كل هذه الأعراض تنطبق تماما على رفعت، كل هذه الأعراض تأخذنا لتشخيص مفاده أن رفعت مصاب بداء أضطراب الشخصية النرجسية، وأن دفاعه عن زوجته القتيلة في أول الرواية لما رماها معاون النيابة بالخيانة ما كان إلا تأكيدا منه أن مثله لا يخان، فغروره ونرجسيته جعلوه يكتم أمر خيانة زوجته له مع أخيه فمن مثله لا يخان . أما أعترافاته خلال أحداث الرواية بأن ما يكتبه شيء رخيص مبتذل، وأنه فاسد وخائن فهذا ليس تواضعا أو مصالحة مع النفس كما أدعى بل هو أمر أقرب لسب المجتمع وأقرار بفساده وأنه ماهر كونه فاق فساد المجتمع فسادا...

ورغم ثبات أعراض النرجسية عليه وتطابقها مع كل سلوكه وأفعاله، يتبقى شيء هام يأبى أن يتوارى، فكل هذه الأعراض تتناقض وتتنافى تماما مع جزئية يقينه بأنه ليس رفعت وأنه صار عرفة الزاهد الذي يكتب عنه. فشعور الغطرسة والعظمة الذي يتملكه يجعل من أنتحاله المرضى لشخصية أخرى غير

شخصيته التي يراها استثنائية متميزة أمر غير منطقى، فهو بنرجسيته لا يرى غيره، ولا يحق لأحد أن يساويه فالجميع أقل منه قدرا، فكيف له أن يقتنع أنه صار أحدا أخر؟! خصوصا أن كان هذا الأخر مهان مخان تآمر عليه الجميع وذلوا ناصيته. كيف لرفعت الذي لا يري غير نفسه يرى نفسه شخصا أخر. الأحري أنه مصاب بمرض" الإنفصام العقلي- **Schizophrenia** " أو الفصام كما هو معروف ومتداول، فمريض الإنفصام معروف عنه معاناته من إضطرابات حادة في الدماغ، تلك الإضطرابات التي تشوه كل ما لدى الفرد من تصرفات وتفكير فتجعله ينظر بخلل إلى الواقع فتهتز وتختل العلاقات المتبادلة بينه وبين المحيطين به مسببة له الهلاوس والعزوف عن أي مشاركة إجتماعية لتنعدم في نهاية الأمر. إلا أن مريض الإنفصام ليس كما صوروه في السينما والروايات فهو أبدا لا يتحول لشخص أخر نقيض في أخر الليل يفعل ما عجز عن إتيانه في النهار . فالإنفصام ورغم كونه أحد أشد الأمراض النفسية فتكًا إلا أن أعراضه غير التي أشاعوها بين العامة وجعلوها ملازمة للفصامى، فالفصام ليس إنفصاما في الشخصية، بل اضطراب نفسي "ذهان – **Psychosis**"، يتملك الشخص فيه منه الأوهام "**Illusions**" والهلوسة "**Hallucination**" التي تجعل الشخص المصاب عاجزا عن التفريق بين الواقع والخيال، يهيأ له أن هناك من يطارده، يتوهم أن هناك من يحادثه، تسيطر عليه أعراض كالأرتباك والبلبلة حين الحديث، عاجز عن طرح أفكاره، تجد أفكاره وحالاته المزاجية غير ملائمة للوضع الذي فيه،

فتراه يجهش بالبكاء بدلا من الضحك عند سماع نكتة، هذا غير أعراض شكلية تظهر على الجسد والحركة والسلوك كاللعثمة والتأتأة في النطق، وتكرار حركات بعينها وإيماءات معينة، كالمشي ذهابا وإيابا أو بشكل دائري أو حتَّى الثبات على وضعية جسدية بشكل دائم لفترات زمنية طويلة. أعراض واضحة جلية ظاهرة دون عناء، لذلك صدقوا حينما قالو أن كثيرًا من أنواع الإنفصام ذا أعراض أيجابية لا يجد الطبيب مشقة في رؤيتها

وتحديدها وتشخيصها كإنفصام عقلى...

لذلك ففكرة التبديل والإحلال الذي فعله رفعت بينه وبين بطل روايته جعلنى أجزم في بادئ الأمر أن رفعت ليس أكثر من مدعى كاذب، روائى أوحى له خياله الساذج الفقير بفكرة ما ليتنصل من جرمه، ولو كان قد قرأ قليلًا في الطب النفسي لعرف أن ما أدعاه ليس له أساس طبي وحتى لو كان فأنه سيندرج تحت خانة الهلاوس والأوهام التي لا تكفى كمبررات لقتله زوجته، فكما عرفت عن طريق المعلومات التي جمعتها أن رفعت لم يظهر عليه قط أي أعراض شكلية أو سلوكية تجعلنى أخمن أنه مريض بالإنفصام العقلى، فكل ما قيل وما جمعته في رحلة إستقصائى عنه أكد لى أنه كان منمّقا لبقا مرتب الفكر يجيد الحديث والمناقشة متفاعلا مع الغير لكن ورغم هذا فليس من الصواب أبدا الجزم بكذبه ونفى واستبعاد مرض الإنفصام العقلى عنه فهناك حالات تم توثيقها عن مرضى

فصام في درجاته العالية لم يظهر عليهم أي أعراض سلوكية أو شكلية تنبئ بالمرض...

فى النهاية ستظل الحيرة هي العنوان الأعظم وسأظل غير قادرة على تكوين رأى نهائى إلا بعد الإنتهاء من قراءة ما تبقى من روايته وحتى وإن أتممت ما تبقى سيظل حكمى ناقصا منقوصا إلى أن يجمعنى به جلسة أراه فيها عن قرب ليتسنّى لى الحكم عليه وسبر أغواره التي تزداد غموضا مع كل ورقة أنتهى منها...

ملحوظة: هاتفنى أسامة بأنه قام بالتنسيق بينه وبين أحمد جاسر معاون النيابة، محددا لي ميعادا، وأن معاون النيابة قد أخبره بأنى سأقابل رفعت في القريب العاجل حين الإتيان به من السجن لإستكمال التحقيق...

****

(١٩)

الأمر مغاير تماما، فارق أن تنظر للقاهرة وهي تستعد لحفلات رأس السنة من نافذة سيارتك متكئا بكوعك علي بابها، وأن تنظر لها من نافذة سيارة الترحيلات قابضا علي قضبان نافذتها. ستكتشف أشياء لم تسطع عينك رؤيتها وتمييزها قبل ذلك وكأنك غريب ضل سعيه فعاد بعد سنين إنقطاع ليبصر قاهرة غير قاهرته التي إعتادها. ستري أناسا غير الإناس. ستراهم وستعرف أن جميعهم يشبهون بعضهم بعضا حتَّى لو إدعي كل منهم الإختلاف، ستراهم ولأول مرة دون زينة أو رتوش، تائهين مسيرين يمشون في طرقهم دون إرادة أو حياة، سائرون كما النيام هربا من أحلامهم المستحيلة الممكنة. تماثيلهم كأجسادهم مثل وجوههم المنحوت عليها الحزن بفعل فاعل. أحاديث إذاعاتهم المنبثقة من سياراتهم والتي تمنيهم بعام أخر تُتْلي عليهم تعاويذا كما الأسحار علّها تعيد لهم الحياة، تمنيهم وتبشرهم بعام جديد خال من موات العام المنصرم، كل الإذاعات واحدة بنفس الصوت والإيقاع حتَّى لو إختلفت المحطات. كل شيء يتوهم أهبّتِه حتَّى محلات خمورهم، الزحام مستعر أمامها وكأن قنانينهم تصرف مجانا لشفاء جراحات العام الذي فات فتعيد رغبتهم التي فارقت أجسادهم...

رميت لأحدهم ورقة مكتوب فيها رقم هاتف رفعت فارتعب، لو كنت رميت عليه قنبلة منزوعة الفتيل ما كان الرعب سيظهر في عينيه جليا لذلك

المدي. ظل يحدق في الورقة هلعا. يتقاذفها الهواء فتقترب من قدمه لتبعد حينما تبصر رعبه ألى أن وئدتها إطارات السيارات قاضية علي أخر

أمل لي في أن يعرف أحدهم مكاني فيتحرك...

ظلت عربة الترحيلات تعرج في شوارع بنت المعز حتَّى خرجت من رحمها ناهبة الطريق الذي ما عاد بصحراوي وصولا لسجن"وادي النطرون ٤٣٠". أمام بوابة السجن استقرت السيارة ككائن خرافي فقد الحياة قبل أن يدلف لمغارته بلحظات. لا أعرف إن كان مكانها أُختير صدفة أم بتدبير فالشمس عمودية، تصب سعيرها علي جدران السيارة في محاولة لصهرها ليصير صندوقها المعدني جحيم لا يُطاق. دقائق وانهمر العرق من الأجساد كنهر قرر أن يلفظ ماؤه ففاض على الجنبين، ظهرت حالات الإغماء، وكذلك ضيق التنفس. تبرع الذين لم يُصِبهم الدور باستعمال ملابسهم وملابس غيرهم كمهفّة للتهوية علي وجوه من سقطوا. وقبل أن يُفقد الأمل وقبل أن تُغادر الروح الأجساد إنفتحت نافذة الباب الضيقة ليظهر فم منها قائلا: كل واحد يِغَمّي عنيه بفانلته وتنزلوا واحد واحد.. هكذا قال وامتثلنا...

خرج أوّلنا من اتون ما كنا فيه ليفاجأ بإثنين من العساكر علي سلم السيارة يقذفوه من أعلي فيتلقّفه هؤلاء الواقفين المنتظمين علي الجانبين وكأنّه حفل إستقبال بالهروات والعصيّ، منّا من تحامل وأراد العبور هرولة ظانا منه أنه بذلك ينجى ألا أنهم عرقلوه لينال نصيبه من الضرب والركل...

في ساحة واسعة خلعنا ما تبقي من ملابسنا، أوقفونا متجاورين، وجوهنا للحائط لنسمع بعدها صوت يزعق قائلا: كل واحد يختارله إسم مَرَه يا مرَه إنت وهوّ

في النهاية ستختار، لا مفر، هربا من جحيم الهروات والجلد. من الجائز أن تصمد إلا أنك في أخر الأمر ستحاول أن تلد إن هم أرادوا. مِنّا مَن تذاكي واختار إسم بنت رسول الله وهناك أخر إختار إسم أم المؤمنين عائشة إلا أنهم رفضوا مثل تلك الخيارات، فأسامي الراقصات وألقابهم هي من كانت محل الإعتبار والإختيار والموافقة.

- هزي يادينا أكتر.. هكذا قال أحدهم لأحدنا ليتمايل أكثر.. وبدأنا التصفيق مجبرين إلى أن يأتى دور كل منا.

من باب ضيق لممر يجلس فيه أحدهم علي مكتب خشبي مات صانعه منذ عقود أدخلونا واحدا تِلْو أخر بقوة دفع الركل واللطم، لا مجال للسقوط أو التعثّر فتلك اشياء مفادها أن يقف على رأسك أحدهم بحذائه. اياك وأن تقع فمزيد ومزيد من الضرب بالعصي والهروات الكاوتشية ينتظرك فاتحا لك كل أبواب الألم...

أخذ كل منا رقما فأصبح واردا، رقم عُرفت به زنزانته حتَّى يتم تسكينه. ومن ذاك الممر لممر أخر أكثر إتساعا وقفنا أمام أبواب الزنازين. هنا ظننت أن ذلك أخر القيد ونهاية المطاف وأني سرعان ما سأسمع صوت المفاتيح تفتح

الأبواب الموصدة فتنتهى معاناة حفلة الأستقبال، إلا أني فوجئت بأحدهم يسكب علي جسدي جردلا من المياه الباردة المخلوطة بمسحوق تنظيف الغسيل الذي عرفْته من الرائحة . أمروا كل منّا بدعْك جسده حتى صار الجسد كما اللحم المفري وبعدها فُتِحتِ الأبواب ليتم

قذفي للداخل مثل الأخرين كل إلى زنزانته وعالمه الجديد...

ليست زنزانة فذلك لقبا أطلقوه مجازا أو أنهم إحتاروا في تسميتها فلم يجدوا أمامهم غير لقب زنزانة، فذلك المصطلح له قوانين وقيم لابدَّ أن تتوافر ولا يصح أن كل أربع جدارات يطلق عليهم زنزانة. في الداخل كانت المساحة لا تتعدي الأربعة أمتار عرضا ومثيلهم طولا أو يزيد مترا أو حتَّى أثنين على أقصى تقدير. في أعلي الجدار المقابل للباب نافذة لا يتجاوز عرضها الثلاثين سنتميتر وطولها بمقدار نصف الحائط، تلك النافذة التي لا تري منها سوي حذاء عسكري الحراسة حين ذهابه لنقطة ما حددتها قدمه وإيابه لنقطة أخري في رتابة، كما أن النافذة وللإنصاف لا تبخل ببصيص من نور يجعلك قادرا علي رؤية كف يدك أثناء الليل. تلك نافذة، وهناك أخري في الباب تدعي شراعة والتي لا تفتح إلا للسب وإلقاء الأوامر ودائما وأبدا ما تكون مغلقة بمزلاج يسمع صوته إثناء الفتح والغلق. يستقبلك المقيمون فيواسون جراحك قبل أن يواسوك لتكتشف ما أنت فيه وما أنت مقبل عليه بعد ذلك. فبرغم عددهم الذي يتجاوز العشرون نفسا ألا وتجدهم منظمون ومبتكرون أيضًا فالحوائط معلق عليها أكياسهم

مربوطة في عقدة خيط مثبتة في الحائط بقطعة من لب رغيف أو صابون. ركن من أركان الزنزانة تم أقتطاعه ليكون دورة مياة والتى أستبدل بابها بملاءة مثبتة بنفس الطريقة، هذا غير ركن أخر وضح من شكله أنهم قد أستقروا أن يجعلوه مطبخا، قدم لى أحدهم عصيرا، أضنانى التفكير لأعرف كنهه إلا أنى فشلت ليخبرنى أحدهم بعد ذلك أنه ما كان إلا مربى مذابة في الماء، قدم أخر تمرتين وظل منتبها يقظا عيناه لا تفارقنى حتَّى أنتهيت منهما ليأخذ منى نواتهما لأعرف بعد ذلك أنه يعيد أستخدامهم كزرائر يغلق بهما الأكياس والشنط...

ستعرف في الليل أنه محظور عليك مفارقة مكانك لأى سبب كان، فتوجهك لدورة المياه معناه أنك ستكمل الليل نائما كما الخيل واقفا . فهم في الليل ينامون مرصوصون كل على جنبه ولا مناص لأحدهم ليتقلب على الجنب الأخر . فمكانك الفارغ سيذوب وستبتلعه الأجساد العطشى للراحة...

فى الصباح سيفتح المسوجر، ذلك المزلاج الذي أغلق أمس في تمام الرابعة مساء. فباب الزنزانة وكما عرفت بعد ذلك يتم غلقه بطريقة من أثنين، أما بالكالون، وأما بالكالون والمسوجر مع بعضهما وإذا تم ذلك فالباب لن يفتح مرة أخرى إلا في الثامنة صباحا من اليوم التالى، اللهم إلا إذا وافت أحدنا المنيّة. هنا فقط يفتح الباب قبل ميعاده المقرر صباحا لسحب جثة من قضى نحبه معاودا الغلق مرة أخرى وكأن شيئا لم يكن...

تأتيك الجراية والتى تختلف من سجن ألى أخر. فهناك سجن يكون نصيب المعتقل فيه ثلاثة أرغفة من الخبز وسجن أخر تتجاوز فيه الحصة لأكثر من هذا فتصل أحيانا إلى الخمسة أرغفة . في النهاية ستتعلم أن كسرة الخبز لا ترمى بل تقدد لتستعمل في يوم أخر لا تأتى فيه الجراية لأى سبب. مع الجراية التي قذفوك بها تأتيك مغرفة الفول، تلك المغرفة التي يشترك فيها كل مواطنى الزنزانة، أما الغذاء فهناك الطبخة السوداء هكذا

سموها، حاولت كثيرًا أن أعرف مكوناتها وباءت كل محاولاتى بالفشل...

ستتعلم أشياء كثيرة، ستتعلم كيف تستفيد من كل لحظة من دقائق التريض، كيف تعرض أكبر قدر ممكن من جسدك للشمس التي يعرضوك لها حتَّى لا يتمكن الجرب من جلدك، ستتعلم أن لا ترتبط بأحد فالتغريبة أمر روتينى لكل المعتقلات. ستتعلم وتتعلم لكنك لن تتعلم أبدا كيف تنسى من أحببت، كيف تخلعه من قلبك وتقتنع أنك لن تراه مرة أخرى...

****

(٢٠)

تيقّنا أن البلاد تمر بحادث فريد جلل. فبرغم ما حدث للشباب يوم الثلاثاء السابق عندما حاولوا الأعتصام بميدان التحرير فقام الأمن بالتعامل المفرط في القسوة معهم طالقا فيهم هرواته ورشاشات المياة بعد قطع التيار الكهربي عن الميدان بالكامل لإتمام عملية الأخلاء، إلا أننا تأكدنا أن ما يحدث بالخارج سيقلب الموازين على أكفها، ذلك أن الدولة أبدا لم تلجأ لقطع كل شبكات الأتصال كما حدث يوم الجمعة الذي فات...

في البداية ظننا أن العيب في هواتفنا لكن وبعد أن إستطعنا الإتصال في المساء بدأت الأخبار ألينا تتسرب شيئا فشيئا. عرفنا أن هناك أعداد غفيرة لا تحصى ولا تعد نجحت في دخول الميدان والتحصن به، هذا غير أقتحام ليمان أبوزعبل وغيره من السجون وخروج من كان فيه من معتقلين وجنائيين. لم تتوقف الأخبار ألينا في الأتيان تباعا، لم نصدق في البداية رغم تأكيدها من الجميع للجميع. كيف لنظام عتيّ أن يسقط بتلك السهولة؟، كيف لشباب لم تحمل أيديهم غير أناملهم المشيرة بعلامة النصر أن تسقط نظاما رسخ ظلمه سنينا وعقودا حتَّى بدا صرحا غير قابل للهدم؟. كيف لنظام لا يعرف غير البطش لغة أن يفهم ويستوعب لغة أخري لا حروف فيها ولا كلمات سوى أنه لا قِبَل لهم اليوم بهم ففر أمامهم مذعورا متخليا عن سلاحه الذي كان يستر به عورته؟،

كيف لشعب عاش شتيتا أن يهبّ عن بكرة أبيه فتصير الإبتهالات والترانيم مزجا واحدا، أغنية نصر يغنيها الأبكم فيسمعها الأصم فينشدها الأصح دعاء واحدا لرب السماوات والأرض...

كانوا على موعد مع الأمل، وحى تلقته صدورهم فصاروا رسلا لدين جديد عقيدته الثورة ومذهبه الحرية. خاصموا القدر وعاندوه ولم يساقوا كما كان مسير لهم كما الشاة إلى المسلخ. كفروا بإرث أبائهم ورفضوه، كسروا قاعدة أن الإبن وارث أبيه ومن غيرهم كان لهم أن يرثوا الخنوع والذل والمهانة، لم يرتضوا أن يكونوا عبيدا يحملوا تركة من سبقوهم ليسلموها لمن سيتلوهم، تيقنوا أن الوارث عبد والعبد لا يقيم ولا يقام عليه، ولا يعرف غير أن هذا ما وجد عليه أباؤه، ولم يأته في الوصية غير الصمت والخوف.. من أجل ذلك ثاروا...

شاهدتهم يعبرون . فيضان لا يعيقه ولا يحصره سد . لوهلة خشيت أن يتهاوي كوبرى قصر النيل من تحت أرجلهم إلا أنه صمد من أجهلم وتحمّل،، وكأنه أستبسل من أجل أن ينول شرف عبورهم، خطواتهم كانت كما قرع طبول الحرب، حرب بلا قائد، بلا سلاح أو عتاد، حرب لا يملكون فيها غير أرواحهم التي يقدمونها عن طيب خاطر، معركة لا يملكون فيها غير إرادتهم المشهرة، رغبتهم في غد يملكون فيه أمرهم. كانوا نهرا فوق النهر، بل أن النهر الذي تحت أقدامهم رأيته يتوارى خجلا من هول أنهارهم. نظرتهم وتعجبت، كيف لأفراد أن يصيروا كتلة واحدة، جسدا واحدا، يسقط فرد فيسنده أخر للوقوف متحديا

الموت الذي يأس منهم وقنط. قابلتْهم جحافل الأمن، أفراد ومدرعات، سيارات وطلقات، قنابل ومياه فقابلوها بالصلاة. الكل يصلى صلاة واحدة لا فرق بين مسلم ومسيحى إلا بالثورة، الكل يبتهل إبتهالا واحدا لا تفرقة فيه ولا شتات . وقع الكثير إلا أن الجميع عبر وكأن الملائكة تؤازرهم، تعبر معهم، شهيدهم تقدم قبل الذي لم تفارقه روحه. الجميع عبر إما روحا سبقت صاحبها للميدان أو جسدا محمولا على أكتاف من حيا، أو كائنا أسطوريا يخطو فتهز قدمه الخاوية قلوبهم. رأيتها بدرا أخري، سيوف تشهر صنعتها الإرادة وصقلتها روح أبدية خالدة لا تعرف الفناء ولا اليأس، عبور أخر كعبور أبائهم وأجدادهم عندما كانو رجالا للأرض المقدسة التي ناجى فيها موسى ربه والتى لم ترض ببديل غير الدم يرويها ويطهرها من الدنس...

بكيْت وبكى كل من بالزنزانة من هول ما رأي، الطلقات تأتيهم غادرة فيقابلوها بصدور عارية متسابقين إليها متهافتين عليها، تهتف قلوبهم، تنادى على الشهادة فتلبيهم أن اليوم يوم حق وكرامة، الحلم يتحقق، الأمل يأتى خاشعا ساجدا، يردد منصاعا إن الحكم إلا للشعب أمر أن لا يذل وأن لا يستعبد مرة أخرى...

جاؤونا في المساء بوجبات إفطار الغد على غير العادة. عيونهم منكسرة رؤوسهم منكسة وكأن الطير عليها. تداعى كبيرهم الذي علمهم السحر وإغشاء الأعين فانفرط زعم ثباتهم، تلاقت الأعين رغما عنهم فرأينا فيها الخنوع والمذلة،

كانو بالأمس سجانين واليوم صاروا سجناء خوفهم، يبحثون عن شيء من بقايا روحهم ليتجلدوا به فلا يجدوا غير الرعب يملأ صدورهم، ترقص أعيننا فرحة وجِلة فتترنح أعينهم من سكرة الموات...

فى الصباح بدأت المناوشات والأصوات العالية تأتينا من عنابر الجنائين لنصاب بها نحن الأخرين رويدا رويدا لَمَا تحولت مناوشات من بالخارج إلي عراك وصرخات بتنا نسمعها بوضوح، حاولنا كثيرًا فتح باب الزنزانة على مضض وخجل وهدوء، وعندما استحال علينا ذلك بدأ طرقنا على الباب صرخين من أجل أن يفتحوا لنا. ظللنا نحاول بما هو متاح ونصرخ بما نملكه من صوت ولا مجيب، إلى أن فتح الباب ليظهر أحدهم ملثَما فيأمرنا جميعا بالخروج لنعرف بعدها أنهم فتحوا للجنائيين قبل أن يأتونا. منَا من رفض الخروج فكان نصيبه طلقة نارية في قدمه فخرج الجميع في النهاية بعدها إما رغبة أو إجبارا...

فى الخارج شاهدت ما يحدث وكأنه يوم طامة. الجميع بزيه الأزرق يهرول غير واع ولا مدرك، حظيرة فراخ فتح بابها فصار كل فرخ فيها منطلقا في اتجاه. منا من كان متجردا لا يحمل غير أمنيته بالخروج من السجن ومنا من أصر على حمل حاجاته ومتعلقاته وكأنه يحررها معه، ومنا الذين وقفوا هادئين مستشيرين بعضهم بعضا علَهم يصلوا بقريحتهم لقرار يحسنوا به التصرف. رأيتهم وعرفت منهم أناسا كنت قد شاهدتهم قبل ذلك في التلفاز ضيوفا على النشرات التي دأبت في كل مرة على تأكيد حظرهم رغم مشاركاتهم في كل دورة برلمانية وكل عمل

سياسي. رأيتهم واندهشت لدجاجتهم عندما سمعتهم يحاولون الأتصال بمصلحة السجون يسألون أهلها التصرف وعندما أستحال عليهم الرد بدؤوا بمراسلة القنوات الأخبارية هاتفيا ليؤكدوا لهم أنهم قد أفرج عنهم مرغمين وأنهم لا

يريدون الحرية المرغمة المقتنصة...

تركتهم بمجلسهم الواقف، قابعين في حيرتهم جازما أنهم في نهاية الأمر سيجدون أن رجوعهم للإعتقال والزنزانة بجدرانها الأربعة هو أسلم الحلول، فالحرية لأمثالهم لا تأتيهم إلا طوعا على طبق رضوخهم . هذا ما حدث وهائنذا أمامك...

تنظر إليه متأملة سرحة فيحرك يديه يمينا وشمال قبال وجهها قائلا: أيه روحتى فين؟

تطيل النظر إليه وكأنه لم يقل شيئا ثم تجيبه خافتة عاتبة: ولما إنت في السجن كان معاك موبيل ليه متَصلتش بيا تطمنى عليك؟

يضحك على بصوت عال فتظهر نواجزه عندما يسمع كلماتها: يعنى أنتى يا سماح سيبتى إقتحام السجن والثورة بكل ما فيها وركزتى بس في ليه متصلتش بيكى؟!

تبتسم سماح خجلة: لا عادى أنا بسال بس.

بعد صمت يجيبها: أنا عرفت إن عرفة هو اللى حطلى الورق وهو كمان اللى بلغ عنى

تجيبه مذهولة: أنت بتقول ايه؟! عرفة مش ممكن يعمل كده..!!

- صدقينى ده اللى حصل ولولا إنى متأكد مكنتش قولتلك

تستمر سماح في ذهولها وتحديقها: وليه عرفة يعمل كده؟!

- عادى أكيد عرف باللى كان بينى وبين أمانى

تنظر أليه صامتة فيجاوبها بمثله، تلتقى الأعين فتكمل ما عجز اللسان عن إتمامه . لم يكن على يظن أبدا أنه سيأتى يوم عليه ويصاب بسهم العشق وداء الهوى. كانت حياته تسير وفق ما يريد وعلى حسب ما يخطط، حياة يعرف كيف يستغل فيها شخوصها ممتطيا ظهورهم حتَّى يصل إلى هدفه. لم يكن يعرف أن سماح ستصبح سدا يعيق استمرار فساده وسريان كرهه، صخرة يتحطم عليها حقده. سراجا ينير ظلمته، يأخذ بناصيته، يهديه السبيل. فسماح لم تكن له مجرد حبيبة يهديها رقيق قلبه وعذب كلماته، بل كانت له الحصن الوحيد الباقى الصامد أمام أستبداد أنانيته وفساده، معركته الأخيرة والتى يجب أن ينتصر فيها...

ينظر إليها متأملا فيراها تنظر حولها، تشاهد ما يحدث، تراقب وتبتسم حين تري أحدهم يصر على إعطاء أخر علبة من عصير دون أن يعرفه فيأخذها الأخر بعد محايلة ليعطيها لمار أخر. تضطرب ويرتسم الحزن على وجهها النضار حينما

تري أخر محمولا على دراجة بخارية يطمس الدم ردائه. تنتفض صرخة حينما يشق السكون صوت طلقة فتنظر ملهوفة على علىّ تطمئن وتستمد منه الحماية والسكينة فتراه يتأملها فتحاول أن تستمر بالنظر في عينيه ألا أن الحياء يمنعها فيسارعها بالقول قائلا قبل أن تغيب عيناها عن عينه: بحبك

تنظر أرضا خجلة فيكمل مبتسما: هو بس يمشي ونتجوز ولا عايزة ولادنا يقولو علينا سابوا الميدان عشان يتجوزوا..؟

بخفوت ممزوج بالحيرة تجيبه: تفتكر عرفة هيوافق؟

يفارق جلسته مادا يده فتمد يدها ليعينها على الوقوف، يراها تضم ثيابها تدثرا من البرد فيخلع من على جسده جاكته واضعه على كتفيها قائلا: ألبسي ده..

تطاوعه مسلمة أمرها تاركة له يدها ليضمها براحة يده بادئة السير جواره.

– على عايزة أحكيلك حكاية وعايزاك تسمعنى من غير ما تقاطعنى..

يهم بالكلام إلا أنها تبدأ وكأنها لا تنتظر منه موافقة، أو كأنها ترغب في أزاحة حجر من على صدرها يثقل عليها ويعيقها التنفس. بدأت الكلام بعين شاردة لا تعى ولا تدرك شيئا سوى أنها تريد التكلم والحكى. بدأت وقالت..

كنت في العاشرة من عمرى أو أزيد قليلًا. لا أظن أن هناك من هم مثلى. فأنا بنت الشقاء والألم. بنت أب لم يكن يجد ألما في أن يركلنى بقدمه حينما أجري عليه كأى طفلة راغبة في ضمة ذراعه، بنت أم لو كشفت لك عن جسدى فلن تجد

جزءا فيه نجا من حرق ملعقتها. ماذا أقول لك؟، هناك الكثير والكثير مما أحث ذاكرتى وأتوسلها أن تنساه لكنها دائمًا تخذلنى بل أنها تنبئنى بأنى لن أنسي حتَّى لو كنت على فراش الموت تتسلل منى روحى. ماذا تنتظر من طفلة لم يكن لها غير دميتها القطنية تكلمها وتناجيها، تحتضنها، تبادلها العطف. تسائلت مرة لما رأيتنى شغوفة بكلاب الشوارع الضالة، أعطف عليهم، ألاعبهم دون خوف أو وجس، ساعتها كان جوابى عليك أنهم حيوانات غير مؤذية عكس ما هو متعارف عليه. لم تكن تلك كل الحقيقة. فسبب عطفى عليهم وعدم خوفى منهم هو أن أحدهم كان صديقى، أتصدق هذا، أحدهم كان صديقى أنيسا لوحدتى، كليبا لعزلتى. لم تكن غرفتى ببيت أبى غير زنزانة قررتها لى أمى، كنت لو تحدثت دون إذن أو سماح تأخذنى للغرفة غالقة إضائتها . لم أكن أجرؤ ساعتها على فتح نافذتها الوحيدة التي تطل على حديقة خلفية متهدمة السور لأدخال بصيص ضوء. ما زلت أتذكر خوفى ورعشة أوصالى. بكائى الصامت حتَّى لا تسمعه أمى فتزيد من عقابى. كنت أظل على ذلك الحال حتَّى يأتى. كلب ضال اختار تحت النافذة مسكنا له. ينبح هو وصغاره وكأنه يقول لى أن أطمئنى فأنتى لست بمفردك. لك أن تتخيل طفلة تستأنس بنباح كلب، تنتظره حتَّى يزول عنها الخوف. تصاحبنا دون أن يري بعضنا بعضا إلى أن قرر أبى حرمانى من صديق سجنى واضعا له السم هو وصغاره، وكانت تلك الليلة...

ما زلت أتذكرها وكأنها الأمس. ما زالت أصواتها تتردد في أذنى، أحداثها منحوتة في عقلى مصورة في عينى، مسيطرة على روحى، تمثل كل ذكرياتى، تطرد كل ذكرى لتصبح هي المشهد الوحيد. كنت بغرفتى على سريرى تحت غطائى عقابا، أشكو دميتى ألم روحى وجسدى، أعاتبها أنها لم تحمينى من براثن أمى، أحدثها أنى حينما أكبر وأستطيع سأخذها ونهرب بعيدا عن كل قسوة وألم، وأذا لم نصمد سنبحث عن أب وأم أخرين يستطيعون أن يلعبوا معنا، يحتضنونا، يضحكوا في وجوهنا، كنت أمنّيها وأمنى نفسي كأى طفلة قاست وتألمت، حتَّى سمعت صوت صرير فتح الباب كان يفتح ببطء وحذر، كان صريره ليس غير رسالة تنبئ بأن القادم مخيف. تقدم بخطوات ثقيلة، كان صوت أقدامه فحيحا، ثعبان يزحف دون صوت لكن أذنى سمعته بكل وضوح وخوف. غطيت رأسى بلحافى، أجبرت عينى أن تغمض، أحتضنت دميتى القطنية أكثر ألتمس منها الحماية، أنكمشت في سريري، ضممت ساقاى إلى صدرى، تكوّرت على نفسى حتَّى شعرت بيده تتسلل من تحت الغطاء. لم أدري وقتها ماذا يفعل ولما يتحسس جسدى بتلك الطريقة وفى تلك الأماكن منه. ما زلت إلى الآن أتذكر صوت أنفاسه اللاهثة عيناه المحملة بكل شر الدنيا عندما خانتنى عيناى ونظرت إليه . كان خالى، نعم هو خالى أخو أمى الذي تأخر به الوقت فقرر أن يبيت ليلته عندنا ليسلبنى عذرية جسدى وروحى معها. كنت صغيرة لا أعى شيئا، لكن طفولتى أنبئتنى أن ما فعله خالى بى وما سببه لى من ألم فعل رجيم...

ذهبت إلى أمى لأخبرها بأمر خالى وما سببه لى من ألم وأنه خلع عني لباسي الداخلى وفعل بى ما فعل، أخبرتها، فرأيت أحمرار وجهها وغضب يكب من عينيها. شدتنى من يدى، أخذتنى إلى المطبخ، وبكل عنف فتحت أحد الأدراج أخذة منه سكينا لتضعها على الموقد بعد أن أشعلته. توسلت إليها أن تتركنى، بكيت حتَّى تسامحنى، أخبرتها بأنى لن أكلم أحدا في ذلك الأمر ولن أحكى لأي أحد مرة أخرى، وصل بى الأمر أنى قلت لها أنى لن أتألم مرة أخرى أذا جاء خالى وأعاد فعل ما فعل. ظللت أبكى لتتركنى دون حتَّى أن تسمع بكائى لتضع السكين على يدى في نهاية الأمر لأصرخ علّ أحدهم يغيثنى...

كان على يسمعها محققا لها ما أرادت، لم يقاطعها، تركها تحكى، تقص ما تعرضت له من ألم. لم يظن أبدا أنها تعترف له أنها إذا تزوجا فلن يجدها عذراء، بل كان على يقين أن حديثها لم يكن إلا رغبة منها أن يحمل أحدهم عنها ألمها، يواسيها، يضمد جرحها، يبعث إلى روحها الحياة التي قتلتها الأيام والسنين. لم يقطع تفكيرها إلا صوت طلقة قريبة جدا منها مصحوب بدخان كثيف مانعا عنها وعنه الرؤيا قاطعا الهواء الواصل ألى صدرهم...

حبست أنفاسها بيدها حتَّى لا تستنشق أكثر من قنبلة الدخان الملقاة بالقرب منها، حاولت أن تصرخ بإسمه إلا أنها لم تستطع. كان الحديث كان قد أخذهما ألى منطقة مكشوفة غير أمنة دون أن يشعرا. وقعت أرضا نتيجة

أصطدامها بشئ ما، تحسسته فوجدته عليّ، تحاول أن تجره إلا أنها لم تقو على ذلك...

ينقشع الدخان، يربت على وجهها لتطمئن، تنظر إليه فتفاجأ ببقعة دم تكبر، تأكل لون قميصه بالكامل...

ينظر إلى جسده فيتذكر ألمه يضع يديه على جنبه الأيسر قائلا: ودينى البيت، أنا كويس متخفيش.. هكذا قال قبل أن يغيب عنه الوعى..

فى الطريق كان يستيقظ، يلملم نفسه، يحاول أن يبتسم ليطمئنها، يجاهد ليتنفس، يسعل كثيرًا، يضع يدها على صدره متألما، على قميصه بقع محروقة لم يبذل مجهودا في تفسير كنهها، طلقات من خرطوش أصيب بها في صدره وجنبه، تحدثه مذعورة في وجوب الذهاب ألى مستشفى، فيرسم على وجهه أبتسامة ساخرة حارب فيها ألمه حتَّى يصنعها قائلا: متكبريش الموضوع، أنا كويس

أسندته حتَّى وصلت به للفراش، فتحت دولاب ملابسه أتية بقميص أخر غير الذي عليه، تصعق من كثرة عدد الطلقات التي في صدره، تتيقن من وجوب الذهاب لأى مشفى قريب، تحاول أن تحمله، تفشل فقد خارت قواها ولم تعد قادرة على شئ، تتذكر أخاها فتسرع بالإتصال به ليأتى ويتصرف، لم تقل له شيئا غير.. إلحقنى أنا في شقة على.. الحقنى.. ليغلق الهاتف على عجل واصلا بعد دقائق هو وأمانى...

كانت حالته تسوء أكثر. أجلسته ساندة إياه بذراعيها حتَّى يشرب كما طلب، جاهد ليرتشف رشفة من ماء فسعل بقوة فتناثر من فمه قطرات من دماء. ضمته إلى صدرها ماسحه نقطة دم كانت على شفتيه..

يسأل عرفة عن ما حدث زاعقا. فتنظره سماح وكأنها تراه لأول مرة قائلة له: إنت اللى بلّغت عن على؟

يصمت عرفة صمت المذنب ليجيب بعدها: أيوه أنا اللى بلّغت عنه، ولو ينفع أقتله مكنتش أترددت، أنتى مش عارفة هو عمل فيا أيه؟!

قالها ناظرا إلى أمانى نظرة ذات مغزى فتأكد لسماح ظنها أن عرفة كان على علم بعلاقة على بزوجته..

يكمل عرفة مفزوزا: كنتى مستنية منى إيه؟، كنتى مستنيانى أسامحه بعد ما داس على شرفى، بعد ما وسخه، كنتى مستنيانى أسامحه، أسيبه..؟

تهم أمانى بالكلام إلا أن عرفة ينهرها قائلا: أنتى تسكتى خالص، طب هو إتسجن، سد من فاتورته ولسه هيدفع تانى، إنتى بقى لسه حسابك مجاش، هخليكى تتمنى الموت، تطلبيه، ومش هتنوليه، الموت للى زيك هيبقى راحة ميطولهاش..

يكفهر وجه أمانى طالا الخوف من عينيها إلا أنها تستجمع قواها قائلة: أعمل اللى أنت عايزه، بس لازم تعرف إن إنت السبب، إنت اللى عملت فيا كده، أنت اللى وصلتنى لكده. دايما ساكت، دايما ساينى لوحدى، كنت بشحتك عشان

تتكلم معايا، ياما حاولت أتقرب منك مكنتش بلاقى منك إلا الصد، تقدر تقولى أخر مرة لمستنى فيها كان إمتى، تقدر تقولى أخر مرة إفتكرت إنى ست ليا رغبة، ست عايزة راجل يقدر أنوثتها، يسمعها ولو كلمة تحس بيها إنها عايشة وليها لازمة. زعلان إنى خنتك مع على؟!، أيوه خنتك مع على. وهو مين اللى قرّب علىّ، مين اللى دخّله حياتنا، مين اللى سابنى ليه يعمل اللى أنت معرفتش تعمله، مش إنت يا عرفة..

يصرخ عرفة بشدة: أنا مش عرفة أنا رفعت

يتكهرب الجو، تحملق سماح في وجه عرفة ظانا منها أن جنون قد أصابه فيكمل عرفة قائلا: متستغربوش، أنا مش عرفة، وانتو مش حقيقة، أنتو مجرد ناس على ورق، ناس مش موجودة إلا في خيالى، عقلى اللى خلقكم وايدى هيا اللى كتبتكم

تقاطعه أمانى: إنت بتقول إيه؟ إيه الجنان اللى بتقوله ده؟!

يقترب منها عرفة بوجه إرتسم عليه كل الشر قائلا: جنان يا وسخة!! لسه زى ما أنتى

يهم بالهجوم عليها صافعا إياها إلا أن سماح تصرخ قائلة: بس.. على تعبان، لازم يروح مستشفى دلوقتى

يلتفت عرفة كما أمانى إلى على الذي نسياه في غمرة مواجهتهما، فيجد سماح تحضنته بقوة وبخوف شديد، مصفر وجهها كما وجهه باكية بشدة..

بصوت متهدج همس على في أذن سماح قائلا: مفيش وقت، سامحينى، أنا بحبك، سامحينى

تبكى بشدة قائلة: متسيبنيش

بمجهود ينظر إليها: أنا هموت، همشى، همشى وانا مش قلقان عليكى، أنتي خلاص إتغيرتى.. يقطع كلامه بسعاله فيصمت حتَّى يهدأ، يستجمع قواه ليكمل قائلا متزعليش عليا، أنا رايح مكان أحسن، وأكيد ربنا شاف اللى أنا عشته، وهيسامحنى، أنا هرتاح خلاص يا سماح

بكلمات مليئة بالدموع: متسيبنيش، أنا مش هعرف أعيش من غيرك..

يجاهد ليبتسم قائلا: لا.. هتعيشى وهتتجوزى وهتخلفى ولد وتسميه على كمان، حاولى تنسينى يا سماح، حاولى تعيشي

ينتفض جسده مرة ومرة، يخور، تترك يده التي كانت تحتضنها فتسقط دون حياة..تصرخ صرخة عالية بأسمه، لكن دون إجابة...

****

(٢١)

تبعد هاتفها عن فمها مخبئة نصفه الأسفل بين راحتيها سائلة أحدهم بتردد: هو مكتب أحمد جاسر معاون النيابة فين؟

يتفحصها مستنكرا ذكرها الأسم دون القاب مشيرا بيده دون أكتراث إلى غرفة تلى الغرفة التي يقف أمامها فتتوجه إليها معاودة الحديث في هاتفها قائلة: خلاص يا أسامة والله لما هخرج هكلمك على طول

تجد أخرا واقفا مثل نظيره الذي دلها فتخبره برغبتها بالدخول وأن بينها وبين معاون النيابة ميعاد فيغيب للحظات بالداخل ليخرج إليها قائلا: شوية صغيرين وهتدخلى حضرتك على طول، الباشا يخلص التحقيق بس

تبتعد قليلًا عن الباب هروبا من الممر الضيق لتقف قبال نافذة محاولة جلب هواء نظيف إلى رئتيها يعينها على التخلص من ضيق انتابها منذ ولوجها المصعد. تعبث في هاتفها لفترة وعندما يستحيل عليها صد الملل في محاولة تسلله إليها تغلقه واضعة إياه في حقيبتها معاودة النظر من النافذة...

لا شيء يشغلها سوى رفعت، لم تنم منذ امس منذ أن عرفت من خطيبها أسامة أن المقابلة اليوم، حاولت كثيرًا أن تسقط الموضوع برمته من حساباتها، أن تحيله لذلك الركن المظلم في ذاكراتها لتستدعيه وقت أن يقف أمامها وتقف أمامه

إلا أنها لم تستطع، تملء فراغات الخيال بحديث وهمى بينها وبينه فتسأله فيجيبها فيعطيها الحقيقة كاملة..

يناديها الحارس: إتفضلى حضرتك الباشا مستنيكى

تدخل فيراها فيغادر كرسيه مبتسما مادا يده قائلا: أهلا بيكى يا دكتورة شرفتى مكتبى..

يشير إليها بالجلوس معاودا مكانه قائلا: تشربي إيه؟

بخجل: شكرا.. أنا بس جيت لحضرتك على حسب المعاد وأكيد أسامة كلمك

- أه كلمنى وهتقابليه لكن بشرط

باستفهام: شرط أيه؟

- يفضل موضوع المقابلة ده سر، دى مسئولية

تؤمى برأسها قائلة: متقلقش، محدش هيعرف حاجة عن الموضوع ده

- قبل ما تقابليه مش عايزة تعرفى التطورات اللى حصلت في القضية

- تطورات إيه؟

- طبعا أنا قريت الرواية زيك مرة واتنين وتلاتة يمكن أقدر أوصل لحاجة، وكان باين من الورق إن الدافع في القتل الخيانة، لكن بسؤال سامح أنكر تماما الكلام المكتوب، هو أه أعترف أن فعلا كان في علاقة حب بينه وبين أمنية بس ده كان قبل جوازها من أخوه، وهو فعلا قابلها لكن المقابلة خلصت بينهم بوعد منه

إنه هيكلم رفعت، وبالفعل لما دورنا في موبيل رفعت لقينا رقم سامح ظاهر كتير إلا إن رفعت مردش على أي مكالمة منهم، يعنى وباختصار رفعت ميعرفش إن أمنية راحت لسامح البيت وإن اللى كتبه مش أكتر من خيال مؤلف

بإستغراب شديد: أمال قتلها ليه؟، وليه كتب إن مراته خانته ،

– ده اللى مش عارفينه لغاية دلوقتى، هو رافض تماما إنه يتكلم وللعلم مش كل اللى كتبه رفعت خيال، فعلا ليه صاحب أسمه محسن مات من التعذيب في أمن الدولة، وبالتحريات عرفنا إن كان في علاقة بين رفعت وبين مرات محسن اللى هيا لى لى وسامح أكد الكلام ده وذكر أن ده سبب رغبة أمنية إنها تتطلق

– أنا مبقتش فاهمة حاجة

– إيه اللى مش فاهماه؟

– لما أمنية مش خاينة، ليه قتلها؟

– ومين قال أن أمنية مش خاينة، مش يمكن سامح بيكدب، أو حتَّى يمكن مش كداب وفعلا مغلطش مع أمنية وهيا اللى كدبت وقالت لرفعت إنها خانته مع أخوه كنوع من الإنتقام يعنى، وده اللى خلاه يقتله. كل الأسئلة دى هيتفك طلاسمها لو رفعت إتكلم، وعشان كده وافقت إنك تقابليه لعل وعسى تتفك عقدة لسانه

– عايزة أقابله

بابتسامة خفيفة تفهما لحماسها قائلا: حاضر هتقابليه، بس زى متفقنا ده سر، هغيب عنك نص ساعة بالكتير، رفعت بيخلص شوية أجراءات بسيطة، وأنا هكلف العسكرى اللى بره يدخله أول ميخلص وإنتى لو عزتى أي حاجة نادى عليه...

يغادر كرسيه ملتفا حول مكتبه متوجها إلى الباب. أمام الباب من الخارج تراه يحادث الحارس بصوت خفيض مشيرا إليها بيده مرة وبعينيه مرات فتفهم أنه يوصيها عليها وما يجب عليه فعله حيالها . يغلق الحارس الباب تاركا إياها وحيدة في غرفة المكتب...

خوفها يتزايد وقلقها يسيطر عليها فعلى قدر ما تمنت تلك المواجهة على قدر ما تهابها الأن، قرأت روايته دون الفصل الأخير ألا إنها لم تستطع أبدا الحكم عليه، فبرغم أن كل شخوص روايته بل كل المحيطين به لما كتب عنهم جعل فيهم شيئا منه وكأنه يكتب عن نفسه إلا أنه إشتبك مع شخصيات روايته ومن كتب عنهم، عراهم نازعهم الموت قبل الحياة، وكأنه أراد بهم أن يملأ خواء روحه، يقتلع الكلمات من سنينه العجاف فيكتبها فيرجع ليتساءل عما بيده ومن أي أودية من روحه خرجت تلك الكلمات . يكتب فيمد بكل كلمة يكتبها سلكا شائكا يحاوط نفسه به حتَّى لا يقترب أحد فيفهم، يعذب نفسه ويعاقبها بإبعاد وإيذاء كل من حاول التقرب منه في مازوخية يشفق فيها عليه

تعاود العبث في حقيبتها فينجح هاتفها في الوصول إلى يدها خارجا من محبسه، تعاود فتحه علّه يستطع دحر الوقت المشلول عقاربه فيستحيل عليه ذلك فتدسه في الحقيبة معلنة هزيمته مبدلة إياه بكتاب أو هكذا بان لوهلة، فما كان بين يديها لم يكن إلا الرواية التي كتبها رفعت والتى جمعتها ونظمتها وأعادت طباعتها وتغليفها. تداعب أصابعها الورق حتَّى تصل لورقة مكتوب فيها وببنط عريض ولون مغاير (الفصل الأخير) فتبدأ في القراءة قبل أن يأتوا بصاحب ذلك الفصل...

****

الأن الوقت مُوَات..

كل الأشياء مَوَات،

اللعبة ضجرة متعبة تهمّ بالإنصراف.

من أجل ذلك بهدوء تَلمّس طريقا

للخروج.

(الفصل الأخير)

(٢٢)

ليست كل الحكايات تُحْكي،، وليست كل الحكايات فحواها حروف وكلمات،، هناك حكايات أخري غير ذي،، تلك الحكايات القصيرة التي تتلخص في كلمة وجع.. كيف أصف الوجع..؟!، إن سألنى أحدهم ماذا بروحك من ألم فكيف أجيبه؟، أوَجع الروح مثل وجع الجسد نعبّر عنه بكلمات مثل نغْز وضيق وثقل وإذا عظُم الألم تستحضر البلاغة فنقول وكأن أحدهم ينهش، وكأن أحدهم يقطع. لا أظن أن كلمات ألم الجسد تصلح أن تعبر عن وجع الروح، ولا أظن أن هناك كلمات كافية نستطيع بها أن نصف ذلك الألم الساكن بين الضلوع...

أتسائل احيانا كيف إحتملْت؟!،، كيف قاومْتُ وناوبْتُ علي أيامي أحرسها لتصير شهورا وسنين، كيف لم تخنقني تلك الغصّة المعلقة المحشورة في حلقي، كيف تجاوزْتُ الألم، ثم ما الجدوي أن أتسائل الأن؟!، الأسئلة تدفعني للجنون والسكوت عنها موت. ما المنطق أن أستحضر ما ألَمني أمس ليؤلمني اليوم، وكأنى أستحلب ألمى، من منا يطارد الأخر، من يكتب من، من سيد من وصانعه، من سبب وجود الأخر ومن يستمد من الأخر الحياة، من منا الزيف ومن منا الحقيقة، أأنا الصانع الذي صنع لعرفة ذلك العالم الشاحب. فجعله يتسول الحب في زمن جف فيه ضرع المشاعر وكيف يُلْتمس الضرع والضرع يابس

من أناس لم يُفطروا عليه فكان بديهيا أن تملأ الخيانة أكفه المددوة في تضرع . ماذا فعلت به؟، لمَ لمْ أشفق عليه؟، جعلت الجميع ينهشون لحمه، سلبته كل أدوات دفاعه، حرمته من كل أسلحته، جعلته رخوا هينا تقيده مبادئه وتكبله اغلال قيمه، رميته في أتون حرب طحون مباح فيها كل خبيث واقفا له بالمرصاد إن حاول الحيد عن كتابى، وبعد إن صرت مكانه ملأ صراخ شكواى جنبات روحى متذمرا من الخيانة والخائنين، كافرا بما نصه عقلى وما كتبته يداي. وحتى وإن كان عرفة هو الذي خلقنى من وحى خياله وكوننى وما كنت أكثر من نطفة في عقله تقوم بعمل المحرض حتَّى أستسلم فحولنى إلى جنين شكَله وصاغه ببنات أفكاره، لمَ جعلنى على حالى خائنا فاسدا لا شرف لي ولا قيمة، أين أنت، ألك وجود، أم أن وجودك في خيالى فقط، سئمت صمتك، وعزلتك في بحر عقلى ،لمَ لا تتكلم، لم لا تنطق وتدافع عن وجودك، غارق دائمًا في صمتك، لا أدري أن كان سكوتك ترفع وكبر أم لضعف أو عدم وجود...

أعلم أن ما سيقدم من أجوبة سيؤكد غياب الإجابة، فعندما شرعت في كتابة روايتى إخترت عرفة كشخصية محورية تدور في فلكه كل الأحداث والشخصيات لم أجعل فيه ما يميزه، بل كان منفرا أحيانا، ضعيفا، نيا، تحترمه بداية وتتعاطف معه، لكن ومع مرور الوقت ودون أن تشعر تسقطه من حساباتك، تتيقن أنه لو عاش ألف عام وغاب فلن تتذكر حتَّى أنه قد مر من هنا. كان بإستطاعتى أن أجعل منه بطلا مكتمل الأركان، بطل مثل الذي يسطرونه في

الحكايات والقصص، إلا أنى جعلته مائعا كما أكلة خاصمها الملح. نصف حقيقة ونصف زيف يستقوى ليسيطر ويسود، جعلته أشبه بقط تلك التجربة الذي لا تميزه إن كان حيا ولاّ ميتا في حبس صندوقه ومن هنا جاء عنوان الرواية واسمها.. شرودنجر...

أعترف وأقر أن هناك خلل في عقلى، أضطراب ما، فما يحدث لا يصنف إلا أنه ضرب من جنون، شطط جعلنى أتخيل نفسي غير نفسي، كيف بكاتب يستيقظ من نومه فيجد نفسه مكان بطل روايته على الورق . أتمنى المرض وأطلبه فمجرد التفكير في إمكانية حدوث هذا يصيبنى بالهلع، ما أبشع من أن يعيش المرء شر خياله. لكن إقرارى بمرضى النفسي ليس نهاية المطاف لما أنا فيه من حيرة فاضطرابى مفاده أن هناك أحتمالا ولو ضعيفا أنى من الأصل عرفة ذلك الهش البائس ورفعت ما كان أكثر من شخصية خلقها خيالى. عموما بوسعى الآن الإستغناء عن كل تلك الأسئلة المربكة التي لا قيمة لها ولا إجابة فإن كنت سبب وجوده أو إن كان هو فعوالمنا قد تشابهت واتحدت، هو خانته زوجته وزوجتى خانتنى...

سأجعله يقتلها، سيدخل عليها غرفة نومها فيجدها تلملم ملابسها في حقيبة سفر كبيرة دون نظام وترتيب، في البداية سيحاول تجنبها، سيسعى على الحفاظ على كرامته عبر ادعائه أن رحيلها لا يفرق معه، سيدّعى رغبته في خروجها من حياته إلا أن الشر سيطرق رأسه مثلى كقرع طبول الحرب، ستصرخ

نفسه صرخة المقبل على المواجهة، سيجهل إن كانت صرخته خوفا من شره وإيذانا منه بخروجه عن زمام سيطرته أم خوفا مسبقا بهزيمة نفسه التي ستبقى وحيدة بعد هجرها له، سيقبل عليها، سيحادثها علّها تحسم خوفه، ستهاجمه فيبدأ بخنقها...

القدر فقط هو ما سيجعله يغير من طريقة قتله لها فملبسها الذي لم تكمل أرتدائه جعل نهديها يطلا من فتحة قميصها وهنا غير رأيه هذا بعد أن فقدت الوعى...

ستستيقظ فتجد نفسها قد نُقلت من غرفة نومها إلى منتصف الصالة، عارية تماما مقيدة على كرسي، تستشعر الخطر، تسعى لفك قيدها فتخور قواها، ستيأس فيختلط الهلع المطل من عينيها بتوسل وتضرع، سيغادرها متوجها للمطبخ عائد بالسكين المحبب لها والتى كانت دائمة الأستعمال له، ترى السكين معانقا راحة يده، فتحاول أن تصرخ بعين فاضت بكل رعب الدنيا إلا أن اللاصقة التي على فمها ستعيق صراخها، سيري الرعب في عينيها مطلا، تتابعه حدقتاها أيما تحرك، يترك السكين على طاولة الطعام الملاصقة لظهره منحنيا إليها مربتا على كتفها طابعا على خدها قبلة أرادها حانية، تهدأ قليلًا ودون أن تري يده سيسحب سكينه ملتفا حولها نصف دورة فيصبح خلفها، سيسند ذقنه على رأسها بهدوء وسكينة، ستهدأ حركتها أكثر عندما يهمس لها قائلا متخافيش وهنا يبدأ بالقطع...

سيعمل سكينه في نهدها الأيسر ببطء ورتابة، سينتفض جسدها مع كل ذهاب وإياب في لحم ثديها، سينفجر الدم شلالا متناثرا على وجهه ووجهها، بطرف كمه سيمسح قطرات الدم المتناثر على وجهه ووجها، سينتهى، فيلتف مرة أخرى ليصبح أمامها، سيزيح اللاصقة من على فمها فتهم بالصراخ فيكتم فمها بشفتيه لاعقا شفتيها برغبة وشوق، تستسلم تماما، فيجثو على ركبتيه بادئا في فك سراح يدها اليسري، يقف فيري العرق يغمر وجهها فيمسحه، يمر بيده على شعرها مساويا له مرجعا خصلاته خلف أذنيها، ينقل وقفته جوارها ماسكا يدها غامسا أبهامها مكان ما جزه سكينه بادئا الكتابة على زجاج الطاولة..

" أرسم هذه العوالم وأعيش فيها كما أريد.. كل إختياراتي صحيحة لكنها مع الأسف خاطئة "

سيحاول أن يوقظها حتَّى لا تفوتها تلك اللحظات التي لن تتكرر فتبوء محاولاته بالفشل، سيشك أنها قد ماتت إلا أنه سيحادث نفسه بأن لا جدوى من التأكد فما من شيء سيثنيه على إنهاء ما بدأه...

سيأخذ ما قطعه من صدرها للمطبخ وسيبدأ بطهيه مضيفا إليه كل ما طالته يداه من توابل..

ببطء ستفتح عينيها، وجهها صار شاحبا بشدة يميل لى الزرقة معلنا أن الحياة قد قاربت على مفارقته. ستراه جالسا على الطاولة يأكل، يراها تنظر إليه بوهن شديد فينظرها متأملا مبتسما، يغرز قطعة لحم في شوكته قائما إليها، سيضع

قطعة اللحم في فمها، سيساعدها على أغلاق فمها بوضع يده تحت ذقنها حتَّى تطبق فمها عليها، يتركها فتسقط قطعة اللحم في حجرها غائبة مرة أخرى عن الوعى..

سينهى ما بدأه، مكملا بتر نهدها الأيمن وبعد أن ينتهى سيضع السكين في فرجها...

سينتهى من طعامه، سيرجع إلى ورقه ناهيا روايته بخاتمة سخيفة هزلية أراد فيها أن يظهر هادئا خفيف الظل يشرح فيها ما تم متباهيا بفعلته متصلا بالشرطة...

هذا ما قرأته مريم وهذا ما جعلها تنتفض مع كل كلمة . كيف له أن يفعل ما فعل، وبأى صورة يرى نفسه، هل يري نفسه عرفة ذلك المخلوق الذي خلقه خياله، أم يري نفسه رفعت ذلك السيد الذي صنع شخوصا لا لشئ إلا لتدور في فلكه راضية غروره وكبره. لمَ قتل زوجته؟، هل لأنها خانته؟، أم لأنها خرجت من قيده، وناطحته شعورا بشعور ورفضا برفض...

خلف الباب تسمع خطوات ثقيلة تأتى كما الموت ثابتة وئيدة . تقف الخطوات فيظهر من أسفل عقب الباب ظل فرض نفسه على الأرض، ترى مقبض الباب يتحرك بفعل أحدهم من الخارج فتتحرك روحها فيها وادة الهرب، ينفتح الباب بطيئا، صارخا بصريره بأخر فرصة لها للهروب قبل المواجهة، تراه مصفدا في يد عسكرى طمع في كل بؤس الدنيا وفقرها فنال بغيته...

ينظر رفعت إليها، يحدق في عينيها فلا تملك غير التحديق في عينه، كل شيء صار باهتا، ظلال يملك أركان المشهد فيغشي العين فيملى على الموقف قلقا زارعا في القلب خوف، تنهى عراك أصابعها ببعضهما لتمسح براحتيها صفحتى وجهها في محاولة لمسح القلق والخوف المنحوت فيه، يسحب العسكرى مفتاحا من جيبه فاضا أغلاله، يخاطبها العسكرى أنه بالخارج لو أرادت شيئا، لا تسمعه ولا تنظر إليه بل لا ترى شيئا حولها فكل شيء صار فراغا، كل شيء صار عين رفعت...

يظل واقفا لا يسقط عينيه من عليها، ترتبك فتبحث عن مخبأ لنظرها حتَّى لا تنظر إليه، لا تدري سببا لخوفها رغم يقينها أنه لن يؤذيها، يظل على حاله واقفا لا يتقدم ولا تفارقها عينه تعصر راحتيها براحتيها فتكف ألما، تمتد يديها فتمسك روايته من على المنضدة..

أنتى مين.. هكذا أتاها صوته رخيما هادئا وكأنه جاء من أعماق الموت..

إنتهى..

الى اللقاء في الجزء الثانى.. **الإله**

أكـمل الصـاوي،،